كنوت هامسن

أسرار

[الروائي الحاصل على جائزة نوبل للآداب 1920]



ترجمة: أماني لازار

تقديم: ممدوح عبد الله

رواية



كنوت هامسُن



رواية

ترجمة: أماني لازار

مسكيليانى للنشر

الكاتب: كنوت هامسُن

عنوان الكتاب: أسرار

ترجمة: أماني لازار



ت ... ن

الها... (+96

الإيم... mas

هل عاد دوستويفسكي مرة أخرى؟

لم تُمنح جائزة نوبل قط لكاتب أكثر جدارة بها من كنوت هامسون.

توماس مان

يشير المؤرّخ اليساري هوارد زن في إحدى مقالاته إلى أنّ وظيفة المبدع مهما كان مجالُه هي أن ينتج أعمالًا جميلةً ويقدّمها للجمهور، أن يمنحه الجمال والضحك والعاطفة والمفاجأة والدراما. لكنّ هناك أعمالًا أكبر من مهمّة الإبداع ورغم ذلك فعلى المُبدع أن يقوم بها، وتتمثّل في التسامي على الرّاهن، في الترفّع عن جنون العالم والرعب، وفي محاولة الابتعاد عن الجمهور لحظات الفزع. على المُبدع أن يتجاوز المؤسسات المسيطرة وينفلت من حدودها، وممّا تكرّسه أو يفرضه إعلامها السائد. وبذلك فقط، يمكن له أن يفكّر خارج حدود الفكر المسموح به وأن يتجرّأ على قول أشياء لا يفكّر الآخرون مجرّد التفكير بها. ويستشهد هوارد زن بالروائي الأمريكي مارك توين، حين قامت الولايات المتحدة بغزو الجمهورية الفلّيبينية. ففي الوقت الّذي هنّأ فيه الرئيس روزفلت الجنود الذين قاموا بعدّة عمليات في هذه الحرب قطفوا خلالها أرواحا لا تُحصى ولا تُعدّ للمحافظة على شرف العلم الأمريكي حسب قوله، قام مارك توين بشجب هذه التهنئة ولم يكتف بإدانة هذه الحرب فحسب، بل أصبح أحد أهم المحتجين ضدّها: لقد قفز توين من إطاره بوصفه كاتبَ قصة وأديبًا إلى قلب

النزاع السياسي، ولقد تجرّأ على قول أمور لم يكن الكثيرون في البلد يقدرون على قولها. وهي المفارقة نفسُها وإن كانت بشكل مختلف في ما يتعلّق بالروائي النرويجي الحائز على نوبل للآداب عام 1920م الروائي كنوت هامسُن. إذ كيف لأديب كان المعبّر عن الروح القومية النرويجية، وسيّدا من سادة الأدب في البلاد، وأكبر مجدد في تاريخ حركة الأدب الأسكندنافي في نهايات القرن التاسع عشر، أن ينخرط هذا الانخراط الفج في السياسة إلى درجة الطعن في خاصرة الوطن بقساوة لا مثيل لها! سيرة حياته تشهد له بأنه وصل إلى ما وصل إليه عبر كفاح طويل ومؤلم، في رحلة طويلة للبحث عن مصدر رزق يقيه من التشرد والهجرة من النرويج، حتّى استطاع أن يمسك بالقلم ويقدّم ما يؤمن بأنّه رائع وجميل، وحين غزت النازية الألمانية النرويج كتب كنوت هامسُن مقالة بعنوان: «كلنا ألمان». فهل كانت كراهيته العميقة لما يصفه بالإمبريالية البريطانية هي السبب في اتجاهه نحو الألمان؟ هي بلا شك أحد أكبر الأسباب، ولكن كيف يمكن هز أسس الإمبريالية البريطانية في حالة الغزو النازي لوطنه؟ ربما كان يخشى من أن تصل بريطانيا إلى وطنه، ففضّل القوّة الوليدة التي تبشّر بأوروبا جديدة يقودها هتلر، وكان هامسُن مؤيدًا لهذه الحركة: حركة ترفض الإمبريالية وتحمل مقوّمات وجود مثالية ورائعة. ولكن هل كانت كذلك؟ حين كتب هامسُن مقالة «كلنا ألمان» كان منعزلًا في بيته، لا يشتري الصحف، ولا يستمع إلى الإذاعة لضعف في حاسة السمع لديه. ومثلما يفعل سادة الكلمة الكبار، وجد نفسه مضطرًا لأن يقابل الحاكم النازي للنرويج من أجل العفو عن شابين نرويجيين كانا منتسبين إلى الثوّار. الحاكم النازي يعرف هامسُن. لن يجد في الأرض النرويجية من يكتب بقلمه ويؤيد ما يجري أكثر من هامسُن نفسه.

ولكن، في حسابات هذا الحاكم، السياسة لا علاقة لها بالأدب، ولذلك قرر إعدام الشابين بأسرع ما يمكن وهذا ما حدث. كثر الحديث بعد هذا اللقاء عن إلغاء النرويج من الخارطة الجغرافية وجعلها تابعة للنازية الألمانية إلى الأبد. يقوم العجوز كنوت هامسُن بزيارة إلى النمسا ليلتقي شخصية مهمة قد تساعده في تحريك المياه الراكدة في النرويج والتخلص من الحاكم النازي. ولم تكن تلك الشخصية سوى هتلر نفسه. يلتقي هتلر هامسُن، مُرحّبًا بهذا الشخص الذي ألقى خطابًا مُهمًا يؤيّد فيه القومية الألمانية ويهاجم في الوقت ذاته الإمبريالية والبريطانيين. تذكر سجلّات الأرشيف أنّ هتلر بادر هامسُن بالكلام، سائلًا إياه عن طبيعة عمله الأدبي «واخضرت الأرض»: كيف استطاع كتابتها، وهل كان وقت الكتابة في الليل أم في النهار. يريد هتلر -كما ذكر- أن يعرف حالة الإبداع لدى الأديب مُمثّلة في هامسُن، ويقارنها بحالة الإبداع ممثلة في السياسيّ هتلر. لكن هتلر يخاطب عجوزا لم يأتِ إلاّ لهدف واحد. بادر بالإجابة قائلًا ما معناه: إنّ الحاكم النازي يفعل أشياء تثير غضب الشعب وعلى هتلر أن يستبدله، يجب أن يتخلص من هذا الرجل الذي يدمّر سمعة هتلر بأفعال إجرامية وتصريحات تبشّر باختفاء النرويج إلى الأبد. حاول هتلر التملّص من إلحاح هامسُن، إلاّ أنّ الأخير عبّر بصراحة مخاطبًا هتلر: «وكأني أتحدث إلى حائط!» ولم تمر دقائق قليلة حتى طرد هتلر الروائي هامسُن، ووجد الروائي العجوز نفسه في حالة يرثى لها من الخوف. بعد سنوات قليلة، حين تتحرر النرويج و يعلن عن موت هتلر، يكتب كنوت هامسُن مقالة جاء فيها: «لقد كان هتلر محاربًا عظيمًا من أجل الإنسانية!»

ومهما كانت الصورة، فإنّ انتساب هامسُن إلى أحد التيارات

السياسية أو تبنيه لرأي سياسي ليس أمرًا مثيرًا للجدل فكثير من الأدباء لهم آراء في السياسة، لكن درجة المشاركة السياسية وخطورتها هي التي جعلت حالة كنوت هامسُن خطيرة ولا يُعرف كيف يتم تبريرها. بعد تحرير النرويج تم إدخاله مصحةً نفسية. قد تكون تلك الآراء ناتجة عن حالة من الجنون، وقد تكون ناتجة عن عدم معرفة كاملة بما فعلته النازية في أوروبا. إلا أن هامسُن يعلن بأنه ليس مجنونًا، وها هو في المستشفى النفسي يكتب عملًا جديدًا وسيقدمه إلى الجمهور في أقرب فرصة. ورغم كل التبريرات التي ذُكرت أو ستُذكر لاحقًا، فإنّ ارتباط هامسُن بالنازية نقطةٌ سوداء في تاريخه الشخصي بوصفه أديبًا وإنسانًا له حضور في ذاكرة الأدب الشعبي والروائي في عموم أوروبا. ويكفي لمن يفكّر في قراءة كنوت هامسُن ويريد أن يعرف تاريخه السياسي، أن يشاهد فيلم هامسون Hamsun 1996 الذي قام بدور الروائي فيه الممثل السويدي الكبير ماكس فون سيدو. الفيلم يقدم هامسُن في ارتباطه بالنازية، ولكن هل هذا كل شيء؟ يقدم المخرج مادة سينمائية مقتبسة من دراسة لباحث دنماركي يدعى توركيلد هانسن. ومن الأفكار التي طرحت في هذا الفيلم أن هامسُن أيّد القيم الألمانية، وهي قيم لن يختلف فردان عليها. لكنّ عزلة هامسُن جعلته لا يعرف ماذا يجري في أوروبا من مجازر ومعتقلات. ولو كان يعرف ذلك فمن الممكن أنه لن يسكت. ويدلل على ذلك بأن أحد ناشري هامسُن المقربين هو من اليهود، ولم يكنّ له أي احتقار أو كراهية. في أحد أعظم مشاهد الفيلم وتحديدًا جلسة محاكمة كنوت هامسُن، يلقي الممثل ماكس فون خطبة طويلة يتحدث فيها عن كل شيء. لم ينكر، ولم يدّع الخرف حتى يمكن له أن يهرب. يعلن تحمله لكل أفعاله. أمّا ما جرى على أرض الواقع كما

يقول من عذابات وقتل ومجازر، فلم يكن يعلم عنها شيئًا، لأنه كان منعزلا، ولا يستطيع الاستماع إلى الإذاعة، ومع ذلك فقد أخطأ وعليه تحمّل المسؤولية.

هناك نقطة جديرة بالملاحظة في الأدب النرويجي: ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان هناك نوع من السيادة الأدبية تجسّد في الأربعة الكبار، ومنهم من يُسمّى بأبي المسرح: هنريك إبسن. هذه السيادة الأدبية رغم قوتها وشعبيتها في أوساط المجتمع فإنّها لم تكن محصّنة، أي أنّها غير مقدّسة. لقد كانوا يمثّلون القمة والروعة في النتاج الأدبي، ولكن كان هناك آخرون لا يقلّون موهبة. أحد الروائيين النرويجيين، لم يكن يملك إلا رواية واحدة هي رواية «الجوع»، فتح النار على الأدباء الكبار. كان ذلك كنوت هامسُن، كان رأس الحربة لجيل جديد يبشّر بأفكار جديدة. وقد كان بيانهم الرسمي الذي بشر بهذه الأفكار عبارةً عن مقالة في مجلّة «العصر الجديد» حملت عنوان: «فهم حياة العقل اللاواعية». المناطق الغامضة في النفس البشرية، تيار الوعي الذي حان أن يحتل مكانة أخرى، جديدة ومؤثرة. تيار الأفكار الساكن في العقل يجب أن يخرج كإعصار، كانفجار يجتث ما أمامه. تلك هي الأفكار التي كان هامسُن يبشر بها، داعيًا إلى نوع جديد من الكتابة يتخطّى السائد والمكرّس. وقد امتدت هذه الحركة الجديدة من المقالات والصحف إلى المحاضرات. وفي إحدى هذه المحاضرات تلقى المسرحي الكبير إبسن دعوة لحضور محاضرة لكنوت هامسُن في كريستينا، أو ما يُعرف الآن بأوسلو. كرس هامسُن في هذه المحاضرة هجومه على التيار القديم ممثّلا في إبسن، وتوسع من حركة نقده ليشمل الروائي الكبير تولستوي! هذه الخلفية النقدية لكنوت هامسُن رافقها في ذات الوقت تطبيق عملي. إذا كان هامسون يبشر بحركة

جديدة، فعليه أن يأتي بمثال حي كي يوضّح ما يعنيه بـ«حياة العقل اللاواعية»، ويبرز ملامح هذه الحركة اعتمادًا على الفن نفسه، لا التنظير له. وكانت النتيجة هي رواية «أسرار».

هل عاد دوستويفسكي مرة أخرى إلى الحياة ليكتب نصًّا أدبيًّا نُشر تحت اسم كنوت هامسُن؟ أم أن هناك بالفعل روائيًّا آخر يستطيع أن يصل إلى ذروة التحليل النفسي في شخوص أبطاله بقدر ما كان يفعل دوستويفسكي؟ لا أريد ذكر اسم دوستويفسكي في هذا التقديم. أفضّل أن يكون مخصصًا لـ«أسرار» ولصاحبها النرويجي، ولكن ماذا نفعل بتأثير دوستويفسكي الضخم في فن هامسُن ولا سيّما في رواية «أسرار»؟ بل إنّ أحد الروائيين ذهب إلى حدود الإقرار بأن هامسُن تخطّى دوستويفسكي نفسه، قد لا أتفق معه بشكل كامل ولكن- بعد قراءة «أسرار»- يمكن أن أقول إنّ هامسُن وصل إلى مناطق مخيفة في النفس البشرية لم يصل إليها دوستويفسكي نفسه. لم أتخيل بأنّي سأقول هذا الكلام في يوم من الأيّام، ولكن هامسُن فعلها بجدارة، وكانت مفاجئة بالنسبة إليّ، مفاجأة لم أتخيّلها حقًا. ولو دللت على ذلك سأقول: لنجمع شخصيات على درجة بالغة من التناقض من أدب دوستويفسكي نفسه: المحقق بروفير في «الجريمة والعقاب»، والأمير ميشكين في «الأبله»، وستافروجين في «الشياطين»، وإيفان في «الإخوة كارامازوف». وهي شخصيات تتناقض فيما بينها أشد التناقض، كل واحد منهم انطلق في اتجاه بعيدًا عن الآخر. السؤال هنا: هل هناك إمكانية لجمع فكر هؤلاء الأربعة في شخصية واحدة؟ لا يمكن .. من المستحيل أن يحدث مثل هذا الأمر على الإطلاق. كيف يمكن جمع شراهة التحقيق لبوفير مع مسيحية الأمير الجمالية، مع غموض ستافروجين، وفكر إيفان الملحد؟ كنوت هامسُن تجرّأ في

«أسرار» على تقديم شخصية من أغرب الشخصيات في الأدب. حتى بعد الانتهاء من الرواية وقراءة عدة صفحات نقدية عن الرواية، لم أعرف على وجه الدقة ما الّذي كان يريده بطل «الأسرار» وما حقيقته. «الأسرار» تبقى أسرارًا، لا تكشف عن نفسها ولو تلميحًا. السر القابع في الأعماق، يجد في ذلك المكان ملاذًا لا سبيل لإخراجه منه إلاّ بأمر صاحبه. ولو قرر صاحب الأسرار أن يكشف عمّا يُخبّئ في الأعماق: هل ستكون لديه القدرة على الحديث بشكل يتيح للجمهور العام إمكانية تصديقه دون أن يتّهمه بالجنون؟ هذا الغموض الذي يحيط ببطل الأسرار ظهر لنا بوصفه جامعًا لشخوص دوستويفسكي الأربعة المتناقضة. ولم يكن النص مهلهلًا أو طويلًا لصعوبة احتواء الأفكار. نصّ متوسط الطول جمع هذه الأفكار وعبّر عنها بأبلغ ما يمكن للأدب الروائي أن يصل إليه.

يضع كنوت هامسُن بطل رواية «أسرار» جون نيلسن نيجل أمام القارئ من أول صفحة، ويسير معه في جميع صفحات الرواية، لا يتركه لحظة واحدة، حتى الصفحة الأخيرة. هذا الحضور المباشر لبطل الرواية ترافق مع أمور غريبة: من أين أتى هذا الرجل؟ أي أرض كان يقيم فيها.. ولماذا حضر إلى هذه المدينة الصغيرة ليثير فيها البلابل والفوضى بأفكاره وقصصه؟ هل يحمل مخططات لتنفيذها أم أنه تائه، ضائع، لا يعرف أين يذهب وأي مكان يسير فيه الآن؟ وصل نيجل إلى هذه المدينة من اللامكان، دون تاريخ.. من السفينة إلى الأرض مباشرة، وكأنه كائن لا يشدّه شيء إلى طبيعة البشر وفكرهم. الحركات التي يسير عليها غريبة تنبئ عن جنون: ينزل من السفينة ثم يصعد، ينزل ثم يصعد، ثم يقرر النزول نهائيًا على الأرض ليستقر في هذه المدينة. لم يذهب إلى الفندق. سار في اتجاه

أقرب صيدلية ليحصل على مادة سامة. وهذه المادة كانت أقرب إليه من نفسه: مجرد النظر إليها يمنحه الاطمئنان، وكأنه يمتلك تذكرة عبور إلى الحياة الثانية، أو إلى العدم. حين يصل إلى الفندق يسمع عن جريمة حدثت في هذه المدينة: شاب في مقتبل العمر وُجد مضرّجًا بالدماء قرب الغابة. تستحوذ تفاصيل حياة القتيل على عقل نيجل. يجلس نيجل في إحدى صالات الفندق ويسترعي انتباهَه أحدُ الموظفين الحكوميين الكبار الذي يقوم بالسخرية من إحدى الشخصيات المركزية في الرواية: القزم. هذا الموظف في السلك القضائي يسخر من القزم، محاولًا إجباره على الشراب والضحك معه. يقوم نيجل ويطلب من القزم – وهو لا يزال غريبًا- أن يصفع هذا المسؤول ويعده بمكافأة مالية إذا قام بذلك. تنعقد أواصر الصداقة بين نيجل والقزم. وهنا تظهر أولى ملامح شخصيات دوستويفسكي: المحقق بروفير في الجريمة والعقاب. في جلسة حوارية يبدأ نيجل بطرح الأسئلة حول ما يجري في هذه المدينة: لماذا يُعامل القزم هذه المعاملة القاسية، وحين يبوح القزم بجريمة القتل تلك يبدأ التحقيق من قبل نيجل: كيف قتل؟ وما دلالة المكان؟ وماهي علاقة المقتول ببعض الشخصيات في البلدة، والنسائية منها تحديدًا. إن من يطرح هذه الأسئلة لا يمكن أن يكون إلا محققًا قضائيًا أو شخصًا تتملّكه الرغبة في الانتقام. رغم ذلك، فنيجل ليس محققًا. وصل إلى هذه المدينة بوصفه مهندسًا زراعيًا، ولا شيء آخر. والملمح الآخر: الغموض الذي يكتنف تصرفاته وأفكاره، ويجعله موازيا لشخصية رواية «الشياطين»: ستافروجين. يقوم بأعمال أخلاقية كبيرة، وفي ذات الوقت يقوم بأعمال في غاية الانحطاط. إلى أين يتجه بهذه الغرابة؟

من ملامح العبقرية في رواية «أسرار» هو تيار الوعي، وتحديدًا في

الفصل الثالث وفي الفصل ما قبل الأخير. إن كانت لدي القدرة على استخدام مفردة أخرى غير تيار الوعي في نص هامسُن هذا لما ترددتُ في ذلك. ارتبط هذا المفهوم في الآداب الأوروبية بمارسيل بروست وجيمس جويس وفيرجينيا وولف. وعرفت هذه التقنية في استخدامات قبل صعود هذا التيار بشكل كبير، مثلما هو الشأن في أحد فصول «آنا كارينينا» لتولستوي. كنوت هامسُن لا يحمل إرث تولستوي باستخدامه تيار الوعي، ولم يسر على نهج الجيل اللاحق: جويس مثلًا. تيار الوعي عند كنوت هامسُن غاضب، أشبه بالانفجارات. ضربات رجولية تجتثّ ما أمامها دون رحمة. هذا التداعي الانفجاري للذاكرة غير مشتت. فهامسُن لا يعتمد على الغموض والإبهام في هذا السرد، بل هو صريح صراحة مباشرة. ولا يُفقد القارئ مسيرة التداعي هذه. أشعر بأن هامسُن يحترم قارئه كثيرًا ويريد أن يقدّم له أقصى قدر من المتعة. حسنًا، لا أظنه تجاوز هذا الأديب أو ذاك في هذا الشكل: ولكن أقول: أيّ قلم جحيمي يمتلكه هامسُن في هذا الضرب من السرد؟ بمثل هذه القوة التي يمتلكها، يستطيع المؤلف أن يغزو العالم بأدبه وقد فعلها، ويستطيع أن يهب قارئه أقصى ما يريد وأظنه —من تجربة القراءة له— قد نجح بتفوق. في الفصل الثالث، يجلس نيجل في غرفته. يمسك رأسه بيديه ويبدأ ذلك التداعي: يبدأ برثاء القتيل وهو يسأل نفسه: أيّة لعنة قادت القتيل إلى السير في هذا الطريق، كان بإمكانه أن يسير في الطريق المعاكس أو ذلك الطريق. وحين يريد هامسُن أن ينتقل إلى موضوع ثانٍ أو تداعٍ آخر لا يقطع النص، بل ينتقل بمرونة. يقطعه بخفة عبر سخرية البطل من نفسه، وسخريته من الآخر، ثم يعود إلى التداعي مجدّدًا. من أشكال هذه الانقطاعات الخفية توقّف التداعي بسبب قوّة السرد، لم يعد العقل قادرًا على ترتيب الكلمات

وإخراجها بكل سهولة، كأن يقول مخاطبًا عقله: شش شش! واحد، اثنان، ثلاثة، سبعة، ثمانية، إنها الثامنة! الساعة الآن الثامنة! تسعة، عشرة. العاشرة الآن.. يجب أن أنهض؟ ولكن أين تدق هذه الساعة. انقطاعات بسيطة مثل هذه ثم يعود نيجل مخرجًا كل ما في عقله. وقد لا يحمل تيار الوعي حدثًا، قد يكون أي شيء. في إحدى الصفحات يسأل: هل تعرف من هو الشاعر العظيم؟ لماذا؟ الشاعر العظيم لا يخجل! أحد النبلاء الفرنسيين سأل فيكتور هيجو: من هو أعظم شاعر فرنسي؟ أجاب هيجو: ألفريد دي موسيه هو ثاني أعظم شاعر. من الأدب إلى الطبيعة وعالم الفكر يغدو نييجل معبّرًا عن فلسفة نيتشه. قلت سابقًا إنّ أيّ قارئ لفلسفة نتيشه يجب أن يطّلع على هذا النص، فالبطل خير ممثّل لفلسفة نيتشه حول الكائن الأعلى. لكن صاحب «الأسرار» يقلب الطاولة بعد صفحات بسيطة إذ لا يحمل ولو شذرة واحدة من شذرات نيتشه. أمّا تيّار الوعي في الصفحات الأخيرة فهو من أروع ما خطّه قلم هامسُن. تداعي للذاكرة بسبب مسيرة الأحداث في الرواية، وتحديدًا بسبب شخصية الرواية النسائية: داجني. العلاقات التي يقيمها نيجل مع شخصيات الرواية النسائية تنقسم إلى قسمين: حب شهواني تجاه داجني، وحب قائم على الشفقة تجاه مارثا. نيجل يطارد داجني كظلها، عاشقًا هذا الجسد وهذا الجمال بصورة محمومة. ومن جهة أخرى يسقط في غرام امرأة كبيرة في السن ذات شعر أبيض، هي مارثا، وكأنه مستعد لفعل أي شيء فقط كي لا تتألم من ظروف الحياة الصعبة. في علاقته مع داجني: العلاقة شهوانية. في علاقته مع مارثا: العلاقة مثالية، قائمة على التضحية. هنا مكمن الصعوبة أو بمعنى أصح: الأسرار! هل نيجل واع بتلك العلاقات، أم أن ما يترسّب في لاوعيه هو المتحكم في علاقاته هذه؟

في تيار الوعي الثاني يمسك نيجل رأسه الذي يهتز ويطلق ما يخرج منه بصورة محمومة. لكنه تفوق على نفسه حين جعل هذا التداعي الغاضب شعريًا بامتياز. ولا بدّ من التأكيد مرّة أخرى على كلمة «غاضب» أو «انفجار» حين نتحدّث عن تيار الوعي عند هامسُن. لأن ما يجري في هذه الصفحات لا يمكن وصفه إلا بالغضب أو الانفجار على وجه الحقيقة. أتذكّر خمسة أسطر من رواية «مرتفعات وذرينغ» لإيملي برونتي، حين يصل هيثكليف إلى قمة جنونه، مخاطبًا كاثرين. كلمات بسيطة كانت تحمل مزواجة بين الانتقام والحب. نيجل ليس هيثكليف، لكنه وصل إلى تلك الحالة من الانتقام والحب تجاه داجني. أيّة قوة تمتلكها تلك المرأة؟ وكأنه اكتشف السر ليصرّح لنفسه بهذا الرأي، فانطلق في خطاب شعري في صفحات متعددة تجاه داجني: هائمًا وعاشقًا، ينسج لحنًا من العشق في تدفق هائل، إلى درجة عزمه على تحويل اسمها إلى قَسَم، تحلف البشرية به، وسيتحمل هذه الخطيئة أمام الله كما يقول. وهنا يحدث الانقلاب، أو الكارثة. فما إن يلتقط أنفاسه قليلًا حتى ينقلب بشكل كامل ويفجر غضبه وانتقامه. وكأن الكائن الذي تحدّث لنا بصورة شعرية هو كائن آخر مختلف عن الكائن الذي يحدثنا الآن. حين انتهيت من هذه الرواية، لم أقرأ أي عمل لفترة من الزمن. وكلما شعرت بحاجة ماسة إلى القراءة أفتح أي صفحة من صفحات الرواية وتحديدًا تلك التي يمارس فيها المؤلف تقنية تيار الوعي. كيف بإمكان النص أن يحمل شاعرية عظيمة مع تلك القوة الهائلة في التدفق السردي؟ حين أتحدث عن تيار الوعي من مونولوج وانطباعات حسية ودراما ذهنية أتذكّر مباشرة أروع نص في «آنا كارينينا» تولستوي، حين يستخدم تولستوي هذه التقنية في ذروة أحداث الرواية بشكل مُبهر. هامسُن يفعل مثل تولستوي لكنه يضرب،

وكأنّ ما يكتب به النص مطرقة وليس قلمًا. مطرقة تحطم وتبعثر. وهذا الضرب السردي مكتوب بلغة عذبة وشعرية للغاية. ليست الدراما بتأثيراتها هي ما يجعل القارئ يستمتع بالنص، بل شعريّته العالية التي منحت النصّ قوة مضاعفة فوق قوة هذا التدفق السردي.

للطبيعة مكانة كبرى في رواية «أسرار». الغابة تطلق نداءات خفية تجذب إليها روح نيجل. إنه يبجّل القروي الذي يعيش في أرجائها، مبجلًا طبيعته وحياته وهو يقود ماشيته إلى درجة تمكنّنا من الإقرار بأن نيجل وجد أخيرًا ما وصفه بالمواطن النرويجي الصالح. يصاب بالرعدة حين يجد نفسه منساقًا إلى الغابة، عميقًا عميقًا: وحين يختلي بأرجائها يشاهد المدينة على الضفّة الأخرى، وفي الناحية الثانية الغابة، والسماء اللانهائية في الأعالي. عبّر نيجل عن هذه الطبيعة بوصفها بالكنيسة: تعرف خطواته واتجاهاته، يعرف كل غصن من أغصانها، وتعرفه الطيور، وحين تشاهده تنطلق في عزفٍ موسيقيّ تبجيلي له.

لا يمكن الكتابة عن «أسرار» دون أن تكشف عن مرحلة من أخطر مراحلها، وتحديدًا في الصفحة الأخيرة من الرواية. والكشف عمّا حدث في الصفحة يستلزم قراءة الرواية كاملة كي يكون وقع الحدث على القارئ كالصاعقة. كنت أسأل أحد الأصدقاء- الزميل عدي الحربش- عن حقيقة نيجل وما يريد. وصلت إلى منتصف الرواية، وكلما بنيت رأيًا حول نيجل يأتي في الصفحات اللاحقة لينقض هذا الرأي. كان الجواب الذي يأتيني: انتظر الصفعة الأخيرة حتى يحدث الانقلاب الكامل وستفهم نيجل بشكل كامل. ما أذكره حين قرأت هذه الصفحة بأني ضحكت كثيرًا. ثم قرأت الصفحة مرة ثانية وغضبت منها ومن مؤلّفها وكنت أسأل نفسي: ما الذي حدث فعلًا؟ وكيف يسير

أمامك ذلك الشيء طوال الرواية دون أن تراه ثم يظهر هكذا دفعة واحدة وبشكل مخيف. لم أبحث عن إجابات لأن هناك إجابة واحدة: الهاوية. كان يحلو لكنوت هامسُن أن يحلّل شخصيات أبطاله، لكن من قال إنّ هناك عمقًا قد ينتهي؟ ففي النهاية لا وجود لغير هاوية سحيقة، هاوية لا قرار لها!

ممدوح عبد الله

الرياض في 2014/2/23

إلى نوّار جَبّور

أماني

الفصل الأول

كان منتصف صيف العام 1891 بداية لحدوث أكثر الأشياء خروجًا عن المألوف في بلدة نرويجية ساحلية صغيرة. ظهر شخص غريب يدعى نيجل، شخص فريد هزَّ البلدة بأطواره الغريبة، ثم اختفى فجأة مثلما ظهر. زارته ضيفة في وقت من الأوقات: أتت سيدة شابة غامضة لسبب لا يعلمه إلا الله، ولم تجرؤ على البقاء سوى ساعات معدودات. لكن دعني أبدأ من البداية...

بدأ كل شيء عند الساعة السادسة من مساء أحد الأيام عندما رست باخرة عند أرصفة الميناء وظهر ثلاثة مسافرين على متنها. كان أحدهم يرتدي بذلة صفراء فاقعة اللون ويعتمر قبعة من قماش قطني مضلع كبيرة الحجم. كان مساء الثاني عشر من شهر حزيران، والأعلام تخفق في جميع أنحاء البلدة على شرف خطوبة الآنسة كيلاند التي تم إعلانها ذلك اليوم. صعد بواب الفندق المركزي على ظهر المركب وناوله الرجل ذو البذلة الصفراء أمتعته. وسلّم تذكرته في الوقت نفسه لواحد من مسؤولي السفينة، لكنه لم يتحرك للذهاب إلى الشاطئ، بل شرع يذرع ظهر المركب جيئة وذهابًا. بدا مضطربًا إلى حد بعيد، وعندما رنَّ جرس السفينة للمرة الثالثة لم يكن قد دفع لمضيف السفينة فاتورته بعد.

وبينما كان يهتم بدفع فاتورته أدرك فجأة أن السفينة كانت تغادر. فصاح فزعًا من على السياج مُخاطبًا البواب في الأسفل: «حسنًا خذ

أمتعتي إلى الفندق واحجز لي غرفة».

عند ذلك، أقلته السفينة إلى الزقاق البحري.

كان هذا الرجل يوهان نيلسن نيجل.

نقل البواب على إحدى العربات أمتعة سفره المؤلّفة من حقيبتين صغيرتين فقط، ومعطف من الفراء (بالرغم من أن الوقت كان منتصف فصل الصيف)، وحقيبة كتب، وحقيبة آلة كمان. لم تكن أية واحدة منها تحمل بطاقة تعريف.

ظهيرة اليوم التالي تقريبًا، استقل يوهان نيجل عربة يجرها حصانان وسار على الطريق المؤدي إلى الفندق. كان يمكن أن يكون القيام بالرحلة على متن قارب أكثر يسرًا، لكنه على الرغم من ذلك جاء بواسطة عربة. كان يحمل مزيدًا من الأمتعة؛ كان هناك على المقعد الأمامي حقيبة صغيرة، ومعطف، وكيس صغير مرصع بلآلئ تشكل أحرف ي. ن. ن.

قبل أن يترجل من العربة سأل صاحب الفندق عن غرفته. ولاحقًا، عندما كانوا يرشدونه إلى الطابق الثاني، بدأ يتفحص الجدران ليعرف مدى سماكتها وما إذا كان بوسع أي صوت أن يتسرب من الغرف المجاورة. وفجأة التفت إلى الخادمة وسأل:

«ما اسمك؟»

«سارة.»

«سارة.» ودون توقف: «هل يمكنك أن تجلبي لي شيئًا لآكله؟ حسنًا إذن، اسمك سارة. قولي لي،» وتابع،«هل كانت توجد صيدلية في هذه الأمكنة سابقًا؟»

أجابت سارة متعجبة: «نعم، لكن مضت على ذلك سنوات عديدة.»

«أوه، سنوات عديدة؟ عرفت ذلك من لحظة دخولي، لم تكن الرائحة قوية جدًا لكن بطريقة ما أحسست بها.»

عندما نزل ليتناول وجبة العشاء، لم يفه بكلمة طوال وقت الوجبة. رفيقاه المسافران من اليوم السابق-الرجلان على طرف الطاولة الآخر -تبادلا الإشارات لدى دخوله ولم يبذلا جهدًا ليخفيا تندرهما على سوء حظه مساء البارحة، لكنه لم ينتبه إليهما.

أكل بسرعة، اعتذر عن تناول التحلية، وغادر الطاولة فجأة مزيحًا المقعد إلى الوراء، أشعل سيجارًا واختفى في الشارع.

بقي في الخارج إلى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل، وعاد قبل الثالثة بدقائق قليلة. أين كان؟ لم يُعرف إلا فيما بعد أنه ذهب إلى البلدة المجاورة سيرًا على الأقدام وعاد على نفس الطريق الطويلة التي عبرها ذلك الصباح في العربة. لا بد أنه ذهب لتسوية بعض الأمور العاجلة جدًا هناك.

عندما فتحت سارة له الباب كان مبللًا بالعرق، لكنه ابتسم لها وبدا أنه في حالة معنوية ممتازة.

«يا إلهي يا فتاة، أي عنق جميل هو عنقك!» قال.

«هل وصلتني أي رسائل أثناء غيابي-باسم نيجل، يوهان نيجل؟ ثلاث برقيات! أوه، هلا أسديت لي معروفًا وأزلت تلك الصورة من على الجدار، هلّا فعلتِ؟ لا أحب أن تحدّق إليّ. سوف أشعر بالانزعاج حقًا عندما أستلقي في السرير وأنظر إليها! ثم إن نابليون الثالث لم يكن لديه مثل هذه اللحية الكثة. بأية حال، شكرًا لك.»

عندما مضت سارة ظل نيجل واقفًا وسط الغرفة. جامدًا في مكانه، يحدّق بتركيز إلى بقعة في الجدار، وفيما عدا أن رأسه انخفض أكثر

فأكثر إلى جانب واحد، لم يأت بحركة.

كانت قامتُه قصيرةً، وجهُه داكنَ البشرة، وعيناه بنيتيّن غامقتّن بسيماء غريبة، وفمُه أنثويًا ناعمًا. وضع في إحدى أصابعه خاتمًا عاديًا من الرصاص أو الحديد. كانت أكتافه عريضة جدًا، يتراوح عمره بين الثامنة والعشرين والثلاثين بالرغم من أن شعره كان قد بدأ يشيب عند الصدغين.

أفاقَ من أفكاره بقفزة عنيفة بدت مصطنعةً لفرط المبالغة فيها، كما لو أنه قام بالحركة من أجل أن يحدث أثرًا على الرغم من أنه كان وحيدًا في الغرفة. ثم أخرج من جيبه بعض المفاتيح، وقطع نقود صغيرة، وما بدا مثل وسام لمنقذي الغرقى على رباط مجعد ووضعه على طاولة بجانب السرير. دس محفظته تحت الوسادة، ومن جيب صدرته أخرج ساعة وقارورة صغيرة أُلصقت عليها رقعة مكتوب عليها «سُمّ.» أمسك الساعة بيده برهةً قبل أن يعيدها، لكنه أعاد القارورة إلى جيبه في الحال. ثم خلع خاتمه وغسل يديه، مسويًا شعره إلى الخلف بأصابعه دون أن ينظر في المرآة ولو مرة واحدة.

كان في السرير عندما تفقد فجأة خاتمه الذي تركه موضوعًا على المغسلة، كأنه غير قادر على الانفصال عن هذا الخاتم العادي تمامًا، نهض ولبسه ثانية ثم بدأ يفتح البرقيات الثلاث. لكن قبل أن ينهي البرقية الأولى نبس بضحكة قصيرة مكتومة.

استلقى هناك يضحك في نفسه، كانت أسنانه جميلة جمالًا استثنائيًا. ثم بدا وجهه جديًا ثانيةً، وبعد برهة رمى البرقيات جانبًا بغير اكتراث، على الرغم من أنها كانت تتناول جميعها، على ما يبدو، مسألة على قدر كبير من الأهمية، فقد أشارت إلى عرض يبلغ 62000 كرون ثمنًا لعزبة، يُدفع المال نقدًا إذا أبرمت الصفقة في الحال. كانت

برقيات موجزة ذات صلة بالعمل في واقع الأمر، قطعًا لم يكن إرسالها مقلبًا، بالرغم من أنها لم تكن مذيلة بتوقيع. وبعد بضع دقائق غط نيجل في النوم.

أضاءت الشمعتان الموضوعتان على الطاولة، اللّتان نسي أن يطفئهما، وجهه النظيف الحليق وصدره، وومضتا بهدوء على البرقيات الموضوعة على الطاولة في متناول اليد.

في الصباح التالي أرسل يوهان نيجل مرسالًا إلى مكتب البريد، وقد عاد ببعض الصحف-العديد منها أجنبية -لكن من دون رسائل. وضع حقيبة كمانه على كرسي في منتصف الغرفة كأنه أراد أن يتباهى بها، لكنه لم يفتحها، بل تركها هناك ليس إلا.

كل ما فعله ذلك الصباح كان كتابة عدة رسائل والسير في الغرفة جيئة وذهابًا يقرأ كتابًا. ذهب أيضًا إلى متجر واشترى قفازين، ثم تجوّل نحو السوق حيث اشترى جروًا صغيرًا بنيًا ضاربًا إلى الحمرة بعشر كرونات وعرضه في الحال على صاحب الفندق. اعتقد الجميع أن الأمر مضحك للغاية لأنه سمى الجرو جاكوبسن بالرغم من أنها أنثى.

لم يتمكّن من فعل شيء بقية النهار أيضًا. لم تكن له في البلدة أعمال يتوجب عليه القيام بها، ما من مصالح حكومية عليه مراجعتها، ولا مكالمات هاتفية عليه أن يُجريها، ولم يكن يعرف أحدًا. كان الناس في الفندق في حيرة من أمرهم إزاء فتوره الغريب تجاه كل شيء بما في ذلك شؤونه الخاصة. كانت البرقيات الثلاث ملقاة على الطاولة في غرفته مفتوحة وفي متناول الجميع، لم ينظر إليها ثانية منذ ليلة وصولها. وأحيانًا عندما كان يُطرح عليه سؤالٌ مباشرٌ لم يكن يجيب أيضًا. حاول صاحب الفندق مرتين أن يجرّه إلى محادثة ليتعرف إليه

وإلى السبب الذي أتى به إلى البلدة، ولكن في المرتين كان نيجل يتهرب من الموضوع. مثال آخر على سلوكه الغريب حدث أثناء النهار. بالرغم من أنه لا يعرف أحدًا في البلدة ولم يبذل جهدًا للتواصل مع أحد، فإنّه توقّف فجأة أمام إحدى سيدات البلدة الشابات عند مدخل المقبرة، ثبّت عينيه عليها ومن ثم انحنى بشدة دون أن يفسر تصرفه بكلمة. توردت الشابة خجلًا حتى منابت شعرها، محرجة للغاية، وعندئذ خرج الرجل الوقح من البلدة على الطريق الرئيس حتى بيت الكاهن وما بعده. فعل هذا لعدة أيام على التوالي، يعود دومًا إلى الفندق بعد وقت الإغلاق فيفتح الباب الرئيس من أجله.

في صباح اليوم الثالث، عندما كان نيجل يغادر غرفته، توجه إلى صاحب الفندق الذي حيّاه ببعض العبارات السارة. خرجا إلى الشرفة وجلسا. على سبيل البدء بمحادثة، سأله صاحب الفندق عن شحن صندوق من السمك الطازج. «هل لديك فكرة عن كيفية فعل ذلك؟»

نظر نيجل إلى الصندوق، ابتسم وهز رأسه، ثمّ قال: «لا أعرف شيئًا عن هذه الأمور».

«لا تعلم؟ حسنًا، ظننت أنك ربما سافرت كثيرًا ورأيت كيف يفعلون ذلك في أماكن أخرى.»

«لا، في واقع الأمر، لم أسافر كثيرًا.»

توقف قصير.

«حسنًا ربما كنت منشغلًا بأشياء أخرى. هل يحتمل أن تكون رجل أعمال؟»

«لا، أنا لست رجل أعمال.»

«إذن أنت لم تأتِ إلى هنا بغرض العمل؟»

لم يجب نيجل، لكنه أشعل سيجارًا وأخذ نفسًا عميقًا وعاد إلى ذهوله.

كان صاحب الفندق يراقبه بطرف عينه. «ألن تعزف لنا في وقت من الأوقات؟ أرى أنك تحمل معك كمانًا.»

«أوه لا، لقد تخليت عنه.» أجاب نيجل ارتجالًا.

نهض وسار بشكل مفاجئ تقريبًا، لكن بعد لحظة عاد وقال: «بالمناسبة، خطر لي للتو أن بإمكانك أن تعطيني الفاتورة في أي وقت تشاء. موعد الدفع ليس مهمًا بالنسبة إلي.»

«شكرًا لك،» قال صاحب الفندق، «لكن ما من داع للعجلة. سيكون هناك خصم مهما طالت إقامتك معنا. هل تخطط للبقاء لبعض الوقت؟»

فجأة استعاد نيجل حيويته. تورد وجهه دونما سبب ظاهر وأجاب سريعًا: «نعم، قد أبقى هنا لبعض الوقت، كل هذا مشروط. ربما لم أخبرك، أنا مهندس زراعي-مزارع. لقد عدت للتو من الخارج وقد أقرر أن أستقر هنا إلى حين. لكن ربما نسيت أيضًا أن-اسمي نيجل، يوهان نيلسن نيجل.»

ثم صافح صاحب الفندق بإخلاص واعتذر لأنه لم يقدم نفسه حالًا.

لم يكن هناك أدنى أثر للسخرية في عبارته.

«كنت أفكر في أنه قد يكون بوسعنا أن نجد لك غرفة أفضل وأكثر هدوءًا،» قال صاحب الفندق. «أنت قريب من الدرج الآن وقد تكون الغرفة صاخبة إلى حد ما.»

«شكرًا لك، لكن ليس من داع لذلك. غرفتي مقبولة إلى حد كبير. فضلًا عن أنه يمكنني رؤية ساحة البلدة برمتها من نافذتي وهذا بهيج جدًا.»

بعد وقفة قصيرة تابع صاحب الفندق: «إذن أنت في عطلة قصيرة الآن؟ هذا يعني أنك ربما ستمضي هنا فصل الصيف؟»

«سأمضي شهرين أو ثلاثة أشهر وربما أكثر»، أجاب نيجل. «لا أعرف على وجه الدقة. الأمر كله مشروط. سأقرر عندما يحين الوقت.»

في تلك اللحظة مرَّ رجل وحنى رأسه مُحييًا صاحب الفندق. كان يبدو رجلًا لا شأن له، قامته قصيرة بعض الشيء ويرتدي ثيابًا رثة جدًا. من الواضح أنه يتحرك بصعوبة، ولكن بالرغم من إعاقته كان خفيفًا بشكل يدعو إلى الاستغراب. وعلى الرغم من أنه حنى رأسه فإنّ صاحب الفندق تجاهله، ولكن نيجل أومأ إيماءة مهذبة ورفع قبعته القطنية.

التفت صاحب الفندق إليه وقال: «نحن ندعو هذا الرجل بالقزم. هو ليس بكامل قواه العقلية تمامًا، لكني أشعر بالأسف عليه، إنه رجل صالح.»

لم يُذكر المزيد عن القزم.

«منذ عدة أيام قرأت في الصحف عن رجل وجد ميتًا في الغابة في مكان ما قريب من هنا،» قال نيجل فجأة. «يا له من رجل كارلسن هذا، أظن أن هذا هو اسمه. هل هو من هنا؟»

«نعم،» قال صاحب الفندق. «كانت أمه مداوية تعالج بالحجامة. يمكنك أن ترى منزلها من هنا-المنزل ذو القرميد الأحمر. كان قد عاد إلى البيت لقضاء العطلة ثم أنهى حياته أثناءها. كان الأمر مأساويًا بشكل خاص لأنه كان موهوبًا وعلى وشك أن يُرسم كاهنًا. الأمر برمته شديد الغرابة. طالما أن شرياني معصميه وُجدا مقطوعين فلا يمكن أن تكون حادثة إلا بصعوبة، هل يمكن أن تكون؟ والآن وجدوا السكين-سكين صغيرة ذات مقبض أبيض، وجدتها الشرطة في وقت متأخر من

ليل البارحة. الأمر برمته يبدو أنه يشير إلى وجود علاقة عاطفية.»

«هذا مثير للاهتمام. لكن هل هناك حقيقة؟ أليس هناك شكّ في إقدامه على الانتحار؟»

«يأمل الجميع في أن تتضح المسألة-أعني أن البعض يظن أنه ربما قد يكون مشى والسكين في يده وتعثر على نحو أخرق وقطع رسغيه مرة واحدة. لكن هذا يبدو مستبعدًا للغاية، ومع ذلك سيدفن في أرض الوقف، غير أنّني لا أظنّه تعثر مطلقًا!»

«تقول إنهم لم يجدوا السكين حتى ليل البارحة؟ لكن ألم تكن ملقاة إلى جانبه؟»

«لا، كانت ملقاة على بعد عدة أقدام. رماها بعد استعمالها في الغابة، وجدوها بمحض الصدفة.»

«لكن ما الذي يدعوه لرمي السكين بعيدًا وقد كان ممددًا هناك جريحًا وينزف؟ لا شك في أن استخدامه لسكين سيكون واضحًا للجميع؟»

«يعلم الله ما كان يجول في خاطره، لكن كما قلت ربما لامرأة ما علاقة بالأمر بوجه من الوجوه، إنه لأمرٌ غريب؛ كلما فكرت فيه أكثر، ازداد تعقيدًا.»

«ما الذي يجعلك تظن أنّ لامرأة يدًا في الأمر؟»

«عدة أمور. لكن أفضّل ألا أخوض فيها.»

«لكن ألا تظن أن سقوطه كان حادثًا؟ كان ممددًا في تلك الوضعية الخرقاء-ألم يكن ممددًا على معدته ووجهه في الوحل؟»

«نعم، وكان مغمورًا به. لكنه ربما رتب الأمر ليخفي التياعه في النزع الأخير. من يعلم؟»

«هل ترك مكتوبًا من أي نوع؟»

«يبدو أنه كان يكتب شيئًا، ولكن كما يبدو كان عادة يدون أثناء تنزهه. يظن البعض أنه كان يستعمل السكين ليبري قلمه عندما تعثر ووقع وأحدث ثقبًا في أحد رسغيه ومن ثم في الآخر-كل ذلك إثر سقطة واحدة. لكنه ترك مكتوبًا. كان يقبض على ورقة في يده تقول: (ليت سكينك كانت ماضيةً مثل لائك الأخيرة.)»

«يا له من كلام فارغ! هل كانت السكين مثلمة؟»

«نعم.»

«لماذا لم يشحذها أولًا؟»

«لم تكن سكينه.»

«سكين من كانت؟»

تردد صاحب الفندق برهة: «كانت سكين الآنسة كيلاند.»

«سكين الآنسة كيلاند؟» ردد نيجل وبعد توقف قصير:

«حسنًا ومن هي الآنسة كيلاند؟»

«داجني كيلاند. ابنة الكاهن.»

«هذا طريف وغريب جدًا. هل كان الشاب يحبها بجنون شديد؟»

«لا بد من أنه كان كذلك، لكنهم جميعًا مفتونون بها. هو لم يكن الوحيد.»

بدا أن نيجل مساق بعيدًا وغارقٌ في أفكاره.

أخيرًا كسر صاحب الفندق الصمت قائلًا: «ما قلته لك للتو سري، لذا يتوجب عليّ أن أطلب منك..»

«أفهم، لا داع لأن تشغل بالك.» أجاب نيجل.

الفصل الثاني

تلك الليلة وجد نيجل نفسه فجأة وجهًا لوجه مع الشخص الذي يدعوه الجميع بالقزم.

أفضى لقاؤُهما إلى محادثة مملة وعقيمة استمرت ما يزيد عن ثلاث ساعات.

الحادثة بمجملها، من البداية إلى النهاية، جرت على الشكل التالي: كان يوهان نيجل في مقهى الفندق يقرأ الصحف عندما دخل القزم. كان يتحلق بعض الأشخاص حول الطاولات، من بينهم امرأة قروية بدينة تضع على أكتافها شالًا منسوجًا باللونين الأسود والأحمر. بدوا جميعًا على معرفة بالقزم. انحنى تأدبًا يمنة ويسرة لدى دخوله، لكن تحيته لم تثر سوى الهتاف والضحك الهازئ. نهضت المرأة القروية وأرادت أن ترقص معه.

«ليس اليوم، ليس اليوم،» تمتم محاولًا التملص من المرأة، ومشى مباشرة نحو صاحب الفندق وقبعته في يده وقال: «لقد جلبت الفحم إلى المطبخ. هل ترغب في شيء آخر مني اليوم؟»

«لا،» قال صاحب الفندق. «ماذا يمكن أن يكون هناك أكثر من ذلك؟»

«لا شيء،» قال القزم، وانسحب بتواضع.

كان القزم قبيحًا للغاية. عيناه زرقاوان صافيتان، لكن أسنانه

الأمامية ناتئة بشكل غريب، وكانت مشيته معوجّة جرّاء إصابة. كان شعره رماديًا تمامًا، ولحيته أكثر دكنة من شعره لكنها مشعثة للغاية، حتى أن بشرته ظهرت من خلالها. كان في السابق بحارًا، لكنه يعيش الآن مع قريب له لديه عمل تجاري صغير بالفحم عند أرصفة الميناء. لم يكن يرفع عينيه عن الأرض لدى تحدثه إلى أي شخص إلا لمامًا.

ناداه شخص من إحدى الطاولات -رجل يرتدي بذلة رمادية- كان يلوح له بانفعال مشيرًا إلى زجاجة بيرة.

«تعال واشرب كأسًا من حليب أمك!» قال. ثم أضاف: «أريد أيضًا أن أرى كيف تبدو حليقًا».

اقترب القزم من الطاولة، انحنى باحترام ولا يزال ممسكًا بقبعته. انحنى لنيجل وهو يمر به انحناءة خاصة، محركًا شفتيه قليلًا. توقف أمام الرجل الذي يرتدي البذلة الرمادية وهمس: «رجاء سيدي لا ترفع صوتك. يوجد غرباء.»

«صرخ الشاب الذي كان نائبًا للقاضي: «يا رباه، أنا أردت فقط أن أقدم لك كأسًا من البيرة وها أنت ترميني بتهمة التحدث بصوت مرتفع!»

«أنا لم أقصد ذلك، أستميحك عذرًا. لكن بحضور الغرباء أفضّل ألاّ أجعل نفسي موضع سخرية. ولا يمكنني شرب البيرة-ليس الآن.»

«ماذا؟ لا يمكنك شرب البيرة؟»

«لا، شكرًا لك. ليس الآن.»

«إذن أنت تشكرني، لكن ليس الآن؟ متى سوف تشكرني إذن؟ وأنت يا ابن الكاهن! كان عليك أن تكون أكثر حذرًا في قول ما تريد.».

«أنت لم تفهم ما كنت أحاول قوله، لكن لا يهم.»

«لا تكن سخيفًا. ما خطبك؟ بأية حال؟»

أجبر النائب القزم على الجلوس على الكرسي. جلس القزم هناك لبرهة ثم نهض مجددًا.

«دعني وشأني،» قال. «لا يمكنني تحمل المشروب. لا يمكنني تناول الكثير كما في السابق، لا أعرف السبب. سرعان ما ثملت وأصبحت مشوشًا بالكامل.»

نهض النائب، ثبت عينيه على القزم، وقال: «اشرب!»

توقف قصير.

رفع القزم بصره ورفع شعره عن جبهته لكنه لم يقل شيئًا.

«حسنًا، فقط قليلًا، فقط لأرضيك ويكون لي شرف أن أشرب في صحتك.»

«اشرب!» زمجر النائب، وكان عليه أن يغضّ بصره كي لا ينفجر بالضحك.

«لا، لا يمكنني أن أشربه كله. لمَ ينبغي عليَّ أن أشرب وهو لا يناسبني؟ رجاء لا تنزعج ولا ترمقني بهذه النظرة، سوف أفعل هذه المرة إذا كنت مصرًا فعلًا. آمل فقط ألا أثمل. إنه أمر سخيف لكن يمكنني تناول القليل جدًا! في صحتك.»

«نخبك!» صرخ النائب ثانية. «تمامًا! هذا رائع! الآن ستجلس وتضحكنا ببعض الحركات على وجهك. أولًا سوف تصر على أسنانك إلى حين، ثم سأحلق لحيتك وأجعلك تبدو أصغر بعشر سنوات. لكن أولًا عليك أن تصر على أسنانك!»

«لا، لن أفعل-ليس في حضرة هؤلاء الغرباء. لا تلح، لأني لن أفعل ذلك،» قال القزم وشرع بالمغادرة. «عدا عن أني لا أملك الوقت،» أضاف.

«ليس لديك الوقت أيضًا؟ هذا سيّئ. ولا القليل منه؟»

«لا، ليس الآن.»

«ماذا لو قلت لك إنني كنت أفكر في أن أشتري لك معطفًا جديدًا! لنلقي بنظرة على المعطف الذي ترتديه-إنه مهترئ تمامًا. سيتحول إلى مزق عندما تمعن في ملامسته.» وجد النائب ثقبًا صغيرًا وأقحم إصبعه فيه، وهو ما أدّى إلى قطع الخيوط. «انظر إلى هذا...»

«دعني وشأني! بحق الله، هل تسببت لك بأي أذى؟ لا تمس معطفي!»

«لكن يا ربي، أعدك بأن أحصل لك على معطف آخر غدًا، في حضرة-لنرى-اثنان، أربعة، سبعة شهود. ما خطبك الليلة؟ أنت تنفجر غاضبًا، وتصبح عدوانيًا، وتحاول أن تسيء إلينا جميعًا-نعم، أنت تفعل! فقط لأني لمست معطفك.»

«أنا آسف. لم أقصد أن أكون شديد الفظاظة. سوف أفعل أي شيء لأرضيك، لكن..»

«إذن أسعدني بجلوسك.»

رفع القزم شعره عن جبهته وجلس.

«جيد، الآن يمكنك أن تسرني أكثر بأن تصر على أسنانك.»

«لا، لن أفعل!»

«إذن لن تفعل؟ سنرى بهذا الشأن! نعم أم لا!»

«إلهي العزيز في السماوات، أي أذى سببته لك؟ ألا يمكنك أن تدعني بسلام؟ لم عليَّ أن ألعب دور الأحمق أمام الجميع؟ أرى ذلك الغريب هناك ينظر إلينا. هو لا يكف عن التحديق باتجاهنا وأتصور أنه يضحك أيضًا. هكذا تجري الأمور دومًا، منذ اليوم الأول الذي

أتيت فيه إلى هنا نائبًا، أحرجني الطبيب ستينرسن وعلمك كيف تسخر مني، والآن أنت تشجع الرجل هناك على فعل الأمر نفسه. واحد يمررها إلى الآخر.»

«حسنًا، نعم أم لا؟»

«قلت لا!» صرخ القزم، وقفز من كرسيه. لكنه أحس فجأة بأنه اشتط كثيرًا، جلس ثانية وقال: «لا يمكنني أن أصر على أسناني. لا بد من أن تصدقني!»

«لا يمكنك؟ بالطبع يمكنك! أنت تصر على أسنانك بشكل جميل.»

«أقسم بالله لا يمكنني!»

«لكنك فعلت سابقًا.»

«نعم، لكني كنت ثملًا. لا أذكر، كان رأسي يدور. ظللتُ مريضًا ليومين بعدها.»

«هذا صحيح،» قال النائب. «أعترف بأنك كنت ثملًا في ذلك الحين. لكن لمَ تجلس هناك تثرثر عن الأمر في حضرة كل هؤلاء الناس؟ يا لها من حماقة ترتكبها.»

عندها غادر صاحب الفندق المقهى. لم ينبس القزم بكلمة، ثبت النائب عينيه عليه وقال: «حسنًا، ماذا قررت؟ المعطف-تذكر؟»

«أتذكر،» قال القزم. «لكن لا يمكنني ولن أشرب بعد الآن، وهذا آخر ما أقوله.»

«يمكنك وستفعل! هل سمعت ما قلته؟ يمكنك وستفعل! حتى لو كان عليَّ أن أصبها في حلقك...» نهض النائب ممسكًا كأس القزم بيده. «الآن، افتح فمك!»

«لا، قسمًا بالله في عليائه، لن أشرب نقطة أخرى!» صرخ القزم

شاحبًا ومرتجفًا. «لا شيء يمكنه أن يجعلني أفعل! لا بد من أن تعذرني، لكنه يثير اشمئزازي. ليس لديك فكرة عما يفعله بي. أتوسل إليك، لا تكن فظًا كثيرًا! أفضّل أن أصر على أسناني قليلًا دون بيرة!»

«حسنًا، هذه مسألة أخرى. إذا كنت ترغب في فعل ذلك دون بيرة، هذا يناسبني.»

«نعم، سأفعل دون بيرة.»

مصحوبًا بضحك الحضور الصاخب بدأ القزم بالصرير على أسنانه المريعة معًا. بدا نيجل منشغلًا بصحيفته، وكان جالسًا بهدوء في مكانه بمحاذاة النافذة.

«أعلى، أعلى!» صرخ النائب» صر عليهم بصوت أعلى، لا يمكننا سماعك.»

جلس القزم منقبضًا في كرسيه، ممسكًا به بيأس بكلتا يديه كما لو أنه يخشى السقوط، يصر على أسنانه حتى اهتز رأسه. ضحك الجميع، وضحكت المرأة القروية بشدة حتى توجب عليها أن تمسح عينيها. كانت في حالة هستيرية إلى حدٍّ ما فتحمست وخبطت على الأرض مرتين في بهجة خالصة.

«أوه يا إلهي، يا له من مشهد!» صاحت خارجة عن طورها. «أوه، ذلك النائب!»

«لا يمكنني أن أرفع صوتي أكثر،» قال القزم. «حقيقة لا أستطيع، وليشهد عليّ الله-إنها الحقيقة، لا يمكنني أكثر من ذلك.»

«حسنًا إذن، استرح قليلًا وابدأ من جديد. لكنك ستصر على أسنانك! ثم سأحلق لحيتك. الآن اشرب رشفة من بيرتك-عليك ذلك. ها هي.»

هز القزم رأسه لكنه لم ينبس بكلمة. أخرج النائب خمسة وعشرين أورا[1] معدنية من محفظة نقوده ووضعها على الطاولة قائلًا: «لقد اعتدت أن تفعل مقابل عشرة، لكن ليس لدي مانع من منحك خمسة وعشرين. أنا أرفع لك أجرك. الآن، لنستأنف!»

«لا تعذبني أكثر، لن أفعلها.»

«لن تفعل؟ أنت ترفض؟»

«بحق الله، توقف! دعني وشأني! أنا لن أسمح لك بأن تجعلني موضع سخرية من أجل معطف. أنا إنسان في النهاية. ما الذي تريده مني؟»

«راقبني! أنت تراني أنقف رماد السيجار هذا في كأسك، صحيح؟ وآخذ هذه القطعة من عود الثقاب هنا وتلك القطعة من عود الثقاب هناك وأرميها في نفس الكأس وأنت تراقب. والآن أنت ستشرب تلك الكأس حتى الثمالة. هذا ما أعدك به!»

قفز القزم. كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه. شعره الرمادي سقط ثانية على جبهته. نظر إلى النائب مباشرة في عينيه، مطيلًا تحديقه لبضع ثوانٍ.

«لا، أنت تغالي كثيرًا،» صرخت المرأة القروية. «لا تفعلها! لينقذني الله من أمثالك.»

«إذن لن تفعلها؟ هذا يعني بأنك ترفض؟» قال النائب.

ونهض واقفًا أيضًا.

حاول القزم أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع أن ينبس بكلمة.

كانت جميع الأبصار متجهة نحوه.

---

(1) جزء من مائة جزء من الكرون النرويجي.

ثم فجأة نهض نيجل من طاولته بمحاذاة النافذة، ووضع الصحيفة جانبًا، وعبر الغرفة على مهل وبهدوء. حينها التفتت أنظار الجميع إليه. توقف أمام القزم ووضع يده على كتفه، وقال بصوت مرتفع واضح: «إذا تناولت كأسك ورميت به ذلك النذل هناك، سأعطيك عَشْر كرونات وأقدم لك حمايتي أيضًا. أعني ذلك الشخص،» قال مشيرًا مباشرة إلى وجه النائب.

ران صمت قاتل. نظر القزم هلعًا من أحدهما نحو الآخر متلعثمًا، «لكن... لا، لكن...؟» لم يفعل أي شيء آخر سوى مواصلته تكرار الكلمات مرارًا بصوت مرتعش كما لو أنها كانت سؤالًا. لم ينبس أحد بصوت. تراجع النائب إلى الخلف خطوة مشوشًا ومتلمسًا كرسيه. شحب لونه ولم يقل كلمة أيضًا، بالرغم من أن فمه كان مفتوحًا على اتساعه.

«أكرر،» قال نيجل بصوت مرتفع، مشددًا على كل كلمة، «سأعطيك عشر كرونات إذا ما رميت كأسك على رأس ذلك النذل. هاك النقود- ولا داع لأن تخاف من العواقب.»

وقدّم نيجل الكرونات العشر ليراها القزم.

كان رد فعل القزم غريبًا. بخطوته المعوجة القصيرة، جر نفسه إلى زاوية المقهى وجلس دون أن يجيب. كان رأسه مائلًا لكن عينيه كانتا تندفعان في كل اتجاه، ونفض ركبتيه عدة مرات عاليًا تعبيرًا عن الهلع. فتح الباب ودخل صاحب الفندق. بدأ يشغل نفسه على المكتب ولم يلق انتباهًا لما كان يجري، إلى أن قفز النائب فجأة وواجه نيجل، يهش بيديه ويكاد يخنقه الغضب، وعندئذ نظر صاحب الفندق هاتفًا: «ما الذي يجري؟»

لم يقل أحد شيئًا. هاجم النائب نيجل بوحشية، لكنه كان يصده

بقبضتيه في كل مرة. زادت خيبته لعدم تمكنه من النيل من نيجل، وواصل بحماقة لكم الهواء كما لو أنه يحاول أن يقاتل العالم. أخيرًا انكفأ جانبًا عبر الطاولات، وتعثر بكرسي بلا مسند، ووقع على ركبتيه. كان يلهث بصوت مرتفع ويتلوى كامل جسده بالحنق. وزيادة على كل ذلك، كانت ذراعاه مكدومتين وقد تلونتا بالأزرق والأسود من مواجهته لقبضتي نيجل المشدودتين اللتين صدتا كل ضربة من ضرباته. كان المقهى الآن في هرج ومرج. توجهت المرأة القروية وفريقها إلى الباب في حين صرخ البقية معًا محاولين أن يشرح كل واحد منهم للآخر ما حدث. ثم نهض النائب وتوجه نحو نيجل. توقف وصرخ به مهتاجًا لأنه لم يتمكن من إيجاد الكلمات المناسبة: «إلى الجحيم، أيها الغندور اللعين!»

نظر نيجل إليه وابتسم، توجه نحو الطاولة، تناول قبعة النائب، وناولها له منحنيًا. انتزع النائب القبعة من نيجل وأومأ كما لو أنه سيعيد قذفها باهتياج، لكن حينها على ما يبدو غير رأيه وانفجر غاضبًا، وضعها على رأسه بعنف واندفع مهتاجًا. كانت قبعته تميل على الجانبين ما جعله يبدو مثل مهرج.

اندفع صاحب الفندق عبر الحشد وطلب شرحًا. أمسك ذراع نيجل وصرخ:

«ما الذي يحدث هنا؟ ما معنى هذا؟»

«دع ذراعي،» قال نيجل. «أنا لن أهرب. إلى جانب أن لا شيء يحدث هنا. أبديت بعض الملاحظات إلى الرجل الذي غادر للتو وأراد أن يدافع عن نفسه. هذا كل ما في الأمر، كل شيء مستقر.»

لكن صاحب الفندق كان محتدًا وخبط الأرض بقدميه: «أنا لا أسمح بحدوث أي مشاجرات هنا. إذا أردت أن تقاتل فاخرج إلى

الشارع، لكن ليس هنا! يبدو أن الجميع أصبح مسعورًا!»

قاطعه عدة أشخاص: «لكننا رأينا الأمر برمته!» صرخوا. ومع ميل الناس إلى الانحياز إلى جانب المنتصر الأخير، فقد كانوا في صف نيجل تمامًا وشرعوا في شرح المشاجرة.

هز نيجل كتفيه ومشى نحو القزم. سأل بصراحة البهلول الرمادي الصغير: «ماذا تفعل مع النائب حتى أمكنه أن يعاملك بهذه الطريقة؟»

«لا شيء. أنا لا أعرفه. فقط رقصت له مرة في الساحة مقابل عشر أورات ومنذ ذلك الحين يتسلى بي دومًا.»

«إذن أنت ترقص للناس وتأخذ المال مقابل ذلك؟»

«أحيانًا-ليس غالبًا-فقط عندما أحتاج لعشر أورات ولا أتمكن من الحصول عليها بطريقة أخرى.»

«وعلى ماذا تنفق المال؟»

«أحتاجه في كثير من الأمور. في المقام الأول، أنا أحمق. لا أتقن فعل شيء وأعاني كثيرًا في الحصول على قوت يومي. عندما كنت بحارًا كسبت لقمة عيشي، كنت أفضل بكثير. لكن أصابني حادث-سقطت من حبال السفينة وأصبت بفتق-ومنذ ذلك الحين لم يعد الأمر سهلًا. أحصل على طعامي وكل ما أحتاجه من عمي. أعيش معه وأهتم به، لدينا وفرة من كل شيء-عمي يعتاش من التجارة في الفحم. لكني أساهم بشيء مقابل غرفتي وطعامي لاسيما الآن أثناء فصل الصيف عندما لا نبيع الكثير من الفحم. كل كلمة أقولها لك صادقة! أستطيع إنفاق عشر أورات في بعض الأيام. أشتري بها دومًا شيئًا لآخذه إلى البيت. أمّا النائب، فيسرّه أن يراني أرقص لأنني أتحرك بسماجة شديدة بسبب فتقي.»

«هل يطلب عمك منك أن ترقص في الساحة مقابل المال؟»

«لا، لا، لا ينبغي أن تفكر في ذلك! إنه لا يكف عن القول: «لا تأخذ مال المهرج ذاك» ويوبخني على سماحي للناس بأن يسخروا مني.»

«حسنًا، هذا كان الأمر الأول. ماذا عن الثاني؟»

«ماذا تعني؟»

«السبب الثاني؟»

«لا أفهم.»

«قلت إن السبب الأول هو حماقتك. حسنًا، ماذا يأتي في المقام الثاني؟»

«لو قلت، فلم يكن ينبغي عليَّ ذلك.»

«إذن أنت أحمق فحسب؟»

«رجاء، أسألك أن تعذرني.»

«هل كان والدك كاهنًا؟»

«نعم.»

توقف قصير.

«اسمع، إذا لم يكن لديك شيء آخر تفعله، ما رأيك في أن تصعد إلى غرفتي لمدة؟ هل تدخن؟ ممتاز! غرفتي في الأعلى. سيسرني كثيرًا أن تأتي لزيارتي.»

صعد نيجل والقزم إلى الطابق الثاني وأمضيا معًا بقية المساء ما أثار دهشة الجميع.

الفصل الثالث

جلس القزم وأشعل سيجارًا.

«ألا تشرب بتاتًا؟» سأل نيجل.

«لا، ليس كثيرًا. يصيبني الدوار وأبدأ برؤية الأشياء مزدوجة على الفور.»

«هل سبق أن تذوقت الشمبانيا؟ نعم، بالتأكيد لا بد من أنك فعلت.»

«نعم، منذ عدة سنوات في اليوبيل الفضي لزواج والدي.»

«هل أحببتها؟»

«نعم، كثيرًا.»

طلب نيجل إحضار القليل من الشمبانيا إلى غرفته.

وبينما هما يدخنان ويرتشفان الشمبانيا، فجأة نظر نيجل باهتمام إلى القزم وقال: «هو مجرد سؤال، وربما تظنه سخيفًا، لكن هل يمكن أن ترغب إلى حد ما في أن تتبنى طفلًا ليس من صلبك؟ هي مجرد فكرة خطرت لي.»

حملق القزم فيه لكن لم يقل شيئًا.

«مقابل مبلغ بسيط-خمسين كرونًا، أو لنقل مئتين؟» سأل نيجل «المال ليس مشكلة.»

هز القزم رأسه وظل صامتًا لوقت طويل.

«لا،» قال أخيرًا.

«لا يمكنك فعل ذلك؟ سأدفع لك نقدًا.»

«لا، لا يمكنني، آسف لا يمكنني أن أخدمك.»

«لم لا؟»

«رجاء لا تسألني. أنا إنسان في النهاية.»

«حسنًا، ربما أكثرت من طرح الأسئلة. ما الذي قد يدعوك لتقديم خدمة مثل تلك لأي كان؟ لكن أود أن أسألك شيئًا آخر: هل ترغب -مقابل خمس كرونات- في أن تذهب إلى البلدة وأنت تحمل صحيفة أو كيسًا ورقيًا على ظهرك-انطلاقًا من الفندق إلى الساحة وعلى طول رصيف الميناء؟ هل تفعل ذلك مقابل خمس كرونات؟»

أطرق القزم خجلًا وتمتم قائلًا: «خمس كرونات.» لكنه لم يجب.

«أوه! حسنًا، لنجعلها عشر كرونات -سنجعلها عشر كرونات. هل تفعل مقابل عشر كرونات؟»

دفع القزم شعره عن جبهته. «لا أستطيع أن أفهم لماذا يظن كل من يأتي إلى هنا أن باستطاعته أن يسخر مني قال.

«كما يمكنك أن ترى بنفسك، المال بحوزتي،» كرر نيجل. «الأمر متوقف عليك.»

حدّق القزم في ورقة النقود بعجز وبتعبير بائس، لكنّه بلّل شفتيه فجأة وكأنّه حدس شيئًا، وتمتم:

«حسنًا، أنا..»

«لحظة واحدة،» تدخل نيجل سريعًا. «اعذرني لمقاطعتك،» تابع، ليمنع القزم عن قول أي شيء. «ما اسمك الحقيقي؟ لا أظن أنك أخبرتني.»

«اسمي جروجارد.»

«جروجارد. هل تَمُتُّ لجروجارد[1] الذي كان واحدًا من كتبة الدستور بصلة؟»

«نعم.»

«عمّ كنا نتحدث؟ أوه نعم، جروجارد، في هذه الحالة أنت لا ترغب بالتأكيد في أن تكسب عشر كرونات بتلك الطريقة؟»

«لا،» همس القزم مرتبكًا.

«الآن استمع إلي،» قال نيجل، متحدثًا ببطء شديد. «سيكون من دواعي سروري أن أعطيك عشر كرونات لأنك لم توافق على عرضي. وسأعطيك عشر كرونات أخرى إذا منحتني متعة إضافية بقبوله. لا تنهض، هذا قدر تافه لا يعني لي شيئًا.» أخرج النقود وقال: «هاك. ستقدم لي معروفًا بقبولها.»

جلس القزم هناك صامتًا. لكن الكسب غير المتوقع أثر فيه، وكافح كي يمنع نفسه من البكاء. رمش بعينيه وابتلع ريقه بشدة. قال نيجل: «لا بد من أنك في الأربعين من عمرك؟»

«ثلاثة وأربعون.»

«ضع المال في جيبك. أقدمه لك عن طيب خاطر. ما اسم النائب الذي كنت تتحدث معه في المقهى؟»

«لا أعرف. نحن نسميه النائب فقط. هو من مكتب القاضي.»

«حسنًا، لا يهم. لكن أخبرني...»

«عذرًا،» قال القزم، غير قادر على ضبط نفسه مزيدًا من الوقت. وقد أخذ منه التأثر كل مأخذ، حاول أن يقول شيئًا لكنه تلعثم مثل طفل. «رجاء سامحني.» قال. ولوقت طويل لم يتمكن من التفوه بكلمة.

---

(1) المقصود هنا القس هانز جاكوب جروجارد عضو جمعية ايدسفول Eidsvoll الدستورية.

«ما الذي ترغب في قوله؟»

«شكرًا لك. من صميم قلبي...»

توقف قصير.

«انس الأمر.»

«لا، انتظر،» صرخ القزم. «اعذرني لكن لا يمكننا نسيانه. أنت ظننت أني لست راغبًا في أن أؤدي خدمة لك، وأنه كان رفضًا من جانبي، وأني كنت متعنتًا، لكن ليشهد علي الله... كيف يمكننا نسيانه إذا منحتك انطباعًا أن همي الوحيد هو المال، وأني لن أفعل مقابل خمس كرونات؟ هذا كل ما رغبت في قوله.»

«لا بأس. رجل يحمل اسمك ونسبك ليس عليه أن يسمح بمناقشته في فعل أمر أحمق مثل ذلك. على فكرة، أنت تعرف هذه البلدة جيدًا، أليس كذلك؟ كنت أفكر في الاستقرار هنا خلال فصل الصيف. ما رأيك في هذا الشأن؟ أنت من هنا، أليس كذلك؟»

«بلى، ولدت في هذه البلدة. كان أبي كاهنًا هنا، وعشت هنا آخر ثلاثة عشر عامًا. ومنذ ذلك الحين أصبت بالحادثة.»

«هل توزع الفحم؟»

«نعم، أوصل الفحم إلى المنازل. لا يزعجني ذلك، إذا كان سؤالك بهذا الصدد. اعتدت عليه، هو لا يسبب الألم إذا توخيت الحذر عندما أصعد الأدراج. لكني وقعت السنة الماضية، وبقيت لمدة في حال مزرية، وكان عليَّ الاستعانة بعكاز.»

«حقًا؟ ما الذي حصل؟»

«كنت أصعد درج المصرف. كانت الدرجات متجمدة بعض الشيء. بدأت بصعودها وأنا أحمل كيسًا ثقيلًا جدًا. عندما وصلت

إلى منتصف الدرج لاحظت أن القنصل أندرسن في طريقه للنزول، أردت أن أستدير وأنزل حتى يتمكن من العبور. طلب مني ألا أفعل، لكنّ ذلك كان أمرًا صائبًا وفعلته دون أن يطلب مني. لكن للأسف انزلقت على الدرج ووقعت على كتفي الأيمن. «ما المشكلة؟» سأل القنصل. «لم تؤذِ نفسك، صحيح؟» «نعم،» قلت. «أظن أني كنت محظوظًا.» لكن بعد خمس دقائق أغمي عليَّ مرتين على التوالي. بدأت المنطقة التي تأذيت فيها سابقًا تتورم. بالمناسبة كان القنصل لطيفا جدًا معي بعدئذ، بالرغم من أن الخطأ لم يكن خطأه.»

«ألم يكن هناك إصابة أخرى؟ ألم يتأذَّ رأسك؟»

«نعم، لقد آذيت رأسي وكنت أبصق دمًا لفترة.»

«وساعدك القنصل طوال فترة مرضك؟»

«نعم، بسخاء عظيم. أرسل إليَّ كل الأشياء، لم ينسني أبدًا. لكن أكثر الأشياء لطفًا حدث يوم كنت أصعد مجددًا: ذهبت لأشكره، وقد كان يرفع علمًا. أعطى الأوامر بتعليق علم على شرفي، ولو أنه كان أيضًا عيد ميلاد الآنسة فريدريكه.»

«من هي الآنسة فريدريكه؟»

«ابنة القنصل.»

«أوه! حسنًا، هذا لطف كبير من جانبه. على فكرة، هل تعلم لمَ كانت الأعلام ترفرف منذ بضعة أيام؟»

«منذ بضعة أيام؟ منذ حوالي أسبوع؟ لا بد من أن السبب هو خطوبة الآنسة كيلاند-داجني كيلاند. الجميع خطبوا، تزوجوا، وغادروا البلدة، واحدًا بعد الآخر. لدي أصدقاء وأقارب في جميع أنحاء البلاد-ويسرني أن أراهم مجددًا. لقد رأيتهم يلعبون، ويذهبون إلى

المدرسة، يُعمَّدون ويكبرون. داجني في الثالثة والعشرين من عمرها وهي محبوبة الجميع. إنها جميلة أيضًا. خطبها الملازم هانسن الذي أعطاني القبعة التي أرتديها، وهو أيضًا من هنا.»

«هل الآنسة كيلاند شقراء؟»

«نعم، جميلة جدًا. الجميع مولع بها أشد الولع.»

«أظن أني قد رأيتها في طريقي إلى بيت الكاهن. هل تحمل عادة مظلة حمراء؟»

«هذا صحيح! وليس هناك مظلة حمراء سواها في البلدة على حد علمي. هي تضفر شعرها في ضفيرة طويلة شقراء. إذا ما رأيتها لا يمكنك أن تنساها. إنها مختلفة عن جميع مَن حولها. لكن ربما لم تحظ بفرصة التحدث إليها بعد؟»

«ربما حصل.» وأضاف نيجل بشكل تأملي محدثًا نفسه: هل كانت تلك الآنسة كيلاند؟»

«لكن ربما لم تحظ بفرصة التحدث معها حديثًا حقيقيًا؟ هذا شيء تتطلع إليه. هي تضحك بصوت مرتفع عندما يسرها شيء–هي شديدة المرح. غالبًا ما تضحك بدون سبب تقريبًا. عندما تتحدث معها ستلحظ كم تصغي باهتمام لما تقوله، قبل أن تجيب. وعندما تتحدث غالبًا ما تتورد خجلًا. تتأثر كثيرًا، وتزداد جمالًا. لكن الأمر مختلف معي، هي تتحدث تمامًا بغير تكلف عندما يحدث أن نلتقي. عندما أنهض من أجلها تتوقف وتصافحني حتى لو كانت على عجلة من أمرها. لو كنت لا تصدقني سترى بنفسك ذات يوم.»

«لكني أصدقك. إذن تربطك علاقة صداقة طيبة بالآنسة كيلاند؟»

«ما أعنيه هي أنها لطيفة معي على الدوام، هذا كل شيء. أحيانًا

أذهب إلى بيت الكاهن عندما أدعى، لكن حتى لو لم أكن مدعوًا لم أشعر أبدًا أنه غير مرحب بي. الآنسة داجني أيضًا أعارتني كتبًا عندما كنت مريضًا-حتى أنها جلبت الكتب بنفسها، حملتها طوال الطريق تحت ذراعها.»

«أي نوع من الكتب؟»

«أنت تعني أي نوع من الكتب عندي القدرة على قراءتها وفهمها؟»

«لا، أنت تسيء فهمي الآن. سؤالك ماكر وفي الصميم، لكن ليس هذا ما قصدته. أنت رجل مثير للاهتمام! قصدت أي نوع من الكتب تلك التي تملكها الآنسة الشابة وتقرأها؟ هذا ما أردت أن أعرفه في الحقيقة.»

«أتذكر أنها جلبت مرة نسخة من «الطلاب القرويون» لجاربورج، وكتابين آخرين-أظن أن واحدًا منهما كانت رواية «رودين» لتورغينيف. ومرة قرأت لي بصوت مرتفع من كتاب جاربورج[1] «المتناقضون».»

«هل كانت كتبها؟»

«حسنًا، لا، هي لوالدها. كان اسمه مكتوبًا عليها.»

«بالمناسبة، أنت بدأت تخبرني عن ذهابك إلى بيت القنصل لشكره..»

«نعم، أردت أن أشكره على كل ما فعله من أجلي.»

«أفهم. والعلم كان مرفوعًا لدى وصولك؟»

«نعم، كان يرفرف على شرفي. قال لي بنفسه.»

«أرى. لكن ألا يمكن أن يكون مرفوعًا على شرف عيد ميلاد ابنته؟»

«نعم، أفترض أنه كان كذلك. من المرجح تمامًا، في واقع الأمر.

---

(1) أيدن جاربورج (1851-1924) كاتب نرويجي.

كان من العار ألا يرفع العلم على شرف عيد ميلاد الآنسة فريدريكه.»

«أنت محق مجددًا. بالمناسبة كم عمر عمك؟»

«لا بد أنّه في السبعين من عمره-ربما ليس تمامًا، لكن بالتأكيد تجاوز الستين. إنه نشيط بالنسبة إلى عمره، ولا يزال في وسعه أن يقرأ دون نظارات إذا لزم الأمر.»

«ما اسمه؟»

«جروجارد أيضًا. كلانا نحمل اسم جروجارد.»

«هل يملك عمك المنزل الذي يعيش فيه أو أنه مستأجر؟»

«يستأجر الغرفة التي نعيش فيها، لكن سقيفة الفحم ملك له. ليس لدينا مشكلة في دفع الإيجار إذا كان هذا ما تفكر فيه. نحن ندفع فواتيرنا فحمًا وأحيانًا أشارك قليلًا بتأدية أعمال غريبة.»

«لكن عمك لا يحمل الفحم؟»

«أوه لا! هذا عملي، هو يزنه ويدير تفاصيل العمل وأنا أقوم بالتوصيل. أنا أفضل في ذلك لأني أقوى منه.»

«بالتأكيد. أفترض أن لديكما امرأة تطهو لكما؟»

توقف قصير.

«رجاءً لا تتضايق، فأنا مستعد للمغادرة متى شئت. ربما طلبتَ منّي القدوم إلى هنا كرَمًا منك، بالرغم من أني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لشؤوني أن تثير اهتمامك. أو ربما أنت تتحدث معي لسبب ما قد فاتني-إذا كان كذلك ليس لديّ مانع. لكن ليس عليك أن تفكر في أنّ شخصًا ما سيزعجني عندما أغادر. لم تكن لدي مشكلة مع أناس غير لطفاء. النائب لن يكون منتظرًا عند الباب لينتقم إذا كان هذا ما يُقلقك-وإذا كان هناك، لا أظن أنه سيؤذيني.»

«من دواعي سروري لو تبقى، لكن ليس عليك أن تشعر بأنك مدين لي لتخبرني بأي شيء فقط لأني أعطيتك بضع كرونات ثمنًا للتبغ. لكن بالتأكيد هذا يتوقف عليك.»

«سأبقى!» صرخ القزم. «ليباركك الله! أنا سعيد لأنه يمكنني أن أسرّك على نحو ما، بالرغم من أني أشعر بالخجل من نفسي ومن ملابسي. كنت لأستطيع أن أكون أكثر أناقة بقليل لو كان لدي الوقت لأغير ملابسي. هذا واحد من معاطف عمي القديمة وهو يكاد يتمزق- مجرد لمسة يمكن أن تجعله يتهاوى مزقًا. هنا حيث مزقه النائب-آمل أن تعذرني على مظهري.. لا ليس لدينا امرأة تطهو لنا. نحن نقوم بجميع أعمال الطهي والتنظيف. ليست مشكلة، وعلى الرغم من ذلك فنحن نقوم فقط بالأساسيات. في الصباح نحتسي القهوة المتبقية من المساء دون تسخين، ونفعل الأمر نفسه مع عشائنا. نطبخ عندما تكون لدينا الفرصة لذلك، بقية الوقت نأكل البقايا. عملي هو الجلي، إنه يساعد في تمضية الوقت فليس لدي شيء آخر لأفعله.»

رن جرس وسمع صوت نزلاء يهبطون الدرج لتناول العشاء.

«هذا جرس العشاء،» قال القزم.

«نعم،» قال نيجل. لكنه لم ينهض ولم يظهر ما يشير إلى نفاد الصبر، بل على العكس استند إلى كرسيّه وسأل:

«هل تعرف الرجل الذي يدعى كارلسن، الرجل الذي وُجد ميتًا في الغابة منذ بضعة أيام؟ ألم يكن عملًا رهيبًا؟»

«نعم، مأساة مريعة. أعرفه بلا شك. كان شخصًا رائعًا- شخصية نبيلة. هل تعرف ماذا قال لي مرة؟ أرسل في طلبي صباح يوم أحد منذ عام، أيار الماضي في واقع الأمر. أراد أن أوصل له رسالة. «نعم،» قلت، سأفعل، لكني لا أستطيع أن أجعل الناس يرونني في هذا

الحذاء. إذا لم يكن لديك مشكلة سأذهب إلى البيت وأستعير حذاءً آخر». «لا، لا تزعج نفسك،» قال «إلا إذا كانت قدماك ستتبللان في هذا.» حتى أنه فكر في ذلك-في أن قدميَّ قد تتبللان في ذلك الحذاء! ثم دس كرونًا في يدي وأعطاني الرسالة. عندما أصبحت في الخارج، فتح الباب ثانية وتبعني. كان وجهه متوقدًا عندما توقفت لأنظر إليه ورأيت الدموع في عينيه. ثم قربني منه، طوقني بذراعه وقال: «أرسل الرسالة يا صديقي القديم. سأمنحك ما تستحقّه بعد فترة. عندما أُرسَّم كاهنًا وتصبح لديّ أبرشية، ستأتي وتعيش معي. حسنًا، اذهب وحظًا سعيدًا». للأسف لم يحصل أبدًا على أبرشية، لكنه لو عاش كان سيحفظ وعده، أنا واثق من ذلك.»

«أوصلت الرسالة؟»

«نعم.»

«وهل كانت الآنسة كيلاند سعيدة بذلك؟»

«وكيف تعرف أنها كانت للآنسة كيلاند؟»

«كيف أعرف؟ أنت قلت بنفسك.»

«هل فعلت؟ هذا ليس صحيحًا.»

«ليس صحيحًا؟ هل تتهمني بالكذب؟»

«أستميحك عذرًا. ربما أنت محق، لكن لم يكن عليّ قول ذلك، إنها زلة لسان. لكن هل حقًا قلت ذلك؟»

«لمَ ليس عليك؟ هل منعك من ذكره؟»

«لا، لم يفعل.»

«هل منعتكَ؟»

«نعم.»

«لا تقلق. السر في مأمن معي. لكن هل يمكنك أن تفهم لمَ اختار هذا الوقت لإنهاء حياته؟»

«لا، لا يمكنني. إنه القدر كما أظن.»

«متى سيدفن؟»

«ظهر الغد.»

لم يُقل المزيد عن هذا الموضوع، ولمدة لم يتكلم أيٌّ منهما. أقحمت سارة رأسها من الباب وأعلنت أن العشاء جاهز. بعد لحظة قال نيجل: «إذن فالسيدة كيلاند مخطوبة. بماذا يتصف خطيبها؟»

«الملازم هانسن رجل ممتاز، مستقيم، ستكون بخير معه.»

«هل يملك المال؟»

«نعم، والده ثري جدًا.»

«هل هو رجل أعمال؟»

«لا، إنه يملك سفينة. يعيش على بعد عدة منازل من هنا. هو ليس منزلًا كبيرًا لكنه لا يحتاج إلى منزل أكبر. عندما يكون الابن غائبًا يبقى العجوزان وحيدين. ولديهما ابنة أيضًا لكنها متزوجة وتعيش في إنكلترا.»

«وكم تظن أن هانسن الأب يملك؟»

«ربما مليون. لا أحد يعلم.»

«الثروة في هذا العالم موزعة على نحو سيّئ. أليس لديك رغبة بامتلاك القليل من ذلك المال، يا جروجارد؟»

«باسم الله، لماذا؟ يجب أن نكون قانعين بما نملك.»

«هذا ما يقولونه. لكني أود أن أسألك شيئًا. هل يترك لك عملك في توزيع الفحم وقتًا لعمل آخر؟ ألم أسمعك تسأل صاحب الفندق عما

إذا كان لديه شيء آخر تفعله من أجله؟»

«لا،» قال القزم هازًا رأسه.

«حدث تحت في المقهى. قلت إنك جلبت الفحم إلى المطبخ وسألت عما لو كان هناك أي شيء آخر تفعله اليوم»

«كان هناك سبب لذلك. إذن سمعتني؟ كان السبب أني أملت في أن يدفع لي ثمن الفحم مباشرة، لكني لم أجرؤ على طلب الثمن بشكل صريح. هذا كل ما في الأمر. نحن في ضيق الآن وكنا نأمل في أن يدفع لنا.»

«كم تحتاج للخروج من مأزقك؟» سأل نيجل.

«يا إلهي! لا!» صرخ القزم. لا تلمّح إلى ذلك ثانية. لقد سبق أن كنت أكثر من سخي. نحن نحتاج فقط إلى ست كرونات، والآن كروناتك العشرون في جيبي. ليباركك الله! نحن مدينون للبقال لقاء ثمن البطاطا وبعض الأشياء الأخرى. أرسل إلينا فاتورة أثقلت كاهلنا ولم نعرف ماذا كنا سنفعل. لكن الآن حلت المشكلة، يمكننا أن ننام بضمير مرتاح ونواجه الغد بما لذ وطاب.»

توقف قصير.

«حسنًا، ربما من الأفضل أن ننهي شرابنا ويتمنّى كلّ واحد منّا للآخر ليلة سعيدة،» قال نيجل وهو ينهض. «في صحتك! آمل أنه ليس لقاءنا الأخير. لا بد من أن تعود وتراني! رقم الغرفة 7. شكرًا لك على رفقتك.»

كانت كلمات نيجل حسنة القصد وهو يصافح القزم. شيّع ضيفه وهو يهبط الدرج، بل ظلّ يُشيّعه حتّى الباب الرئيس، وانحنى بشدة منتزعًا قبعته القطنية كما فعل مرة من قبل.

ودعه القزم منحنيًا مرارًا وهو يتراجع نحو الشارع، يحاول أن يقول شيئًا لكن الكلمات لم تسعفه.

عندما دخل نيجل إلى غرفة الطعام قدّم لسارة أعذاره الفياضة بسبب تأخّره عن العشاء.

الفصل الرابع

صباح اليوم التالي استيقظ نيجل عند سماعه طرق سارة على الباب محضّرة له الصحف. ألقى نظرة سريعة عليها، ورماها على الأرض عندما انتهى منها. انفجر ضاحكًا بعد أن قرأ مرتين بيانًا عن صحة جلادستون[1] الذي كان ملازمًا لفراشه على مدى يومين إثر إصابته بالبرد لكنه تعافى مجددًا. ثم صالب ذراعيه خلف رأسه وبدأ يحدث نفسه بصوت مرتفع:

من الخطر المشي في الغابة وأنت تمسك بيدك مدية مفتوحة. كم من السهل أن تتعثر وتقع على نحو أخرق بما يكفي لأن يجرح النصل رسغيك! انظر ما حل بكارلسن. لكن من الخطر أيضًا أن تمشي وأنت تحمل قارورة دواء في جيب صدرتك. قد تتعثر وتكسر الزجاجة وقد تخترق الشظايا جسدك وقد يدخل السم في مجرى الدم. الخطر يتربص في كل زاوية. نحن على وعي كامل به. لكن، هناك طريق آمن واحد فقط-الطريق الذي يسلكه جلادستون.

يمكنني تمامًا أن أتصور جلادستون يمشي بحذر شديد في ذلك الطريق، وكيف يتفادى أن يخطو خطوة ناقصة، وكيف يتعاون مع العناية الإلهية لحمايته. الآن لقد تجاوز إصابته بالبرد وسوف يعيش إلى أن يموت ميتة طبيعية من شدة الرخاء.

---

(1) وليم إيوارت جلادستون: (1809-1898) سياسي بريطاني ليبرالي.

باستور كارلسن لماذا دفنت وجهك في الوحل؟ هل لتخفي لوعتك في النزع الأخير، أو هل لوت سكرات الموت وجهك مجبرة رأسك على الانخفاض؟ تختار أن تدفن رأسك في وضح النهار، مثل طفل خائف من الظلمة، وتستلقي هناك ممسكًا بمكتوب وداع في يدك. كارلسن المسكين، كم أشفق عليك! ولماذا تذهب إلى الغابة لهذا الموعد مع الموت؟ هل كنت مولعًا بتلك الغابة، وهل كانت تعني لك أكثر من حقل، أو طريق، أو بحيرة؟ الفتى الصغير مشى هناك اليوم بطوله.

تخيل غابة فاردال في الطريق من جيوفيك «Gjøvik» -تستلقي هناك وتترك العالم خلفك. تنظر مباشرة نحو السماوات وتكاد تسمع ما يقولون عنك هناك. «إذا ما أتى إلى هنا،» تقول أمي المباركة، «سأغادر،» وهي تثير قضية كبيرة من ذلك فعلًا. «ها، ها، لا تقلقي،» أجيب، «لن أزعجك.» وأقول هذا بصوت عال جدًا وأجذب انتباه ملاكين أنثيين، الفتاة ياري وسفافا بيورنسون.

مهما يكن من أمر، أي شر أفعله، مستلقيًا هنا أضحك؟ هل أحاول أن أبدي تفوقي؟ لا يجب أن يُسمح بضحك مثل هذا إلاّ للأطفال والفتيات الصغيرات. يعود أصل الضحك إلى العصر الذي كنا فيه قرودًا-صوت مقزز خارج من الرغامى، مطرود من مكان ما في جسدي عندما أدغدغ تحت الذقن. ما الذي قاله لي هايكه الجزار الذي يضحك ضحكة صاخبة ذات مرة؟ قال إنه ما من أحد يملك جميع حواسه الخمس.. ويا لها من طفلة حلوة كانت طفلته! كانت تمطر يوم التقيت بها في الشارع. كانت في طريقها إلى مطعم الفقراء تحمل دلوًا وكانت تبكي لأنها أضاعت النقود.

ماما المباركة، هل يمكنك رؤيتي من عليائك-هل تدركين أني لا أملك شلنًا واحدًا لأعزي الطفلة به؟ هل ترين كيف أمزق شعري في

الشارع لأني لا أملك قطعة أورا واحدة أعطيها لها؟ في تلك اللحظة عبرت بنا الفرقة الموسيقية، التفتت الفتاة الجميلة التي تعمل في الأبرشية وابتسمت لي، ثم مشت إلى البيت، مغلوبة على أمرها وبرأس مطرق، ربما نادمة على النظرة التي رمقتني بها. فجأة في تلك اللحظة اختطفني رجل ملتح يضع قبعة من اللباد الناعم من ذراعي وأنقذني من الدهس. يعلم الله ما كان سيحصل لو لم يكن هناك.

سكوت! واحد... اثنان... ثلاثة.. كم تدق ببطء! أربعة... خمسة... ستة... سبعة... ثمانية... هل هي الساعة الثامنة الآن؟ تسعة... عشرة. الساعة العاشرة؟ لا بد من أن أنهض. أين هي تلك الساعة؟ هل يمكن أن تكون تلك التي في المقهى؟ حسنًا، لا فرق، لا فرق على الإطلاق. لكن ذلك المشهد كان بالفعل مشهدًا مسليًا في المقهى في الليلة السابقة، أليس صحيحًا؟ كان القزم يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه وأتيت في اللحظة المناسبة تمامًا. كان سينتهي به الأمر ثملًا من شرب تلك البيرة بما فيها من رماد سيجار، وأعواد ثقاب، وكل شيء. حسنًا، وماذا في ذلك؟ أي حق لك في التدخل في شؤون الناس؟ لماذا أتيت إلى هنا في المقام الأول؟ هل كان بسبب كارثة عالمية-إصابة جلادستون بالبرد، على سبيل المثال؟ ليساعدك الله إذا قلت الأمر على حقيقته، إنّك كنت حقيقة في طريقك إلى البيت لكنّكَ كنت مأخوذًا بهذه البلدة، بالرغم من حقيقة أنها تبدو صغيرة وتافهة، وأنك كدت تبكي من فرح لا يفسر عندما رأيت الأعلام ترفرف؟ بالمناسبة كان الثاني عشر من حزيران، كانت الأعلام مرفوعة على شرف خطوبة الآنسة كيلاند. وبعد يومين التقيتها.

لمَ كان عليَّ أن ألتقي بها ذلك المساء عندما كنت مشوشًا للغاية ولم أكن مؤثّرًا بالفعل؟ كلما فكرت في الأمر أشعر بخجل شديد.

«مساء الخير يا آنسة، أنا غريب هنا. اعذريني، لكني خرجت للتنزه وأضعت طريقي.»

كان القزم محقًا. توردت عندما بادرتها بالكلام، وعندما أجابت ازدادت توردًا.

«إلى أين تود الذهاب؟» قالت ورمتني بنظرة ثاقبة.

خلعت قبعتي ووقفت هناك حاسر الرأس، وجدت نفسي أقول: «هلّا أخبرتني كم تبعد البلدة تمامًا؟»

«لا يمكنني أن أخبرك بالضبط،» قالت. «ليس من هنا، لكن أول منزل تصل إليه هو بيت الكاهن، ومن هناك تبعد البلدة مسافة ميل ونصف تقريبًا.» ثم التفتت فجأة وراحت تبتعد.

«شكرًا جزيلًا لك» قلت، «لكن إذا كان بيت الكاهن على الجانب الآخر من الغابة هل تسمحين لي بمرافقتك إذا كانت تلك وجهتك أو حتى أبعد من ذلك؟ الشمس غربت، دعيني أحمل عنك مظلتك. أعد بأني لن أزعجك، لن أتحدث إذا كنت تفضلين ذلك. كل ما أريده هو السير بجانبك والاستماع إلى زقزقة الطيور. لا، رجاء لا تذهبي! لماذا تركضين؟»

عندما راحت تجري ولم تصغِ إليَّ ركضتُ وراءها معتذرًا: «سامحيني، لم أستطع أن أمنع نفسي، كنت واقعًا تحت تأثير وجهك الجميل!» حينها بدأت تركض برعب حتى أنها توارت عن الأنظار في الحال. وهي تركض أمسكت بضفيرتها السميكة الشقراء بيدها. يا له من منظر.

هذا ما حدث بالضبط. لم أكن أنوي التحرش بها-لم تكن لدي نوايا سيئة. أنا واثق من أنها تحب خطيبها الملازم، لم أكن لأحلم أبدًا بفرض نفسي عليها. لكن لا بأس. ربما الملازم سيتحداني. سيتعاون

مع نائب القاضي وسيلحق كلاهما بي. بالمناسبة، سيكون عندي الفضول لأعرف إذا ما كان ذلك النائب ينوي أن يمنح القزم معطفًا جديدًا، سوف ننتظر يومًا أو اثنين، لكن إذا لم يأت به حينها سنذكّره.

توقف قصير. نيجل.

توجد امرأة مسكينة هنا تنظر إليّ بإحراج عظيم كما لو أنها ترغب في طلب شيء، لكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على السؤال. أنا مأخوذ بعينيها-مع أن شعرها أبيض. بذلت مرات جهدًا خاصًا لأتفادى لقاءها. هي ليست مسنة، لكن شائبة قبل الأوان. لا تزال أهدابها فاحمة السواد-وتمنح لعينيها منظرًا دخانيًا. تخفي دومًا سلة تحت مئزرها. ربما تخجل منها. عندما مرت بي التفتُّ وراقبتها وهي تذهب إلى السوق. تناولت بضع بيضات من سلتها وباعت هاتين البيضتين أو الثلاث لمن يرغب في شرائها، وعندئذ عادت إلى البيت والسلة تحت مئزرها كما في السابق. هي تعيش في منزل صغير عند الرصيف، مؤلف من طابق واحد وغير مطلي. ذات مرة لمحتها تقف عند النافذة. لم تكن هناك ستائر، بل زهور بيضاء على عتبة النافذة. وقفت على مسافة في الغرفة تحدق إليّ وأنا أمر. الله وحده يعلم أي نوع من النساء هي، لكنّ يديْها صغيرتان تمامًا. يمكنني أن أهبك الصدقات، يا جمالي الأبيض، لكني قد أقدم لك المساعدة. أعلم لمَ أنا مأخوذ بعينيك، عرفت ذلك في الحال.

غريب، كيف يمكن لعلاقة غرامية من شباب المرء أن تعيش وتجعل نفسها محسوسة بشدة في أغرب الأوقات؟ إنّ وجهها المحبوب ليس لك، وأنت تكبرها بكثير. تزوجت أخيرًا من عامل برق وانتقلت إلى كابيلفاج «Kabelvåg»؛ حسنًا، المرء وما يهوى. لم أنتظر منها أن تحبني، وهي لم تفعل. لم يكن هناك شيء يمكن فعله إزاء ذلك.

الساعة تدق معلنةً الحادية عشرة... لكن لو كنت فقط تعرفين كم كنت تسكنين أفكاري دومًا طوال هذه السنين العشر، الاثنتي عشرة. لم أخرجك من تفكيري أبدًا لكن هذا خطئي. لا يمكنك أن تفعلي شيئًا. الناس تنسى عادة بعد سنة، أمّا مشاعري فلم تتغير بعد عشر سنوات.

سأساعد امرأة البيض، نعم، سأقدم لها الصدقة والمساعدة من أجل عينيها. لدي الكثير من المال 62- ألف كرون نقدًا ثمن عقار! وألقي هناك على الطاولة تلك البرقيات الهامة. أي حركة ذكية كانت! أنا رأسمالي ومهندس زراعي ولا أبيع عند أول عرض يقدم لي، أرقد عليه وأفكر في الأمر، نعم، أفكر فيه، وبحذر. لكن حيلتي لم تثر أي انتباه بالرغم من أني جعلتها واضحة وصاخبة قدر المستطاع. الرجل حمار بالتأكيد. يمكنك أن تقوده من خطمه إلى أي مكان تريد.

ثم هناك على سبيل المثال، إبراز عنق قارورة من جيب صدرتي. إنها تحتوي على «عقار طبي»-حمض هيدروجيني[1]. أحمله لأني فضولي بطبيعتي، غير أنّي لا أملك الشجاعة لتناوله. لكن لماذا أحمله ولَم حصلت عليه في الأصل؟ إنّه النفاق مرّة أخرى، لا شيء في زمننا سوى العار، الانحطاط، الزيف، التملق، والتكبر! إلى الجحيم بكل هذا! هي بيضاء ودقيقة كالأواني الصينية: هي ميليسيناي الكئيبة... أو لنأخذ شيئًا بريئًا مثل وسام منقذ الغرقى. لقد كسبته بصدق كما يقولون. المرء يعبث بشتى الأشياء ومنها إنقاذ حياة الناس. لكن الله وحده يعلم إذا كان لي فعلًا أي فضل في ذلك. احكموا بأنفسكم أيها السيدات والسادة. شاب يقف عند سور السفينة. ينشج بعنف شديد حتى أن أكتافه تهتز. عندما تحدثت إليه نظر

(1) سيانيد الهيدروجين وكان يسمى قديمًا حمض البروسيك وهو حمض سام.

إليَّ نظرة مسعورة وفجأة انطلق نحو الردهة. تبعته لكنه اختفى في حجرته. تفحصت قائمة المسافرين ووجدت اسمه، ولاحظت أن وجهته هي هامبورج. إنها ليلتنا الأولى على السفينة. منذ تلك اللحظة أبقيته تحت أنظاري. وجدته في أماكن غير متوقعة وواجهته، لماذا؟ أيها السيدات والسادة احكموا بأنفسكم! أراه يبكي، شيء ما أمضّه، ويحدّق في البحر بنظرة مجنونة ومسعورة. ما يهمني في ذلك؟ لا شيء بتاتًا بالتأكيد، وعلاوة على ذلك احكموا بأنفسكم ولا تتراجعوا! مضى يومان، الرياح الرأسية تهب والبحر عاصف. جاء عند الساعة الثانية صباحًا إلى مؤخرة السفينة، كنت مختبئًا هناك في انتظاره، ألقى ضوء القمر على وجهه مسحة صفراء. ينظر في كل اتجاه، يطوّح بذراعيه في الهواء ويقفز من على المركب بقدمه أولًا.

أفلتت صرخة من رئتيه. هل ندم على اندفاعه؟ هل ذعر في اللحظة الأخيرة؟ هل هذا ما دعاه للصراخ؟ أيها السيدات والسادة، ماذا كنتم فاعلون لو كنتم في مكاني؟ أدعه كليًا بين أيديكم. ربما قد تحترمون احترامًا خالصًا الشجاعة الأصيلة للروح التعسة المسكينة ولو أنها مترددة، وتظلون في مكامنكم. لكنني صحت بالقبطان على الجسر، ودون تفكير قفزت من المركب، برأسي أولًا. في البداية خضت في الماء بجنون، أضرب في كل اتجاه، أمخض الماء من حولي. على السطح أصوات تزأر بالتوجيهات. فجأة اصطدمت بإحدى ذراعيه مبسوطة وأصابعها متصلبة. ساقاه تتحركان قليلًا، شكرًا لله! اختطفته من عنقه وراح وزنه يزداد ثقلًا، عرج ولم يحرك ساقيه أبدًا. ثم حاول أن يتخلص مني. ناضلت معه، البحر الهائج يضرب جبهتينا معًا، وشعرت بأني على وشك أن أفقد الوعي. ماذا بعد؟ صررت على أسناني، ألعن السماوات العليا، وأبقيت قبضة مشدودة على عنق الرجل إلى أن وصل

المركب أخيرًا. ما كنتم ستفعلون؟ إنقاذه كان مثل مصارعة دب.

لكن هل كانت هناك أي فضيلة في الأمر؟ حسنًا، لقد تركت الأمر لكم، أيها السيدات والسادة! احكموا عليَّ دون تأثر. أي فرق قد يكون بالنسبة إليَّ؟ لكن دعونا نفترض أن الرجل وجد أن ذهابه إلى الشاطئ في هامبورج مستحيلًا لسبب ما؟ ربما كان يفترض أن يلتقي بشخص لا يستطيع مواجهته؟ وعلى الرغم من ذلك، فالوسام هو اعتراف بفعل باسل، أحمله في جيبي، ولا أرميه أمام الخنازير. هذا أيضًا متروك لحكمكم.

احكموا على كلِّ ما تشاؤون-أي جحيم أهتم له؟ إنه لا يشكّل أدنى أهميّة بالنسبة إليَّ، حتى أني لا أتذكّر اسم الرجل المسكين، مع أنه بلا شك لا يزال حيًا. ولماذا أهتمّ لأمره؟ ربما كان يائسًا من حب مستحيل، ربما كان لامرأة علاقة بالأمر حقًا، ليست لدي فكرة. لكن لا فرق عندي.

توقف قصير.

آه، النساء، هاتيك النساء! خذ كامًّا على سبيل المثال، صغيرتي كامًّا الدانماركية. ليباركك الله! رقيقة مثل حمامة، مفعمة بالعطف والتفاني، لكنّها لا تزال قادرة على انتزاع آخر شلن تملكه منك، غير مبقية على شيء، فقط تميل رأسها غنجًا إلى جانب واحد وتهمس: «سيمونسن، عزيزي سيمونسن!» حسنًا ليحمك الله كامًّا، لقد كنت شديدة الإخلاص. الآن، في رأيي، يمكنك أن تذهبي إلى الجحيم، نحن متساويان.

حان وقت النهوض.

لا، على المرء أن يبتعد عن ذلك الجنس. يقول كاتب عظيم: «بني، عندما تقدم لك امرأة جمائلها احترس،»- ومَهْما يكُن ما يقوله كاتب

عظيم. كان كارلسن ضعيفًا، مثاليًا، مات بسبب عواطفه العنيفة، أي بسبب أعصابه المحطمة، وبالتالي بسبب حمية غذائية غير مناسبة ونقص التمرين في الهواء الطلق. «ليت سكينك كانت ماضيةً مثل لائك الأخيرة!»[1] لقد أفسد سمعته بعد وفاته باقتباس الشاعر! لنفترض أني التقيت كارلسن في الوقت المناسب-اليوم الأخير، أو حتى قبل نصف ساعة من حدوث المأساة-وقد قال لي إنه سيقتبس قولًا في لحظات موته، ربما قلت: انظر إلي، أنا سليم العقل ومتزن وأطلب منك من أجل البشرية ألاّ تدمّر ساعتك الأخيرة باقتباس قولٍ لما يسمى شاعرًا عظيمًا. هل تعلم ما معنى شاعر عظيم؟ إنه شخص لا يخجل، ليس أهلًا للحياء.

في لحظات ينفجر الحمقى العاديون من تلقاء أنفسهم ويتوردون خجلًا، ليس مثل الشاعر العظيم. انظر إليَّ مجددًا. إذا كنت حقيقة تود أن تقتبس قول أحدهم، اقتبس كلام جغرافي، بتلك الطريقة لن تخسر نفسك. فيكتور هوجو-هل تحب الضحك الجيد؟ ذات يوم كان بارون ليسدين يتحدث إلى فيكتور هوجو. سأل البارون المحتال خلال مجرى الحديث: «من في رأيك أعظم شاعر فرنسي؟» ابتسم فيكتور هوجو، عض شفته، وبعد لحظة تأمل قال: «ألفريد دي موسيه هو ثاني أعظم شاعر.» لكن ربما لم تفهم النكتة؟ هل تعلم ما الذي فعله فيكتور هوجو عام 1870؟ لقد كتب تصريحًا مُوجَّهًا إلى شعوب هذا الكوكب منع فيه على نحو صارم القوات الألمانية من حصار باريس وقصفها. «لديّ هنا أحفاد وأعضاء آخرون من عائلتي، ولا أريد أن تصيبهم القنابل.»

لم أحصل على حذائي بعد. ماذا فعلت سارة بحذائي؟ إنها الساعة

---

(1) في أوّل إصدار للرواية عزا هامسن هذا القول إلى فيكتور هوجو.

الحادية عشرة تقريبًا ولم تجلبه حتى الآن. إذن دعنا نقتبس عن عالم الجغرافيا.. بالمناسبة، لسارة تلك جسد جميل. كيف يتأرجح وركاها عندما تمشي مثل عجيزتي فرس معافاة! إنها مخلوق بديع-أتساءل إذا ما كانت قد تزوجت من قبل؟ بأية حال، لا تبدو بأنها قد تمانع إذا ما لكمت أضلاعها، هي ربما لعبة للجميع.

لقد رأيت زفافًا واحدًا في حياتي، وعن كثب. أيّها السيدات والسادة، كان مساء يوم أحد عند محطة القطار في السويد-محطة كانجسباكا. دعوني أشدّد على أنّه كان مساء يوم أحد. كانت يداها عريضتين وبيضاوين، وكان يرتدي بزة جندي جديدة تمامًا وبدا كما لو أنه لم يحلق شعره بعد. كانا في طريقهما من جوتنبرغ-كانت في ريعان شبابها أيضًا-كانا طفلين. جلست هناك أتلصّص عليهما من خلف صحيفتي. تسبب حضوري لهما بالضيق وظلاّ يتبادلان النظرات. تألّقت عينا الفتاة، لم تستطع البقاء هادئة. ثم انطلقت صفارة معلنة كانجسباكا، أخذ يدها، تبادلا النظر، وعندما توقف القطار، نهضا بسرعة. اندفعت بسرعة نحو غرفة السيدات وهو في إثرها.

يا إلهي! أخطأ ودخل من نفس الباب! أغلقا بسرعة الباب خلفهما. في تلك اللحظة بدأت أجراس الكنيسة في البلدة تدق-كان يوم الأحد. بقيا هناك أثناء رنين الأجراس. ثلاث، أربع، خمس، دقائق مرت. ما الذي حل بهما؟ لا يزالان هناك وأجراس الكنيسة لا تزال تدق. هل سيفوتان القطار؟ أخيرًا فتح الباب ونظر من حوله باحتراس. حاسر الرأس، تقف خلفه تمامًا وتضع قبعته، التفت نحوها وابتسم. هبط الدرج، وتبعته، لا تزال تتلمس فستانها. ركبا القطار واتخذا أمكنتهما دون أن يلقي أحد أدنى انتباه لهما، أي ما من أحد سواي. كانت عينا الفتاة مشعتين عندما نظرت نحوي، ونهداها الصغيران يموجان إلى

الأعلى فالأسفل، الأعلى فالأسفل. وبعد بضع دقائق كانا نائمين، نائمين كالموتى، نائمين بسعادة.

حسنًا، كيف تشعرون إزاء ذلك؟ أيّها السيدات والسادة، تلك نهاية قصتي. أتجاهل السيدة المحترمة هناك، تلك التي تحمل منظار الأوبرا وترتدي الياقة الرجالية-أقصد المثقفة. أنا أقدم نفسي إلى الاثنين أو الثلاثة من بينكم الذين لا يعيشون الحياة بأسنان مطبقة وهم يؤدون أعمالهم في رفاه اجتماعي. أنا آسف إذا ما أهنت أحدًا. اعتذاراتي الخاصة إلى السيدة المثقفة ذات المنظار.

إنّها تنهض! إما أنها مغادرة أو أنها على وشك أن تقتبس قول أحد ما. وإذا ما كانت على وشك الاقتباس من أحد فإنّ ذلك سيكون رغبة في أن تتحداني، وستقول شيئًا مثل هذا: «هذا رجل لديه أكثر الأفكار التي سمعتُها ذكوريةً وبدائيّةً عن الحياة على الإطلاق. هل تلك حياة؟ ربما هو غير مدرك لما قاله واحد من أعظم العقول في العالم عن الموضوع. (الحياةُ حربٌ مع الترولات في سراديب القلب والدماغ)

نعم، الحياةُ حربٌ مع الترولات[1] في سراديب القلب والدماغ، هذا حقيقي بالتأكيد. أيها السيدات والسادة، ذات يوم كان مؤمِّن النقل يقود كاتبًا عظيمًا. وهما في طريقهما قال مؤمّن النقل البسيط: «رجاء هل يمكنك أن تشرح لي ما هو الشاعر في الحقيقة؟»

زم شفتيه ونفخ صدره الضعيف ثم نطق الكاتب العظيم: «بكتابة الشعر يجلب الشاعر يوم القيامة لنفسه.» حينها صار مؤمّن النقل الشمالي يرتعد بشكل ملحوظ.

الساعة الحادية عشرة. أين حذائي بحق الشيطان؟ حسنًا، متحدثًا عن كوني ضد كل شيء وكل شخص.. السيدة الطويلة الشاحبة ذات

(1) Troll: وهو كائن خرافي قزم في الميثولوجيا الاسكندنافية.

الرداء الأسود والابتسامة الحمراء البراقة، تخطف ذراعي بطريقة ودية وتحاول إيقافي. «لو بمقدورك أن تقول شيئًا مثيرًا ككاتب،» تقول، «يحق لك أن تتحدث بما لديك.»

«أنا الذي لم أعرف أبدًا شاعرًا أو كاتبًا، ولم أتحدّث إلى أيّ منهما! أنا مهندس زراعي، عشت مع ذرق الطيور وعصيدة النخالة منذ الطفولة. لا يمكنني أن أصنع أسجوعة حتى عن مظلّة، فما بالك بالموت والحياة والسلام الأبدي.»

«حسنًا إذن، ماذا عن أي رجل عظيم آخر؟» تقول. «أنت تمضي في تدعيم أناك بتشويه سمعة كل الرجال العظماء. لكن الرجال العظماء يظلون هكذا وسوف يبقون، الزمن سيثبت قيمتهم.»

«سيدتي،» أقول، منحنيًا باحترام، «لا يمكنك تخيّل كم تبدو لي ملحوظاتك جاهلة وسطحية. سامحيني لصراحتي الشديدة، لكن لو كنتِ رجلًا بدلًا من امرأة قد أراهن بأنك ليبرالية. لا أوبخ كل الرجال الذين اشتهروا، لكن الصيت الذي يحيط بهم يعجز عن التأثير فيّ. أنا أحكم عليه بمعاييري الخاصة، من خلال إطار عقلي المحدود وذكائي. بمعنى آخر، أحكم عليه من مذاق عمله الذي يبقى في فمي. ليس هذا لكوني متفوقًا، بل حسبي أن أكون ذاتيًا، إنه المنطق يعبّر عن نفسه في دمي. الأمر المُهمّ في هذه اللحظة متوار عن الأنظار لاستبدال كتاب تراتيل كينجو بكتاب لانستاند في أبرشية هويفاج Høivåg في ليلساند. هي ليست مسألة تأليب الكثير من المحامين، الصحفيين، أو الصيادين الجليليين، أو نشر كتاب عن نابليون الصغير.

الفكرة هي استخدام الضغط على هؤلاء الذين في السلطة، القلة المختارة، النخبة، أصحاب الأمر، قيافا، بيلاطس، قيصر. ماذا أستفيد بإثارة الأوباش إذا كان لابد لي من أن أبقى مصلوبًا؟

يمكنك جمع حشد كبير من الناس وتحريضهم على انتزاع السلطة بأظفارهم. يمكنك أن تضعي سكين الجزار في أيديهم وتحرضيهم على الطعن والجرح، ويمكنك أن تسوطيهم ليفوزوا بالانتخابات. لكن لإنجاز نصر حقيقي؛ نصر أخلاقي لتقدّم أخيهم الإنسان، فأمرٌ لا يمكن للأوباش تدبّره. رجال الرسائل يصنعون محادثات جيدة، لكن على زعماء الفكر المتفوّقين، القادة الروحيين على صهوة جواد، أن يتوقّفوا ويبحثوا في عقولهم متى ذُكر اسم الرجل العظيم «الحقيقي». إذن الرجل العظيم «الحقيقي» تُرك في الخلف مع الحشد، والرعاع، وبعبارة أخرى فإنّ الأغلبية:المحامي والمدرّس والصحفي وإمبراطور البرازيل، جميعهم يكوّنون مجموعةَ مُعجَبيه.»

«آه،» تقول السيدة بصوت حاد هازئ. رئيس الجلسة يقرع بمطرقته ويطلب الصمت، لكن السيدة ثابرت: «حسنًا إذن، طالما أنك تدعي بأنك لا تُدين جميع العظماء، ربما يمكنك أن تذكر البعض أو على الأقل واحدًا ربما يلقى تأييدك. هذا قد يكون مثيرًا للاهتمام.»

«سيسرني ذلك. لكن للأسف أخذتِ كلامي بحرفيته. إذا كنت سأذكر واحدًا، أو اثنين، أو عشرة، ستستنتجين أن هذه نهاية قائمتي. لمَ عليَّ أن أفعل ذلك؟ إذا طلبت منك على سبيل المثال أن تختاري بين ليو تولستوي، ويسوع المسيح، وإيمانويل كانط، قد يصعب عليك الاختيار. قد تعلنين بشكل عام أنهم كانوا كلهم عظماء على طريقتهم، و الصحافة الليبرالية والتقدمية ستتفق معك..»

«لكن في رأيك من هو الأعظم؟» سألت.

«في رأيي يا سيدة، هؤلاء الذين يصنعون مالًا أكثر ليسوا الأعظم، بالرغم من أنهم دومًا يثيرون الضجة الأعلى. دمي يتحدث بصراحة ويقول لي إنّ أعظمهم جميعًا هو من أتى لنا بالقيم الأساسية، وهذا

يعني في النهاية الهدية الأعظم للجنس البشري. رجل النفوذ، المتحكم في السلطة الأسمى، الخارق الذي يدير المفتاح الذي يقلب نظام العالم.»

«لكن من بين الثلاثة الذين ذكرتهم لا بد من أن يكون المسيح من...»

«نعم، بالتأكيد هو المسيح،» أقول سريعًا.» أنت على حق سيدتي، ويسرني أن نتفق على الأقل على هذه الفكرة. لا أحترم التجار والوعاظ، هم في رأيي ليسوا سوى موهوبين في استنباط الكلمة المناسبة في الوقت المناسب. ما هو الواعظ المحترف حقيقة؟ إنه نوع من سمسار يحاول لأسباب خاطئة أن يجعل الناس يشترون بضاعته. وكلّما باع أكثر، ارتفعت أسهمه. وكلما نادى على بضاعته بصوت أعلى، نما عملُه بشكل أوسع. لكن ما المغزى من التوسّل بفلسفة فاوست عن الحياة لوعظ جاري الطيب؟ أولا نورديستيون؟ كيف يمكن أن يؤثّر ذلك في التفكير خلال القرن القادم.»

«لكن ما سيحل بأولا نورديستيون إذا لم يقم أحد..»

«أولا نورديستيون يمكنه أن يذهب إلى الجحيم،» أقول بفظاظة. «ليس لديه مهمة أخرى في هذا العالم سوى التجول منتظرًا الموت إلى أن يضيع وقته عبثًا-وكلما سارع في الرحيل، كان أفضل. أولا نورديستيون وضع على هذه الأرض ليخصب التربة، إنه أولا نورديستيون الذي يرتجف نابليون تحت حوافر حصانه، هذا تمامًا يختصر أولا نورديستيون. أولا نورديستيون هو ليس حتى بداية شيء، وعلاوة على ذلك لا يمكنه أن يكون نتيجة أي شيء. هو ليس حتى فاصلة في كتاب عظيم، لكن فقط بقعة على الورقة. وها نحن لدينا أولا نورديستيون.»

«بحق السماء، اهدأ،» تقول السيدة، وهي تنظر بفزع نحو رئيس المجلس لترى إذا كان موشكًا على طردي.

«حسنًا، لن أقول المزيد.» لكنّي أركّز عيني على فمها الجميل وأقول: «أنا آسف لأني تحدثت طوال هذا الوقت. لكن شكرًا لك على طيب انتباهك. فمك جميل عندما تبتسمين. وداعًا.»

تحمر خجلًا وتدعوني إلى البيت–تدعوني إلى منزلها بالفعل! تعطيني عنوانها وتقول إنها قد تود مواصلة هذه المحادثة قليلًا. لا توافقني الرأي في كثير من الأفكار. غدًا مساءً ستكون وحيدة لو أود القدوم. غدًا مساءً؟ جميل. وداعًا حتى ذلك الحين. وكل ما أرادت أن تريني إياه كان بساطًا جديدًا من هالينجدل، منسوجًا يدويًا.

عزيزتي، والشمس تسطع هنا...

قفز من السرير، فتح الستارة ونظر إلى الخارج. كان يومًا هادئًا بغير رياح وكانت الساحة تغتسل في ضوء الشمس. رن متعمدًا أن يستغل إهمال سارة لحذائه ليتحدث معها حديثًا أكثر ألفة. لنرى ما فعلت به، هذه الفتاة التي من مدينة تروندهايم، ذات العينين الفاتنتين. ربما مظهرها المثير مجرد نظرة إغراء.

لف خصرها بذراعه دون مقدمات.

«دعني وشأني،» قالت بغضب، ودفعته بعيدًا.

«لمَ لم تجلبي لي الحذاء سريعًا؟» قال متصنعًا نبرة باردة.

«أنا آسفة بشأن الحذاء،» قالت. «لكنه يوم الغسيل ونحن مشغولون للغاية.»

ظل في غرفته حتى الساعة الثانية عشرة، ثم ذهب إلى المقبرة لحضور جنازة كارلسن. وكالعادة ارتدى بذلته الصفراء الزاهية.

الفصل الخامس

عندما وصل نيجل إلى المقبرة لم يجد أحدًا. تقدّم نحو القبر ونظر فرأى عليه وردتين بيضاوين. من ألقى بهما هناك ولماذا؟ أحس بأنه رأى هذه الزهور سابقًا. فجأة خطر له أنه يجب أن يحلق شعره. نظر في ساعته وبعد لحظة تفكير توجه مسرعًا إلى البلدة. عندما وصل إلى وسط الساحة رأى النائب متجهًا نحوه. واصل نيجل السير، رمَق أحدُهما الآخرَ، ولكن دون أن ينبسا بكلمة أو يتبادلا التحية. لحظة دخول نيجل صالون الحلاقة بدأ جرس الكنيسة يدق من أجل الجنازة.

بدا شديد اللامبالاة، لم يتحدث إلى أحد، لكن أمضى بضع دقائق يستطلع الصور على الجدران منتقلًا من واحدة إلى أخرى ممعنًا النظر فيها بجدية. ثم جاء دوره وجلس في الكرسي.

عندما انتهى وخرج إلى الشارع رأى النائب مجددًا، وقد بدا أنه عاد وينتظر شيئًا. كان يحمل في يسراه عصا لكن حالما رأى نيجل نقلها إلى يمناه وراح يؤرجحها. دنا كلّ واحد منهما من الآخر ببطء. لم يكن يمسك بعصا عندما رآه منذ قليل، قال نيجل لنفسه. هي ليست جديدة، لم يشترها لكن استعارها. عندما اقترب أكثر رأى أنها كانت خيزرانة.

عندما حاذى أحدهما الآخر توقف النائب وكذلك فعل نيجل. دفع نيجل قبعته القطنية إلى الأمام كأنه يرغب في أن يحك رأسه من

الخلف ثم سواها مجددًا. ضرب النائب الخيزرانة بقوة على حصى الرصيف ثم استند إلى الوراء عليها. بقي بضع ثوانٍ على هذه الحال. ثم استقام فجأة، أدار ظهره لنيجل وابتعد. راقبه نيجل وهو يتوارى عند ناصية صالون الحلاقة.

هذا العرض الإيمائي جرى على مرأى عدد من الأشخاص. من بينهم رجل يبيع اليانصيب من أسطوانة دوارة. وإلى الأسفل قليلًا كان هناك رجل يبيع تماثيل صغيرة من الجص. هو أيضًا رأى كل شيء. تعرّف إلى نيجل أحدُ زبائن المقهى الذين شهدوا ما حدث الليلة السابقة والذي كان فيما بعد منحازًا إلى جانب صاحب الفندق.

عندما وصل نيجل إلى المقبرة في المرة الثانية، كان الكاهن قد بدأ بالتأبين. كان الناس جميعًا يرتدون ثياب الحداد السوداء. بدأ نيجل يتقدم نحو القبر لكنه توقف وجلس على بلاطة رخامية جديدة كبيرة منقوش عليها: «فيلهيلمين ميك. ولدت في العشرين من أيار عام 1873 وتوفيت في السادس عشر من شباط عام 1891.» هذا كان كل شيء. كانت البلاطة قد وضعت هناك للتو وكانت الخضرة من حولها حديثة النمو.

أومأ نيجل إلى فتى صغير. «هل ترى الرجل الذي يرتدي معطفًا بنيًا هناك؟»

«الرجل الذي يضع قبعة ذات حافة؟ ذلك القزم؟»

«اذهب واطلب منه أن يأتي إلى هنا.»

فعل الفتى كما طُلب منه.

عندما اقترب القزم مد نيجل يده وقال: «مرحبًا، تسرني رؤيتك مجددًا، هل حصلت على المعطف؟»

«المعطف؟ لا ليس بعد لكني واثق من أني سأحصل عليه،» أجاب القزم.

«شكرًا جزيلًا لك على ليلة البارحة وشكرًا على كل شيء. حسنًا، ها نحن ندفن اليوم كارلسن. أظن أنها إرادة الله.»

جلسا على البلاطة الرخامية الجديدة وشرعا يتحدّثان. أخرج نيجل قلمًا من جيبه وكتب شيئًا على البلاطة.

«من مدفون هنا؟» سأل.

«فيلهيلمن ميك. كنا نناديها مينا ميك اختصارًا. كانت طفلة، لا أظن أنها كانت قد بلغت العشرين من عمرها.»

«لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة وفقًا للنقش. لكن هل كانت أيضًا فتاة «صالحة»؟»

«تلك طريقة غريبة للوصف، لكن..»

«لأني لاحظت أنكم لا تذكرون سوى الأشياء الجيدة عن الناس فقط، كائنًا من كانوا.»

«أنا واثق من أنك لو عرفت مينا ميك كنت ستشعر بنفس الشعور. كانت إنسانة رائعة بشكل استثنائي. إذا كانت هناك ملائكة فهي واحدة منهم.»

«هل كانت مخطوبة؟»

«مخطوبة؟ لا، بالتأكيد لا. ليس على حد علمي. كانت دومًا تقرأ الإنجيل وتتحدث بصوت مرتفع إلى الله، غالبًا في وسط الشارع حيث يمكن للجميع سماعها. قد يتوقف الناس ويصغون. كان الجميع مولعًا بمينا ميك.»

أعاد نيجل قلمه إلى جيبه. كان هناك شيء مكتوب على الحجر- أبيات من الشعر بدت قبيحة على الرخام الأبيض النظيف.

قال القزم: «أنت تلفت الكثير من الانتباه. عندما كنت أقف هناك

أستمع للعظة، لاحظت أنّ نصف الناس على الأقل كانوا يراقبونك.»

«أنا؟»

«نعم، بعضُهم كان يهمس بينه وبين نفسه متسائلًا من تكون، الآن هم ينظرون نحونا.»

«من تلك السيدة التي تضع قبعة عليها ريشة سوداء كبيرة؟»

«التي تحمل المظلة ذات المقبض الأبيض؟ هذه فريدريكه أندرسن، الآنسة فريدريكه لقد حدثتك عنها. والسيدة التي تقف بجانبها تنظر إلينا الآن تمامًا، هي ابنة قائد الشرطة-الآنسة أولسن، جوردون أولسن. أوه أعرفهم جميعًا. داجني كيلاند هنا أيضًا، إنها ترتدي فستانًا أسود، وهو يناسبها أكثر من أي شيء آخر رأيتها ترتديه على الإطلاق. هل رأيتها؟ حسنًا، بالتأكيد جميعهم يرتدون الأسود اليوم، فكيف لك أن تميزها؟ هل ترى السيد الذي يرتدي معطفًا ربيعيًا أزرق، ويضع نظارات؟ هذا الدكتور ستينرسن. هو ليس الطبيب المسؤول عن المنطقة، لكنه يعمل لحسابه الخاص، تزوج السنة الماضية. زوجته تقف بعيدًا، لا أعرف إذا كان بمقدورك أن ترى السيدة القصيرة داكنة الشعر التي ترتدي معطفًا ذا حافة حريرية؟ هذه هي زوجته. هي ضعيفة وعليها دومًا أن ترتدي ملابس تبعث الدفء. وها هو النائب.»

«هل يمكنك أن تشير إلى خطيب الآنسة كيلاند؟»

«لا، الملازم هانسن ليس هنا، إنه في مناورة عسكرية. غادر منذ عدة أيام بعد الخطبة تمامًا.»

بعد برهة من الصمت قال نيجل: «وجدتُ زهرتين موضوعتين في قعر القبر، زهرتين بيضاوين. لا أتصور أنك تعلم من وضعهما؟»

«نعم-هل ترغب حقًا في معرفة ذلك؟ هل عليَّ أن أجيب؟ أنا خجل

من إخبارك-ربما لو طلبت لكانوا سمحوا لي أن أضع الزهور على النعش بدلًا من رميها هنا بهذا الشكل. لكن زهرتين تبدوان ضئيلتين للغاية، وأينما وضعتهما ستظلان مجرد زهرتين. فنهضت بعد الثالثة بقليل هذا الصباح-أو الليلة الماضية بالأحرى، ورميتهما في القبر. وأيضًا نزلت فيه ورتبتهما، وودعته بصوت عال مرتين. كنت حزينًا جدًا حتى أني ذهبت إلى الغابة ودفنت وجهي بيدي لأخفي حزني. يا له من شعور غريب ينتابك وأنت تودع شخصًا ما إلى الأبد، وبالرغم من أن جينس كارلسن كان متفوقًا جدًا في كل شيء بالنسبة إليَّ، فقد ظلّ إلى آخر لحظة صديقًا طيبًا.»

«إذن، تانكَ الزهرتان كانتا منك؟»

«نعم، لكنِّي لم أفعل ذلك لألفت الانتباه والله على ما أقول شهيد. إلى جانب أنّهما ليستا على أي قدر من الأهمية، اشتريتهما الليلة الماضية بعد أن غادرتك. عندما أعطيت عمي نقودك منحني نصف كرون لأتصرف به كما يحلو لي، كان في غاية السرور حتى أنه كاد يوقعني أرضًا، سيأتي يومًا ما ليشكرك شخصيًا، أنا واثق من أنه سيفعل، لكن عندما أعطاني نصف كرون تذكرت فجأة أني لا أملك أي زهور للجنازة لذا فقد ذهبت إلى الرصيف.»

«ذهبت إلى الرصيف؟»

«نعم، لأرى السيدة التي تعيش هناك.»

«في المنزل المؤلف من طبقة واحدة؟»

«نعم.»

«هل هي السيدة ذات الشعر الأبيض؟»

«نعم الناصع البياض. هل رأيتها؟ إنها ابنه القبطان البحري،

لكن مع ذلك هي في حالة من الفقر المدقع. أولًا لم تقبل أن تأخذ نصف الكرون مني، لكني تركته على كرسي–ولو أنها ظلت تحتج. إنها في غاية الخجل، وبدا أن ذلك يضايقها كثيرًا.»

«ما اسمها؟»

«مارتا جودي.»

«مارتا جودي.» تناول نيجل دفتره وكتب اسمها وقال: «هل سبق أن تزوجت؟ هل هي أرملة؟»

«لا. كانت تسافر بحرًا بصحبة والدها، لكن منذ وفاته وهي تعيش هنا.»

«أليس لديها أقارب؟»

«لا أعلم، لكني لا أظن.»

«لكن كيف تعيش؟»

«الله وحده يعلم. لكن لا بد من أنها تحصل على مساعدة من الكنيسة.»

«طالما أنك زرت هذه السيدة، مارتا جودي، ربما يمكنك أن تخبرني كيف يبدو منزلها من الداخل؟»

«كيف يمكن لكوخ بائس قديم أن يبدو؟ لديها سرير، وطاولة، وكرسيّان، الآن أفكر فيه، لا بد من أن يكونوا ثلاثة كراسي، لأن هناك واحدًا موضوعًا عند الزاوية بقرب السرير. إنه منجّد بخملة حمراء، لكنه يميل على الجدار–فيما يبدو أن واحدة من أرجله مكسورة. لا أذكر أني رأيت شيئًا آخر.»

«هل أنت واثق أنه لا يوجد شيء آخر؟ أليس هناك ساعة على الجدار، لوحة قديمة، أو شيء من هذا القبيل؟»

«لا. لمَ تسأل؟»

«كيف يبدو ذلك الكرسي المكسور المنجّد بخملة حمراء؟ هل هو قديم جدًا؟ لماذا يوضع قرب السرير؟ هل هو عديم الفائدة؟ هل له مسند عال؟»

«نعم، أظن أن له مسندًا عاليًا، لكني لا أتذكر بالضبط.»

كانوا ينشدون الترنيمة الأخيرة عند القبر، والمراسم على وشك أن تنتهي. عندما انتهت الترنيمة رانت برهة من الصمت التام بعدها تبدد الحشد. توجه أغلب المشيعين نحو البوابة الرئيسة، وواصل سواهم التحدث بأصوات هامسة. توجهت مجموعة صغيرة نحو القزم ونيجل-كانوا جميعهم شبانًا، ونظرت السيدات إلى الاثنين بدهشة. توردت داجني كيلاند، لكنها أبقت عينيها إلى الأمام، لا تنظر يمنة ولا يسرة. النائب أيضًا حوّل بصره وهو يتحدث بهدوء إلى إحدى السيدات.

وهم يمرون توقف الطبيب ستينرسن الذي كان مع إحدى المجموعات. ولوّح للقزم الذي نهض فورًا، في حين ظل نيجل في الخلف.

«هلا طلبت من السيد..» سمع الطبيب يقول، لم يسمع البقية. لكن بعد لحظة سمع ذكر اسمه بوضوح فنهض أيضًا، ونزع قبعته، وانحنى انحناءة احترام.

اعتذر الطبيب، سألته سيدة القيام بمهمة غير محبذة في أن يطلب من السيد أن يكون أكثر احترامًا للقبر وألاّ يجلس عليه. فقد تم بناؤه حديثًا، لم تكن القاعدة قد جفت تمامًا، وكان الطين من حولها طريًا، وقد يتهاوى بسهولة. جاء الطلب من قبل أخت الفقيدة.

اعتذر نيجل بإفراط، كان استهتارًا وطيشًا منه وتفهّم تمامًا قلق السيدة. عبّر عن شكره للطبيب.

واصل الجمع تحركه. ودعهم القزم لدى وصولهم إلى البوابة. ووجد الطبيب ونيجل نفسيهما وحيدين فتعارفا.

«هل تنوي أن تبقى هنا لفترة؟» سأل الطبيب.

«نعم.» قال نيجل. «على المرء أن يتبع الموضة ويُمضي عطلة الصيف في الريف، يستجمع قواه لأشهر الشتاء، ويبدأ بداية جديدة... هذه بلدة صغيرة مبهجة ومزدحمة.»

«من أين أتيت؟ كنت أحاول أن أحدد لكنتك.»

«أتيت من فينمارك في الأصل-أنا فنلندي، لكني عشت في أماكن عديدة.»

«هل أتيت من الخارج للتو؟»

«من هلسنكي.»

في البدء كانت محادثتهما عامة، لكنهما سرعان ما تحدثا في أمور أخرى مثل الانتخابات، والحصاد السيّئ في روسيا، والأدب، وموت كارلسن.

«هل تظن أنكم دفنتم منتحرًا اليوم؟» سأل نيجل.

لم يستطع الطبيب القول، ولم يرغب في ذلك. لا يهمه الأمر، ولم يكن ليتورط في هذا. كان هناك كلام كثير. لكن لمَ عليه ألاّ ينتحر؟ على جميع اللاهوتيين أن يفعلوا ذلك بأنفسهم.»

«لماذا؟»

«لماذا؟ لأنهم لم يعودوا يفيدون بشيء في بلادنا. بدأ الناس يفكّرون في أنفسهم، وقناعتهم الدينية تتلاشى بشكل تدريجي.»

ليبرالي، فكر نيجل بينه وبين نفسه. لكن ماذا يكسب الرجل حين يستلب من الحياة كل ما فيها من رمزية، وشِعر؟ فضلًا عن ذلك، كان عرضة للسؤال عمّا إذا جعل هذا العصر اللاهوتيين حقًا فائضين عن الحاجة طالما صار الدين ميتًا تمامًا.

«ربما يستمر الدين في الطبقات الدنيا بالرغم من أن تأثيره هناك يبدو آخذًا بالتضاؤل، أمّا في صفوف المتعلمين فقد انتهى بالتأكيد.»

«بأية حال، دعنا من الحديث عن ذلك،» انفجر الطبيب بصورة فظة. «تفكيرنا مختلف إلى حد بعيد.»

كان الطبيب من أصحاب التفكير الحر كما يقال، وقد انخرط سابقًا في مثل هذا النقاش عددًا لا يحصى من المرات. وهل جعله هذا يغير آراءه؟ كان عالقًا في الأفكار ذاتها منذ عشرين عامًا. ساعد كطبيب في غَرْف «أرواح» الناس بملعقة! لا، كان لا يصدق الخرافة.. «كيف تشعر إزاء الانتخابات؟»

«الانتخابات؟» ابتسم نيجل وقال: «آمل خيرًا.»

«نعم وأنا أيضًا،» قال الطبيب ستينرسن. «ستكون فضيحة مريعة إذا لم تفز الحكومة بالأغلبية على مثل هذه المنصة الديمقراطية بعيدة المدى.» اعترف الطبيب بكونه ليبراليًّا، بل وراديكاليًّا، منذ بلوغه سن الرشد. كان خائفًا من «بوسكرود»، و «سمالينه» لم يكن واردًا. «في واقع الأمر ليس لدينا ما يكفي من المال لدعمنا،» قال. «أنت وأمثالك تملكون المال وعليكم دعمنا. مستقبل البلاد برمتها في وضع حرج.»

«هل أملك المال؟» تعجب نيجل. «أخشى أنك مخطئ.»

«حسنًا، ربما لا تملك الملايين بالضبط. لكني سمعت أنك تملك المال–وأن لديك ملكًا تعادل قيمته اثنان وستون ألف كرون.»

«هذا هراء مطلق. حدث أن ورثت مؤخرًا من أمي بضعة آلاف من الكرونات. لكني لا أملك أي عقار. مصدر هذه الشائعة يُشكّل لغزًا بالنسبة إليَّ.»

وصلا إلى منزل الطبيب، منزل أصفر مؤلف من طبقتين وله

شرفة. يحتاج المكان إلى الطلاء، كانت المزاريب في حال سيئة، وإحدى نوافذ الطابق العلوي تفتقر إلى لوح زجاج، والستائر أبعد ما يكون عن النظافة. كان مظهر المنزل الرث مُثيرا للانقباض حتى أن نيجل رغب في الابتعاد بأسرع ما يمكن، لكن الطبيب قال:

«ألن تدخل؟ لا؟ حسنًا إذن، آمل أن تعود في وقت آخر. سنسر أنا وزوجتي بمجيئك لزيارتنا. هل أنت واثق من أنه لا يمكنك الدخول لتلقي التحية على زوجتي الآن؟»

«ألم تكن السيدة ستينرسن في المقبرة؟ لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى البيت بعد.»

«نعم، بالتأكيد، ذهبت مع الآخرين. حسنًا، توقف لبعض الوقت عندما تمر من هنا.»

تجوّل نيجل باتجاه الفندق، وحين كان موشكًا على الدخول ومضت فكرة في عقله. فرقع أصابعه، وقهقه، وقال بصوت مرتفع: «سيكون ممتعًا أن أتأكد من وجود أبيات الشعر هناك!» استدار عائدًا إلى المقبرة. توقف عند شاهدة قبر مينا ميك، لم يكن هناك أحد لكن الأبيات كانت ممحوة. من فعل ذلك؟ لم يبق من أثر لما كتبَهُ.

الفصل السادس

صباح اليوم التالي كانت معنويات نيجل عالية على غير العادة. شعر وهو لا يزال في السرير بالابتهاج على نحو غريب. كأن سقف الغرفة يرفرف إلى الأعلى نحو اللانهاية ويتّحد بقبة السماء. فجأة شعر بنسمة شذية رقيقة تجتاحه كأنه كان ممددًا تحت سقف السماء على سرير من عشب أخضر. كان صباحًا صيفيًا دافئًا، والذباب يئز في أرجاء الغرفة.

ارتدى ثيابه على عجل، غادر الفندق دون أن يتناول فطوره، وجاب في أرجاء البلدة. كانت الساعة حينها الحادية عشرة. بدا أن جميع من لديهم آلة بيانو يعزفون عليها، فانتشر صوت نشاز من النوافذ المفتوحة، وردَّ كلب صاخب من الشارع بعواء مديد. كان يملأ نيجل إحساس بالهناء.

راح يغني بهدوء بينه وبين نفسه، وعندما مرَّ برجل مسن حيَّاه ودس في يده شلنًا.

وجد نفسه أمام منزل أبيض كبير، كانت إحدى نوافذ الطابق الثاني مفتوحة، وأقفلتها يد نحيلة بيضاء بخطاف. تحركت الستارة وكانت اليد لا تزال مستندة إلى الخطاف، وأحس نيجل إحساسًا جليًا بأن شخصًا كان يراقبه. وقف هناك ينظر إلى أعلى لبضع لحظات، لكنه لم يرَ أحدًا. كان مكتوبًا على اللافتة المعلقة على الباب: ف.م. أندرسن، القنصلية الدانماركية.

كان نيجل على وشك أن يغادر عندما ظهر وجه الآنسة فريدريكه الطويل الأرستقراطي من النافذة. ارتسمت نظرة استغراب على وجهها، التقت عيناها بعينيه وتوردت خجلًا، لكنها رفعت أكمامها إلى الأعلى متظاهرة بالازدراء، وانحنت بمرفقيها على عتبة النافذة. ظلت على هذه الحال لوقت طويل، وكأنّها جامدة في مكانها، أخيرًا شعر نيجل برغبة في متابعة المسير. ثم خطرت له فكرة غريبة. هل كانت السيدة الشابة تجثو عند النافذة؟ إذا كان الأمر كذلك لا بد من أن يكون السقف في منزل القنصلية منخفضًا: لا يمكن أن تكون النافذة أعلى من ستة أقدام إلا لمامًا وهذا يعني أنها كانت تحت الإفريز بمسافة قدم واحدة. كان عليه أن يضحك من نفسه على الانغماس في شطحات الخيال هذه. أي شيطان يجعله يهتم لشكل منزل القنصل أندرسن؟

وظل يمشي. كان أُجَراء المخازن، والجمركيون، والصيادون يركضون مسرعين ويصطدم أحدهم بالآخر. أصدرت رافعة المراسي صريرًا، أطلقت باخرتان صفّارتَيْ إنذار وأقلعتا في آن معًا تقريبًا. ضربت الشمس المياه وحولتها إلى صفحة براقة من الذهب وأبحرت السفن والمراكب الصغيرة فيها.

صدح صوت أرغن يدوي كئيب من سفينة كبيرة بثلاث صواري في البعيد، وعندما صفرت باخرة وانخفضت رافعة المراسي للحظة، بدا اللحن الحزين مثل صوت فتاة متهدج وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

طرب الرجال على سطح السفينة ثلاثية الصواري وبدؤوا يرقصون رقصة البولكا على لحن أنغامها الكئيبة.

وقع بصر نيجل على طفلة صغيرة تحمل قطة بين ذراعيها، كانت القطة في وضع شاقولي، صابرة وثابتة، تكاد أرجلها تمس الأرض.

لاطف نيجل خد الطفلة وسألها: «هل هي قطتك؟»

«نعم. اثنان أربعة ستة سبعة».

«إذن أنتِ تعرفين كيف تعدين؟».

«نعم. سبعة ثمانية أحد عشر اثنان أربعة ستة سبعة».

تابع سيره. عندما دنا من بيت الكاهن رأى حمامة بيضاء-مسعورة من الشمس-تهبط مثل سهم فضي براق يئز نحو الأسفل بشكل مائل وتختفي خلف قمم الأشجار. ثم سمع صوت طلقة مكتوم، وسرعان ما صعدت سحابة من دخان أزرق من الغابة على الجانب الآخر من الزقاق البحري.

عندما وصل إلى الرصيف الأخير في أرصفة الميناء التي كانت خالية، تمشى جيئة وذهابًا لبعض الوقت، ثم صعد التلة، ودون تفكير توجه نحو الغابة.

مشى لمدة نصف ساعة أو ما يقارب، متوغلًا في الغابة أعمق وأعمق، وأخيرًا توقف عند درب ضيق. لم يكن هناك صوت، ولم يكن يسمع حتى صوت طائر، وما من غيمة في السماء. سار على الدرب بضع خطوات، وجد بقعة جافة، واستلقى على ظهره. إلى اليمين كان بيت الكاهن، إلى اليسار البلدة، وإلى الأعلى بحر لانهائي من سماء زرقاء.

كيف يمكن أن يكون الإحساس عندما تعوم عاليًا هناك بين الكواكب، وأنت تشعر بأطراف المذنّبات تمس جبهتك؟ أية بقعة بالغة الصغر هي الأرض، وكم هم تافهون سكانها-في النرويج مليونا ريفيّ مدعومون بالرهن العقاري وقروض المصارف. ما الغرض من العيش على أي حال؟ تكافح شاقًا طريقك قدمًا بالدم والعرق مقابل عدة سنوات بائسة، فقط لتضحي غبارًا! دفن نيجل رأسه بيديه. قد يخرج أخيرًا من هذا كله-يضع له حدًا! هل يكون في يوم من الأيّام قادرًا

على إيقافه؟ نعم، وحق الله لن يتداعى! شعر بابتهاج لفكرة امتلاكه مخرجًا للهرب. ترقرقت دموع النشوة من عينيه، وأثقلت العاطفة الكثيفة أنفاسه.

كان الآن يتأرجح على بحار السماوات، يغني وهو يصيد بصنّارة فضية. كان مركبه مصنوعًا من خشب عطري والمجاديف تلمع مثل أجنحة بيضاء، أمّا الشراعُ، فمن حرير أزرق فاتح اللون، وقد كان في شكل هلال...

سرت فيه رعشة من البهجة الغامرة وأحسَّ بأن أشعة الشمس السحرية تغمره وتحمله بعيدًا. ملأته السكينة بهناء مُسكر وكان خاليًا من الهم، لم يُسمع سوى صوت همهمة خافتة من علٍ -دندنة الآلة الكونية - فيما يدير الله طاحونته.

لم تتحرك ورقة من أوراق الشجر، ولم تسقط إبرة صنوبر. ضم نيجل ركبتيه في انشراح خالص، شعر بالبهجة لأن الحياة كانت طيبة. أومأت إليه واستجاب بدوره. رفع نفسه على مرفقه ونظر من حوله. لم يكن يرى أحدًا على مد البصر. قال نعم للحياة مرة أخرى وأصغى، لكن لم يأت أحد. قال نعم مجددًا، لكن لم يلق جوابًا.

أيها الغريب، سمع شخصًا يناديه بوضوح.

لكنه طرد الفكرة، ربما تخيل الأمر برمته. لكن أيًا ما كان يجري، لم يعكّر مزاجه المبتهج. كان في حالة ذهنية غريبة ومبتهجة، اهتز كل عصب من أعصابه، ماجت موسيقى في دمه، كان جزءًا من الطبيعة، من الشمس، من الجبال، كان عالمًا بكل شيء، تتحدث الأشجار، والأرض، والمستنقع، إليه وحده. تصاعدت روحه مثل أرغن وقد انتزعت جميع العوائق. لن ينسى أبدًا كيف بدت الموسيقى السماوية تخفق في دمه.

استلقى هناك لفترة طويلة نسبيًا مستمتعًا بكونه وحيدًا تمامًا. ثم سمع صوت خطوات على الدرب، كانت خطوات حقيقية، لم يكن هناك شك في ذلك. رفع رأسه ورأى رجلًا قادمًا من ناحية البلدة. كان يتأبط رغيف خبز طويل تحت ذراعه ويجرّ بقرة خلفه بحبل. كان يومًا دافئًا. كان يرتدي قميصًا فقط وظل العرق يتقطر من وجهه. وعلى الرغم من الحرارة، فقد ارتدى وشاحًا صوفيًا ولفه مرتين حول عنقه.

استلقى نيجل بهدوء يراقب الفلاح. هذا هو الشخص الريفي النرويجي برغيف خبز تحت ذراعه ويقود بقرة بحبل! يا للمشهد الذي صنعه!

ليساعدك الله، أيها الفايكينج النرويجي الجريء! أنزل بنطالك ودع القمل يخرج! لكن ذلك قد يقتلك، الهواء النقي قد يقتلك. والصحف ستنعي موتك المبكر وتجعل منه أمرًا هامًا. ولمنع تكرار حدوث مثل تلك المأساة، سيقدم النائب الليبرالي فيتيل فيتلسن وثيقة في البرلمان تتناول حماية هوامنا الوطنية.

قدم عقل نيجل الهجوم اللاذع تلو الآخر.

نهض غاضبًا ومكتئبًا، توجه عائدًا إلى الفندق. كان محقًا في النهاية، لم يكن هناك سوى القمل، جبنة الفلاح، وكتاب لوثر للتعليم الديني. وكان الناس مواطنين متوسطي الحجم يعيشون في منازل من ثلاث طبقات، يأكلون ويشربون ليبقوا على قيد الحياة، يملؤون أوقات فراغهم بالكحول والسياسة، يكسبون عيشهم من صابون الغسيل، وأمشاط الحديد، والسمك. وليلًا عندما تبرق وترعد يستلقون في أسرّتهم مرتجفين ويقرؤون يوهان أرنت[1]. أتمنى أن يجد لي أحد استثناءً واحدًا إذا كان هناك من استثناء! على سبيل المثال، أحب أن أرى

(1) يوهان أرنت (1555–1621) لاهوتي لوثري ألماني.

جريمة خُطّط لها بعناية، شيء يجعل المرء ينهض ويولي انتباهه! لكن ما من واحد من انتهاكاتكم السخيفة القليلة الشأن! كان ليكون معيبًا بشكل استثنائي وعملًا سافلًا مهولًا، مثالًا نفيسًا عن الرذيلة، مع كل ما للجحيم من عظمة شديدة. كان كله حديثًا فارغًا، عديم النفع. وما رأيك في الانتخابات سيدي؟ يثير بوسكيرود قشعريرتي حتى العظام..

لكن عندما عاد إلى أرصفة الميناء ورأى الحركة النشطة في كل مكان من حوله، أشرقت معنوياته تدريجيًا وبدأ مجددًا بالغناء بينه وبين نفسه. كان الطقس متألقًا، في هذا اليوم الحزيراني الجميل، ولا سبب يدعو إلى الإحساس باليأس. وبدت البلدة الصغيرة وهي تتألق في أشعّة الشمس مثل مدينة ساحرة.

عندما دخل الفندق كان قد غادره مزاجه المرير الهازئ. وقلبه كان خاليًا من الضغينة، ورأى في خياله مجددًا مركب الغابة العَطِر وشراعًا من حرير أزرق فاتح على شكل هلال.

امتدت هذه الحالة من النشوة لبقية اليوم.

مع اقتراب المساء خرج ثانية. سلك الطريق المؤدي إلى البحر، ووجد نفسه ثانية مفتونًا بألف تساؤل صغير. كانت الشمس تغرب. تلاشى وهجها المزعج ليصبح ضوءًا ناعمًا متوزعًا انتشر على المياه. حتى ضجيج السفن كان كتيمًا.

لاحظ نيجل أعلامًا ترفرف هنا وهناك في أرجاء الزقاق البحري، عدة منازل في البلدة أيضًا كانت ترفع الأعلام وتدريجيًا توقفت الأعمال عند أرصفة الميناء.

لم يُلقِ أية أهمية خاصة على هذا، لكنه طاف مجددًا نحو الغابة، توغل حتى المباني الملحقة ببيت الكاهن ونظر حول الأراضي. ثم عاد إلى الغابة باحثًا عن أكثر الأمكنة إظلامًا. استطاع أن يجده وجلس

على صخرة. أسند رأسه بيد، وربّت على ركبته بالأخرى. ظل على هذه الحال لوقت طويل، ربما ساعة، وعندما نهض أخيرًا ليغادر، كانت الشمس قد غرقت في الأفق، والغسق يهبط على البلدة شيئًا فشيئًا.

تفاجأ لدى خروجه من الغابة برؤية بضعة مشاعل في محيط التلال. ربما كان هناك عشرون مشعلًا، تلتهب مثل شموس مصغرة. كان الزقاق البحري مليئًا بالمراكب، والناس داخلها يضيئون شررًا توهّج باللونين الأحمر والأخضر.

كانوا يطلقون ألعابًا نارية من أحَد المراكب حيث كان أربعة أفراد يغنّون معا. بدا أن الجميع خارج البيوت، كان الرصيف الممتد في البحر يغص بالناس الذين يتجولون ويجلسون هنا وهناك.

بهتاف الاستغراب التفت نيجل إلى رجل واقف بالقرب منه وسأل عن سبب الأعلام والمشاعل. رمقه الرجل بنظرة مشاكسة ثم نظر إليه مجددًا قبل أن يجيب: إنّه الثالث والعشرون من حزيران، عيد منتصف الصيف!

إذن كانت عشية منتصف الصيف! هذه هي بالتأكيد!

تتالت المفاجآت السارة اليوم، وهذه واحدة أخرى الآن، ضمن الصفقة! سعيدًا كطفل انضم نيجل إلى الحشد على الرصيف الممتد في البحر مبتهجًا بحظه الطيب.

في البعيد لمح مظلة داجني كيلاند الحمراء القانية اللون وسط جمع من الناس. عندما لحظ أن الطبيب ستينرسن كان بينهم تقدم نحوه دون تردد. انحنى مصافحًا الطبيب وظل واقفًا، وقبعته في يده، لفترة لا بأس بها. قدمه الطبيب للجمع. صافحته السيدة ستينرسن أيضًا وجلس بجانبها. كان لون بشرتها شاحبًا ضاربًا إلى الرمادي ما منحها مظهرًا عليلًا، على الرغم من أنها كانت في ريعان شبابها،

وتكاد لا تتجاوز العشرين. كانت ترتدي ثيابًا تبعث الدفء.

أعاد نيجل قبعته و قدم نفسه للجمع: «أتمنى أن تعذروا اقتحامي بهذه الطريقة، من دون دعوة..».

«لا على الإطلاق، من دواعي سرورنا أن نراك،» قاطعته السيدة ستينرسن بدماثة. «ربما ستغني شيئًا لنا؟».

«لا، أخشى أنني لا أستطيع،» أجاب. «لا يمكن أن أزيد في إزعاجكم.».

«أنا مسرور لمجيئك،» تدخل الطبيب. «كنا نتحدث عنك للتو. أنت تعزف على الكمان، أليس كذلك؟».

«نعم، أنا لا أعزف،» قال نيجل مجددًا مبتسمًا وهازًا رأسه. ثم فجأة قفز مندفعًا على قدميه وقال بعيون تبرق: «أنا سعيد جدًا اليوم. كان يومًا رائعًا من لحظة استيقاظي هذا الصباح. لعشر ساعات كنت أتنزه في غيبوبة متقنة للغاية. أشعر كما لو أني كنت في مركب من خشب مُعطّر وشراعه من حرير أزرق فاتح اللون على شكل هلال. أليس هذا حلم يقظة جميل؟ ربما لا يمكنني أن أصف رائحة المركب مهما حاولت. لدي شعور بأني خارج للصيد-الصيد بصنّارة من الفضة. لكن سيداتي ألا تتصوّرنه كذلك...؟ حسنًا، لا أعرف».

لم تجب أي من السيدات بل نظرت كلّ واحدة منهنّ إلى الأخرى بارتباك، بدا أنهن يتشاورن بصمت فيما يفعلن. ثم شرعن يضحكن الواحدة تلو الأخرى. لم يبدين رأفة، حتى أنهن ضحكن بصوت مرتفع. نقل نيجل نظره بينهن. كانت عيناه لا تزالان تبرقان، وكان من الواضح أنه لا يزال يرى في خياله المركب بشراعه الأزرق. لكن يداه ارتجفتا على الرغم من تعبيره الساكن.

أسعف الطبيب الموقف قائلًا: «هذا نوع من هذيان..».

«لا، ليس كذلك،» أجاب نيجل. «حسنًا، إذا كان هذا ما تريد، لمَ

لا؟ لا يهمّ ما تسميه. كنت أعيش في عالم ساحر طوال اليوم، سواء كان هذيانًا أم لم يكن. كل شيء بدأ هذا الصباح قبل أن أنهض من السرير. سمعت ذبابة تئز، هذا كان أول صوت سمعته عند يقظتي. ثانيًا، رأيت الشمس تتسرب عبر فتحة في الستارة، وفجأة شعرت بسعادة استثنائية. كان الصيف في روحي. والريح تمشّط العشب بلطف، وفي كياني كله. هذيان-ربما، لا أعرف. لكن ما أعرفه أن عقلي كان في انسجام حتى مع أزيز الذبابة، ولكي يكتمل، كان هناك شعاع الشمس ذاك الذي احتجته في تلك اللحظة، يتسرب من خلال فرجة في الستارة.

«عندما نهضت وخرجت، أول ما رأيت كان سيدة جميلة خلف النافذة» نظر إلى الآنسة أندرسن التي غضت بصرها. «ثم رأيت عددًا كبيرًا من المراكب وفتاة صغيرة تحمل قطة بين ذراعيها-كان الانطباع يتراكب على الآخر، لكن كل واحد كان له تأثيره الخاصّ فيّ. ثم ذهبت إلى الغابة وهناك رأيت مشهد المركب والشراع الهلالي الشكل. لقد ظهر لي مُجدّدًا، وأنا مستلق على ظهري، أنظر إلى السماء».

لم تكن السيّدات قد انتهين من الضحك بعد، وبدا الطبيب على وشك أن ينفجر. «إذن كنت تصيد بصنارة فضية؟» قال مبتسمًا.

«نعم بصنارة فضية».

«ها ها ها!»

حينها احمرت داجني كيلاند وقالت: «يمكنني أن أتخيل جيدًا حلم يقظة مثل ذلك. يمكنني أن أرى المركب بوضوح، بشراعه الهلاليّ الأزرق، ومن ثم الصنّارة الفضية تلتمع في المياه. أظن أنه جميل».

لم تستطع المتابعة، لكنها وقفت هناك تتلعثم، وعيناها مثبتتان على الأرض.

هب نيجل لنجدتها في الحال: «نعم أليس كذلك؟ وقلت لنفسي: انتبه، إنه حلم أبيض، تحذير، تذكير بالصيد بصنارات نظيفة- صنارات نظيفة! كنت تسأل أيها الطبيب، إذا ما عزفت على الكمان. لا، لم أفعل. أنا أحمل معي حقيبة كمان، لكن لا يوجد فيها آلة كمان. فقط الكثير من الملابس المتربة للأسف. لكني فكرت أنه سيبدو جيدًا أن أحمل حقيبة كمان كجزء من متاع سفري، لهذا هي بحوزتي. ربما لهذا السبب لم تعجب بي شديد الإعجاب، لكن لا يمكن فعل شيء إزاء ذلك، ولو أني أشعر بالأسف. كل ذلك بسبب صنارة فضية، كما ترى».

كانت السيدات مأخوذات للغاية فتوقفن عن الضحك. حتى الطبيب، رينيرت نائب القاضي، وهولتان مدير المدرسة جلسوا هناك فاغرين أفواههم في ذهول. كانوا جميعًا يحدّقون إلى نيجل. وبدا الارتباك جليًا على الطبيب. بحق الأرض ما مشكلة هذا الدخيل الذي يتصرف بغرابة؟ جلس نيجل بهدوء ولم يبد أن لديه ما يضيفه. وتبع ذلك صمت مُمضّ لا نهائي. لكن حينها أنقذت السيدة ستينرسن الموقف. كانت ساحرة، ومثل أم حاولت تسوية الأمور وجعلهم جميعًا يشعرون بالارتياح. بدا كما لو أنها كانت تتجهم عمدًا لتمنح نفسها مظهر عمر أكبر من عمرها الحقيقي وبالتالي تمنح سلطة أكبر لكلماتها.

-أتيت من الخارج سيد نيجل؟

×نعم سيدتي.

-من هلسنكي، أظن أن زوجي قال؟

×نعم، هذه هي، هلسنكي كانت آخر مكان عشت فيه. أنا مهندس زراعي ودرست هناك لمدة.

توقف قصير

–وكيف وجدت البلدة؟

× تقصدين هلسنكي؟

–لا بلدتنا.

«أوه، إنها مبهجة وساحرة! لا أرغب في المغادرة أبدًا، صدقًا. لكن لا تهلعي. ربما يومًا ما سأفعل، على الرغم من أنّ ذلك كلّه يعتمد على الظروف. بالمناسبة،» قال، وهو ينهض مجددًا «إذا دخلت عنوة، سامحوني رجاء. لكن الجلوس هنا معكم قد يمنحني سرورًا كبيرًا. أنا غريب ولا أعرف كثيرًا من الناس. لذا اعتدت التحدث إلى نفسي في معظم الأحيان. ستسدون لي صنيعًا بتجاهل حضوري واستئناف محادثتكم من حيث توقفتم لدى قدومي».

«لكنك بالتأكيد حرّفت المحادثة عن مجراها» قال رينيرت بغضب مبطن واضح.

أجاب نيجل: «أنا أدين لك باعتذار سيدي، وأنا مستعد لإعطائك كل ما تطلب لإرضائك، لكن ليس الآن–هل تريده الآن؟».

«لا، ليس هذا الوقت مناسبًا» قال رينيرت.

«أضف إلى ذلك فأنا أشعر بالسعادة اليوم،» تابع نيجل بابتسامة أضاءت وجهه، فكان يحيط به للحظة شعاع طفولي. «إنه مساء بهي، وقريبًا ستظهر النجوم. هناك ألعاب نارية على التلال، والناس يغنون عند الزقاق البحري. اسمعوا! أليس جميلًا؟ لا أعرف شيئًا عن الموسيقى، لكنها تبدو جميلة لي. إنها تذكرني بليلة متوسطية، على ساحل تونس. كان هناك حوالي مئة سائح على متن السفينة–مجموعة منشدين من سردينيا. وطالما لم أستطع الانضمام، جلست وأصغيت إلى أصواتهم القادمة من الحانة في الأسفل. غنوا شطرًا طويلًا من

الليل. لن أنسى أبدًا أصواتهم وهي تعوم على هواء الليل اللافح. أغلقت بهدوء الأبواب المؤدية إلى الحانة وذلك جعل الأصوات تبدو كما لو أنها قادمة من قاع البحر، كما لو أن السفينة كانت تبحر في أبدية نحو ألحان من الموسيقى الأثيرية. جربوا أن تتخيلوا بحرًا مليئًا بأغنية-جوقة جوفية!».

هتفت الآنسة أندرسن التي كانت جالسة قرب نيجل:

«يا إلهي، لا بد من أنه كان جميلًا!».

«فقط مرة سمعت شيئًا يبزه جمالًا وكان ذلك في الحلم. كنت طفلًا، منذ زمن طويل. الكبار لا يحلمون أحلامًا جميلة شبيهة».

«لا تظن ذلك؟» سألت الآنسة أندرسن.

«قطعًا لا-حسنًا، ربما تلك مبالغة، لكن... لا أزال أتذكر آخر حلم بشكل جلي. رأيت مستنقعًا، لكن سامحوني هنا أواصل الكلام وأنا مزعج، أنا لا أتحدث عادة بهذا القدر».

حينها تدخلت داجني كيلاند: «أنا واثقة من أننا نفضل الاستماع إليك بدلًا من أن نتحدث.» وانحنت نحو السيدة ستينرسن هامسة: «ألا يمكنك أن تحثيه؟ رجاء حاولي! فقط استمعي إلى ذلك الصوت!».

ابتسم نيجل. «لا أرفض التحدث. أنا الليلة في مزاج جيد، يعلم الله ما الذي حلَّ بي. حسنًا، لم يكن الحلم الذي ذكرته مهمًا. كما كنت أقول، رأيت مستنقعًا، دون أشجار، بل عددًا ضخمًا من الجذور انتشرت في كل اتجاه مثل كتلة من أفاع ملتوية.

ثم رأيت مجنونًا يمشي بين كل تلك الجذور الملتوية. لا يزال بوسعي أن أراه، كان شاحبًا وله لحية داكنة، لكنها كانت مهلهلة جدًا، حتى أن بشرته ظهرت من خلالها. كانت عيناه ممتلئتين بالمعاناة وهو يتلفّت حوله شاردًا. كنت أختبئ خلف صخرة وناديته. التفت باتجاهي

ولم يكن متفاجئًا على الإطلاق لدويّ صوتي. بدا أنه يعرف مكاني، على الرغم من أني لم أكن مرئيًا. وظلّ يحدّق في الصخرة. فكرت في أنه لن يجدني، وإن فعل حينها يمكنني أن أنطلق مسرعًا. وعلى الرغم من أنّه أزعجني بوقوفه هناك محدقًا، فقد صرخت مجددًا أنوي إثارته وحسب. خطا خطوتين نحوي، كان فمه فاغرًا كأنه على وشك أن يعض، لكنه لم يتمكن من اجتياز متاهة الجذور. صرخت ثانية عدة مرات لأغضبه حقًا، وبدأ يشد الجذامير كي يشق له دربًا. سلخها ملء الذراع ورماها جانبًا مكافحًا للوصول إليّ، لكنه لم يفلح. بدأ يتأوه أيضًا، وكانت عيناه منتفختين من شدة الألم والإجهاد. عندما أدركت أن الوضع آمن نهضت وكشفت له نفسي بالكامل ولوحت بقبعتي، وقدته إلى نوبة من السعار أخبط بقدمي وأصرخ مكررًا قول كلمة مرحبًا.

واقتربت منه أكثر كي أزيد من تعكير صفوه، وجّهت إصبعي نحوه صارخًا «مرحبًا» بالقرب من أذنه لأستثيره أكثر. ثم زحفت خلف صخرتي لأهزأ به وأريه إلى أي حد كنت قريبًا منه.

لكنه لم يستسلم، كان لا يزال يكافح مع الجذور، بعناد ووحشية لينتزعها من طريقه حتّى أدمي، كان وجهه مخدوشًا بالكامل، لكنه نهض على أطراف أصابعه وصرخ بي. كان وجهه مشوهًا ويتبخر بالعرق والغضب لأنه لم يستطع الوصول إليّ. أردت أن أحثه أكثر، لذلك اقتربت منه أكثر، ورفعت أصابعي وسخرت منه. رميته بجذر، أصابه في فمه تمامًا. كادت الضربة توقعه أرضًا لكنه بصق دمًا ووضع يده على فمه، وواصل الكفاح مع الجذامير. ثم قررت أن أتجاسر على لمسه، أردت أن ألكز جبهته بأصبعي ثم أنسحب. لكنّه اختطفني في تلك اللحظة.

يا الله، هل أنا مذعور! ترنح متقدمًا وأمسك بيدي. صرخت لكن كان كل ما فعله أنّه أمسك بيدي وتبعني. سلكنا طريقنا خارج المستنقع. لم يبد أن الجذامير تزعجه، بعد أن أمسك بيدي، وبلغنا الصخرة حيث كنت أختبئ. رمى نفسه أرضًا وقبَّل الأرض التي كنت أمشي عليها. ركع لي هناك مضرجًا بالدماء ومصابًا بالرضوض، وشكرني لأني كنت طيبًا معه. باركني أيضًا وصلى لله أن يباركني إزاء ما فعلته من أجله، كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما تتضرعان إلى الله على نيتي. لم يُقبّل يدي أو حتى حذائي بل الأرض التي داسها حذائي. «لمَ تُقبّل الأرض التي مشيت عليها؟» سألت.

«لأن فمي ينزف ولا أرغب في أن أنجّس حذاءك» قال.

«لكن لمَ تشكرني وقد آذيتك وجعلتك تتعذب؟» أصريت.

«أشكرك،» قال «لأنك لم تتسبب لي بمزيد من المعاناة، لأنك كنت لطيفًا بما يكفي حتى تكف عن تعذيبي أكثر».

«نعم، لكن لمَ صرخت، وفتحت فمك كما لو أنّك تريد أن تعضني؟»

«لم أكن لأعضك» قال. «فتحت فمي لأطلب مساعدتك، لكن الكلمات لم تخرج وأنت لم تفهم. ثم صرخت عاجزًا».

«هل هذا ما دعاك للصراخ؟» سألت.

«نعم هذا هو السبب.».

نظرت إلى المجنون، الذي كان لا يزال يبصق دمًا ويدعو الله من أجلي. فجأة أدركت أني رأيته من قبل وأني أعرفه-رجل متوسط العمر شعره رمادي ولحيته مهلهلة: كان القزم».

توقف نيجل. كان المستمعون مندهشين. أخفض رينيرت عينيه وحدّق في الأرض.

«هل كان حقًا القزم؟» سألت السيدة ستينرسن.

«نعم».

«أوف، مخيف!»

«عرفت ذلك!» انفجرت داجني كيلاند.» عرفت من اللحظة التي قلت فيها إنّه ركع وقبّل الأرض. عرفت في الحال أنه هو. هل صدف أن تحدثت إليه؟»

«لا، لقد التقيته فقط عدة مرات. لكني أخشى أني أفسدت أمسيتكم. سيدة ستينرسن أنت شاحبة تمامًا. لقد كان مجرد حلم، كما تعلمين.»

«هذا سخيف،» شارك الطبيب. «أي شيطان يجعلنا نهتم إذا ما كان القزم.. ليُقبّل جذمور كل شجرة في النرويج إذا رغب في ذلك. انظر، ها هي الآنسة أندرسن تبكي!»

«أنا لا أبكي،» أجابت. «لمَ عليَّ أن أبكي؟ لكني أعترف بأن هذ الحلم أثّر فيّ وأظن أنك كنت متأثرًا به أيضًا.»

«أنا؟» صرخ الطبيب. «بتاتًا. أظن أنكم جميعًا جننتم. لنتنزه. تحركوا، جميعكم! الجو آخذ بالبرودة. هل تشعرين بالبرد جيتا؟»

«لا، لنبق هنا،» قالت زوجته.

لكن الطبيب كان مصرًا على التمشي، في واقع الأمر، كان مصرًا تمامًا على ذلك. كان الجو آخذ بالبرودة، قال مجددًا، وأراد أن يمشي حتى لو ذهب بمفرده. نهض نيجل وانضم إليه.

تجولا جيئة وذهابًا على رصيف الميناء، يشقان طريقهما بين الحشود، يثرثران ويلقيان بالتحية على الناس. نادتهما السيدة ستينرسن بعد نصف ساعة تقريبًا: «عودا مباشرة! احزرا ما قررنا أثناء غيابكما؟ سنقيم حفلة كبيرة في منزلنا ليلة الغد. لا بد من أن

تأتي سيد نيجل! لكن عليَّ أن أحذّرك ففي حفلاتنا هناك القليل فقط من الطعام والشراب.»

«والحدّ الأقصى من النميمة،» قال الطبيب ضاحكًا. «لكنها ليست فكرة سيئة على الإطلاق، فقد كانت لديك أفكارٌ أسوأ، جيتا.» استعاد الطبيب خفة ظله وضحك بابتهاج في انتظار الحفلة. «لا تتأخر،» قال. «أتمنى ألا أتلقى أية اتصالات».

«لكن هل يمكن أن آتي بهذه الثياب.» سأل نيجل. «ليس لدي أي شيء آخر».

ضحكوا جميعًا وأجابت السيدة ستينرسن: «بالتأكيد إنها ليست حفلة رسمية على الإطلاق».

في طريقه إلى البيت وجد نيجل نفسه يمشي بقرب داجني كيلاند. لم يقصد ذلك، بل حدث هذا بمحض الصدفة، لكنها لم تبذل جهدًا لتجاوزه. قالت كم كانت تتطلع إلى ليلة الغد، كان كل شيء في منزل عائلة ستينرسن ممتعًا جدًا دومًا ومريحًا، فهما مضيفان مبهجان يعرفان كيف يبعثان في ضيوفهم الشعور بالراحة. قاطعها نيجل فجأة بصوت منخفض: «أرجو أن تكوني قد غفرت لي حماقتي في الغابة ذلك اليوم؟»

كانت كلماته مجهدة جدًا وهو ينطق بها همسًا تقريبًا، فكانت متأثرة.

«نعم أظن أني أفهم تصرفك تلك الأمسية. أنت مختلف عمّن سواك».

«شكرًا لك،» تمتم. «أنا ممتن لك أكثر من امتناني لأي شخص في حياتي. لكن لمَ لست كالآخرين؟ أريد أن أعرف لأني كل مساء أبذل جهدًا لأغير أول انطباع لا بد من أنني قد تركته فيك. كل كلمة قلتها

كانت من أجلك. هل تدركين ذلك؟ أعرف بأني أسأت إليك للغاية، وكان عليَّ أن أكفّر عن ذلك. في الواقع كنت في مزاج غريب طوال اليوم، لكني جعلت نفسي أظهر أسوأ بكثير مما أنا عليه في الحقيقة، وكنت ألعب لعبة مارقة معظم الوقت. ترين، كان عليَّ أن أجعلك تفكرين في أنه لا يمكن التنبؤ بي، وفي أنني عادة أقوم بأفعال شائنة، لعلّك تفهمين وتسامحينني بسهولة أكبر. وهذا هو السبب في أني اضطررت إلى أن أحلم بك في أكثر الأوقات والأمكنة إحراجًا، وأني عرضت نفسي لما هو أكثر من ذلك بذكر حقيبة الكمان طوعًا-لم يكن علي القيام بذلك.»

«اعذرني،» انفجرت بعجلة، «لكن لماذا تخبرني بكل هذا وتفسد كلّ شيء مجددًا؟»

«أنا لا أفسد شيئًا. عندما أخبرك بأني عندما لحقت بك في الغابة انصعت لدافع حقود آني، ستفهمين. كان لدي توق مفاجئ لإخافتك لأنك ركضت بعيدًا. لكني لم أكن أعرفك حينها. الآن إذا أخبرتك بأني لست مختلفًا عن الآخرين ستفهمين ذلك أيضًا. الليلة جعلت من نفسي أضحوكة وصدمت الجميع بسلوكي الغريب رغبة في وضعك في مزاج أكثر لطفًا على الأقل فتصغين إليَّ عندما أحاول الشرح. نجحت، استمعت إليَّ وقد فهمتِ».

«لا، أنا آسفة، لم أفهم كليًا-لكن دعنا من ذلك. أنا بالتأكيد لن أضيع وقتي قلقًا على ذلك..».

«بالتأكيد لا، لمَ عليك أن تمعني التفكير فيه؟ لكن هل أنا مصيب في استنتاج أن فكرة الحفلة ليلة الغد جاءت لأنكم جميعًا فكرتم بأني غريب وقد أفيد في تسليتكم بعض الشيء؟ لكن ربما سأخيب ظنكم. ربما سأقول فقط «هِمْ» و«نعم،» وربما لن آتي أبدًا، من يعلم؟»

«لكن عليك أن تأتي!»

«فعلاً؟» قال ممعناً النظر إليها.

لم تجب وواصلا السير.

عندما وصلا إلى الطريق المؤدي إلى بيت الكاهن توقفت الآنسة كيلاند. انفجرت بالضحك وهزت رأسها متعجبة: «لم ألتقِ بأي شخص يشبهك!» توقفت وانتظرت لحاق بقية المجموعة بهما. جمع ما يكفي من الشجاعة ليسأل إذا كان بإمكانه أن يوصلها إلى البيت، لكن في تلك اللحظة التفتت ونادت مدير المدرسة: «هيا، سيد هولتان، أنت تجر نفسك في المؤخرة!».

ولوحت له بلهفة كي يسرع.

الفصل السابع

وصل نيجل في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي إلى منزل عائلة ستينرسن. ظن للحظة أنه جاء في وقت مبكر جدًا، لكن فريق الأمسية السابقة كانوا هناك حين وصوله. كان يوجد أيضًا شخصان آخران لا يعرفهما-محام وطالب شاب أشقر. كانا يجلسان حول طاولتين ويشربان البراندي والصودا. فيما كانت السيدات يجلسن إلى طاولة ثالثة، ورينيرت، والطالب منخرطين في محادثة. كان هولتان مدير المدرسة-الذي نادرًا ما كان يتكلم-ثملًا تمامًا حينها. كان وجهه متوردًا وينتقل من موضوع إلى آخر بصوت مرتفع هائج. خذ صربيا، حيث ثمانون بالمئة من السكان أميون. هل ظنوا أن هؤلاء الناس أثرياء؟ هذا ما يود معرفته. ونظر هولتان من حوله بعدائية على الرغم من أن أحدًا لم يخالفه في الرأي.

نادت المضيِّفة نيجل وطلبت إليه الانضمام إليها ليجلس إلى طاولة السيدات. ماذا يحب أن يشرب؟ كانوا يتحدثون للتو عن كريستيانيا. أية فكرة غريبة دعت نيجل إلى المجيء والاستقرار في بلدة صغيرة في حين كانت لديه حرية الاختيار في جعل كريستيانيا [1] مكان إقامته!

لكن نيجل لم يجد في هذا غرابة على الإطلاق! لقد أتى إلى الريف لقضاء عطلة، عدا عن أنه لن يعيش في كريستيانيا مهما كانت الظروف -فهي لن تكون إلا آخر الأماكن التي قد يختارها.

(1) الاسم القديم للعاصمة النرويجية أوسلو.

حقًا؟ لكنها العاصمة في نهاية الأمر. فيها يجتمع رجال البلاد العظماء ومشاهيرها وقد كانت مركزًا للفنون، والمسرح، وكل شيء.

نعم، وهي أيضًا مكان اجتماع جميع الغرباء، أضافت الآنسة أندرسن: الممثلين، المغنين، الموسيقيين، وشتى صنوف الناس من عالم الفنون.

أصغت داجني كيلاند لكن لم تقل شيئًا.

اعترف نيجل بحقيقة ذلك دون شك. لم يعرف السبب، لكن كل مرة كان يشار فيها إلى كريستيانيا، كان يخطر في باله القسم القديم من البلدة ورائحة الملابس النتنة. هذا ما كان يشعر به رغمًا عنه. بالنسبة إليه كانت بلدة صغيرة خانقة بأوهام الفخامة، بكنيستين، وصحيفتين، وفندق، ومضخّة للمياه، وأكثر الناس عجرفة في العالم. لم يسبق له أن رأى أناسًا أكثر تصنعًا كما رأى في ذلك المكان، وكم تمنى أن يرحل بعيدًا عندما كان يعيش هناك!

لم يستطع رينيرت أن يفهم تمام الفهم كيف يمكن لأي شخص أن يكنَّ هذا القدر الكبير من النفور ليس لشخص بعينه، لكن لبلدة برمتها، عاصمة البلاد. لم تعد كريستيانيا في الحقيقة بلدة صغيرة أبدًا، كانت تأخذ مكانها بين المدن الهامة في العالم. والمقهى الكبير لم يكن شيئًا يستهزأ به!

لم يعلق نيجل في الحال، لكن بعد برهة تجهم وقدم نفسه للجميع، وقال: «المقهى الكبير هو مقهى استثنائي جدًا».

«لا يبدو عليك أنك تعني ما تقول».

«أوه! نعم. كان الكبير مكانًا يجتمع فيه الناس من شتى المشارب. هناك جلس أعظم رسامي العالم، وأكثر الشبان الواعدين في العالم، وأكثر السيدات أناقة في العالم، وأكثر المحررين براعة في العالم، وأعظم كتاب العالم. هناك جلسوا يتملق أحدهم الآخر-كلٌّ ينعم

بتقدير الآخر. لقد رأيت نكرات يجلسون هناك مبتهجين لأن نكرات آخرين يعترفون بهم».

صدم كلامه الجميع. انحنى رينيرت على كرسي الآنسة كيلاند وقال بهمس مسموع: «لم يسبق أن سمعت أبدًا مثل هذا الهراء الطنان».

لمحت نيجل سريعًا. لا بد من أنه سمع ما قاله رينيرت، لكن لا يبدو عليه الانزعاج. بل على العكس. كان يشرب مع الطالب أوين ويبدو غير مكترث البتة، بدأ يتحدث عن شيء آخر. في الواقع، سيماء تفوقه أزعجتها هي أيضًا. الله وحده يعلم ما عليه أن يظن بهم إذا شعر أن له الحق في أن يبدي وقاحته الشديدة! يا للغرور، يا للتكبر! عندما سألها رينيرت عن رأيها أجابت بصوت تعمدت أن يكون مرتفعًا: «رأيي بكريستيانيا؟ عجبًا، إنها جيدة بما يكفي بالنسبة إليَّ!».

حتى هذا لم يبدُ أنه يتسبب لنيجل بالضيق. نظر إليها بطريقة مربكة-لدى سماعه هذه الملاحظة-وكان واضحًا أنها موجهة إليه إلى حد ما، كأنه يحاول التفكير إلى أي حد قد أساء إليها. أمعن النظر فيها طويلًا وقد ارتسمت على وجهه ملامح الألم وانشغال البال. في هذا الوقت كان هولتان قد اشترك في النقاش واحتج ضد اعتبار كريستيانيا أصغر من – لنقل – بلغراد. لم تكن كريستيانيا أصغر من أية عاصمة متوسطة الحجم...

ضحك الجميع. بدا مدير المدرسة مضحكًا جدًا بخدوده المتوردة وروحه المشاكسة. انفجر هانسن المحامي البدين، والقصير، والأصلع بنظاراته المؤطرة بإطار ذهبي ضاحكًا وكان يلطم ركبتيه بشكل مستمر.

«متوسطة الحجم، متوسطة الحجم،» زعق. «كريستيانيا ليست أصغر من عواصم أخرى من نفس الحجم-من نفس الحجم بالضبط.

ليست أصغر بكثير. إنها عاصمة جيدة! ها هي لك!».

شرع نيجل في حديث آخر مع أوين. كان نيجل في شبابه يحب الموسيقى، لاسيما موسيقى فاغنر. لكن مع مرور السنوات فقد الاهتمام تدريجيًا. ولم يتعلم أبدًا أكثر من قراءة النوتة وعزف ألحان بسيطة.

«البيانو؟» قال أوين. تلك كانت آلته.

«لا، آلتي هي الكمان. لكن كما قلت، لم أتعلم الكثير وسرعان ما أهملتها».

لمح صدفة الآنسة أندرسن تثرثر مع رينيرت في ركن بجانب الموقد المصنوع من القرميد والزجاج طوال ربع الساعة الأخير. والتقت عيناهما بمحض الصدفة، لكن هذا جعلها تتلوى ارتباكًا في كرسيها حتى أنها بدت كأنما نسيت ما كانت تهم بقوله.

كانت داجني تربت بيدها على صحيفة مبسوطة بذهن شارد. لم تضع أي خاتم في أصابعها النحيلة البيضاء. استرق نيجل النظر إليها. كم كانت جميلة هذا المساء! بدت جديلتها الشقراء السميكة في هذا الضوء، قبالة الجدار المعتم، أجمل من المعتاد.

عندما جلست كان يحيط بها أثر لاستدارة اختفت عند وقوفها. مشت برشاقة متزلج، بحركة متموجة خفيفة.

نهض نيجل ومشى إليها. وفي الحال ركزت عينيها الزرقاوين الداكنتين عليه فهتف دون تفكير:

«يا إلهي، كم أنت جميلة!».

أصابها اندفاعه بدهشة تامة. حدّقت إليه بفم فاغر على اتساعه وتشوش تام ثم همست: «أنت لا تعرف ما تقول!»

ثم نهضت وذهبت إلى البيانو، وجلست تتصفح بعض الأوراق الموسيقية، بخدين ملتهبين.

فتح الطبيب الذي كان يتحرق للتحدث في السياسة الموضوع بالقول: «هل قرأتم صحف اليوم؟ لكن اللعنة، لا يمكنني إلا أن أشعر بأن صحيفة «مورجينبلاديت Morgenbladet[1]» تغالي قليلًا هذه الأيام. يبدو أنهم كفوا عن استهداف الطبقات المتعلمة، إنهم لا يذكرون شيئًا سوى النميمة والتشهير».

لكن طالما لم يُجب أيّ شخص، فإنّ الطبيب لم يبلغ مراده.

تدخل هانسن وقال متزلفًا: «هل يمكن أن نستنتج أن هناك أخطاء من كلا الجانبين؟».

«انتظر دقيقة الآن،» قال الطبيب قافزًا على قدميه. «أنت لا تقصد أن تخبرني..»

كان العشاء جاهزًا فانتقل الضيوف إلى غرفة الطعام في حين واصل الطبيب ستينرسن الكلام واستمرت المحادثة حول الطاولة. لم يشترك فيها نيجل الذي كان جالسًا بين مضيفته والآنسة أولسن ابنة قائد الشرطة. لدى مغادرتهم الطاولة، كانوا منخرطين بشدة في السياسة الأوربية.

تحدثوا عن قيصر روسيا[2]، كونستانس[3]، بارنيل[4]، وعندما وصلوا أخيرًا إلى مسألة البلقان، عاد مدير المدرسة الذي كان ثملًا في هذا الوقت مرة ثانية للحديث عن صربيا. أنهى للتو قراءة مجلة

---

(1) الصحيفة الصباحية وهي صحيفة نرويجية أسبوعية.

(2) وهو الكسندر الثالث والذي كان حكمه سيء السمعه بسبب سياساته الرجعية

(3) جين كونستانس: سياسي فرنسي.

(4) تشارلز ستيوارت بارنيل: (1846-1891) قائد سياسي قومي إيرلندي.

«الإحصائية الشهرية Statistical Monatsschrift»، كانت الأمور في حالة مريعة، التعليم في أدنى مستوياته، بدا..

«لكن هناك أمر واحد يجعلني في غاية السعادة،» قال الطبيب ستينرسن والدموع في عينيه.«لا يزال جلادستون حيًا. املؤوا كؤوسكم أيها السادة ولنشرب نخب جلادستون-الديمقراطي العظيم، رجل الحاضر والمستقبل».

«لنشترك جميعًا،» صرخت زوجته. وملأت كؤوس السيدات حتى طفحت من شدة انفعالها، واهتزّت يداها وهي تمرّر الصينية.

شربوا جميعًا.

«ها هو رجل حقيقي من أجلكم،» هتف الطبيب.

«رجل مسكين، كان مصابًا بالبرد في الأيام الأخيرة، لكن لنأمل أنه قد تعافى. جلادستون رجل الدولة الذي أشعر شخصيًا بأننا لا نحتمل خسارته إلا بالحد الأدنى. إنه يمثل لي منارة ترسل أشعة من نور حول العالم. تبدو بعيدًا جدًا سيد نيجل، ألا توافقني الرأي؟»

«آسف. بالتأكيد أنا على اتفاق تام معك. هناك الكثير من الأمور فيما يخص بسمارك تؤثر فيّ أيضًا-لكن جلادستون!»

ومع ذلك لن يعارض أحد الطبيب. اعتادوا جميعًا على استطراده في الحديث. لكن بعد فترة انقطعت المحادثة، واقترح الطبيب ستينرسن أن يلعبوا الورق ضمانًا لاستمرار الحفلة. من يرغب في اللعب؟

حينها نادت السيدة ستينرسن نيجل من طرف الغرفة الآخر:

«هل تعلم ما قاله لي السيد أوين للتو؟ قال إنك لم تقدر دومًا السيد جلادستون بالقدر الذي تظهره هذه الأمسية. سمعك السيد

أوين تتحدث مرة في اجتماع اتحادي وكنت تنتقد جلادستون بقسوة حقًا. أنت رائع! هل ستنكر ذلك؟ ها، حاول فقط!»

ابتسمت السيدة ستينرسن وهي تقول هذا وأشارت بابتهاج إلى نيجل بسبابتها مكررة تحديها.

كان نيجل مأخوذًا قليلًا وأصر على ضرورة وجود خطأ ما.

«أنا لا أقول إنك شتمته متقصدًا،» قال أوين. «لكنك كنت معارضًا عنيفًا له. أتذكر على سبيل المثال قولك إن جلادستون كان متعصبًا!».

«متعصبًا! جلادستون متعصب!» صرخ الطبيب.» لا بد من أنك كنت ثملًا!».

ضحك نيجل.

«بالتأكيد لم أكن ثملًا -حسنًا ربما كنت-لا أعرف. لكن يبدو كذلك».

«لقد حدث بالتأكيد،» قال الطبيب، هادئًا بعض الشيء.

كانت رغبة نيجل في إغلاق الموضوع جلية، لكن داجني كيلاند توسلت مضيفتها: «رجاء دعيه يروِي لنا ما عناه. لسوف يكون ممتعًا!»

«حسنًا، ما الذي عنيته حقيقة؟» سألت السيدة ستينرسن. «لا بد من أنك كنت تملك سببًا لمعارضته. أخبرنا! ستسدي خدمة إلينا، لأنكم-أنتم الرجال-إذا ما بدأتم بلعب الورق سنشعر بملل شديد».

«إذا كان ذلك يؤنسكن فهذا شأن آخر،» أجاب نيجل. هل كان يسخر من نفسه ومن الدور الذي كان يلعبه؟

في المقام الأول، هو لا يتذكر الحادثة التي كان أوين يلمح إليها. «هل سمع أحد منكم جلادستون يتحدث شخصيًا؟ ينتهي المرء إلى انطباع محدد: سلامة نيته وإحساسه القوي بالعدالة. كأن دوافعه لا

يمكن أن تكون موضع شك أبدًا. كيف يمكن لهذا الرجل أن يُتّهم بالشر وبمعصية الله؟ إنه مشبع بالطهارة فهو يعتبر نقاء جمهوره مسألة أكيدة أيضًا وأن مستمعيه بمثل نبله».

«لكن أليست هذه ميزة جديرة بالثناء؟ إنها بالتأكيد تثبت صدقه وحبه للإنسانية،» تدخل الطبيب. «لم أسمع من قبل مثل هذا الهراء!».

«هذا تمامًا ما أعنيه. أنا فقط بلغت بالأمر إلى حد التأكيد على الخصلة الحسنة في شخصيته. خطرت لي حادثة أود أن أرويها لكم. حسنًا، لا حاجة إلى الخوض في التفاصيل، سأذكر فقط اسم كاري[1]. لا أعرف فيما لو كنتم تتذكرون كيف استعمل جلادستون باعتباره رئيسًا للوزراء معلومات نقلها له كاري، الذي كان خائنًا؟ فيما بعد، ساعد كاري في الوصول إلى إفريقيا هربًا من نقمة الثوار الأيرلنديين. لكن تلك قصة أخرى.

«لا أعتبرها مسألة عظيمة الشأن. إنها مؤامرة تافهة قد يرغم عليها وزير بين الحين والآخر».

«لكن لنعد إلى حديثنا. عندما يتحدث جلادستون، لا يعرض سوى الأفكار الأكثر نبلًا. إذا ما رأيتم أو سمعتم جلادستون يتحدث سأحتاج فقط إلى تذكيركم بالتعبير الذي يرتسم على وجهه أثناء حديثه. إنه مقتنع للغاية باستقامته حتى أنه يلحظ كل إيماءة من إيماءاته، ألوان صورته الكلية-تشع في عينيه ويتردد صداها في صوته. يتحدث ببساطة، ببطء، وبوضوح-ودونما نهاية: لا يبدو أن لتدفق كلماته نهاية أبدًا. لا بد من أنكم رأيتم كيف يوجّه ملاحظاته إلى كلّ جزء من الجمهور-بعضها إلى تجّار الحديد هنا، بعضها إلى تجّار الفراء هناك-وهو واثق جدًا من كلماته حتى أن المرء قد يظن بأنّه يقدّر كلّ

(1) جيمس كاري: عضو في جماعة إرهابية إيرلندية.قتل رميًا بالرصاص.

واحد منهم بتتويجه! يا له من مشهد مسل! جلادستون بطل الحقوق التي لا تباع ولا تشرى-هذه خاصيته. هو لن يعترف ولو للحظة بأنه يمكن أن يكون على خطأ.

«طالما أنه مقتنع بأن العدالة في صفه، يستعملها بوحشية، يفسرها، يلوح بها مثل علم قبالة جمهوره ليحرج معارضيه. مبادئه نبيلة وثابتة، يعمل بالنيابة عن المسيحية، مؤيد للمثل الإنسانية، وللحضارة عمومًا. إذا ما عرض شخص على ذلك الرجل آلاف الباوندات لينقذ امرأة بريئة من المقصلة، قد ينقذ المرأة، ويرفض المال ساخطًا، ولا يفاخر بذلك شخصيًا. لن يفكر أبدًا باستعماله لمصلحته-هو ليس من ذلك النوع من الرجال. إنه مقاتل عنيد لصالح قضايا محقة، يضطلع يوميًا بمسؤولية شخصية عن العدالة، والحقيقة، والله. كيف يمكنه أن يفشل؟ اثنان زائد اثنين يساوي أربعة، تغلبت الحقيقة، المجد لله! الآن جلادستون يمكن أن يتجاوز اثنين زائد اثنين. سمعته يدعي، في نقاش الميزانية، أن جداء سبعة عشر في ثلاثة وعشرين يساوي ثلاثمئة وواحد وتسعين، وجنى انتصارًا هائلًا ساحقًا. من جديد كان الحق إلى جانبه، ما جعل عينيه تبرقان بالاستقامة، ودس رجفة في صوته وملأه بالعجب. لكن عند ذلك الحد كان عليَّ أن أتوقف، أنظر، أتساءل. لم أشك في إخلاصه، لكن مع ذلك شعرت بضرورة النهوض. وقفت هناك أتفحص حسابه-ثلاثمائة وواحد وتسعون-وكان صحيحًا، حتى قلبته مرارًا وتكرارًا في عقلي قائلًا لنفسي: انتظر دقيقة. إذا ضربنا سبعة عشر بثلاثة وعشرين فالنتيجة هي ثلاثمائة وسبعة وتسعون! أعرف جيدًا أنها كانت واحدًا وتسعين، لكن ضد كل منطق رسيت على سبعة وتسعين، فقط لأعارض ذلك الرجل، هذا الرجل الذي جعل عمله في الحق. شيء فيَّ صرخ: تحدث ضد هذه

الاستقامة الباذخة! ونهضت وقلت: «سبعة وتسعون» من حاجة دفينة لأحفظ قناعتي بما هو صواب من مهاجمة هذا الرجل الذي كان من غير ريب على الجانب «الصحيح».»

«يا إلهي، لم أسمع أبدًا بمثل هذا الهراء،» صرخ الطبيب. «هل حقيقة أن جلادستون مصيب دومًا تزعجك؟»

ابتسم نيجل. كان من الصعب أن تحدد فيما إذا كان يصدق الفكرة التي قالها أو أنه يتظاهر. «لم تزعجني ولو في الحد الأدنى، ولم تدمر قناعتي،» رد بحجة معاكسة. «أنا لا أتوقع أن يفهم أحد ما أحاول قوله، لكن لا يهم. يتعامل جلادستون بشرف وعدالة، عقله زاخر بالأفكار الفاضلة، شديد بالثناء الذي يتلقاه على إنجازاته. ذلك أن فرضيته المنطقية هي اثنان واثنان يساوي أربعة -بالنسبة إليه هي أعظم حقيقة تحت الشمس. هل يمكننا أن ننكر أنّ اثنين مع اثنين يساوي أربعة؟ بالتأكيد لا! أنا أذكر ذلك لأظهر أن منطق جلادستون دومًا يفوز وحسب.

«السؤال هو إذا ما كان المرء مجنونًا بالحقيقة إلى حد يجعله يقبل بها، وإذا ما أصبحت حساسية المرء ضعيفة جدًا بسبب الحقيقة التي يسقط المرء صريعًا بسببها. هذه هي الفكرة التي أحاول توضيحها. جلادستون محق ومخلص جدًا فهو لن يتخلى أبدًا عن أعماله الجيدة في هذا العالم. نشيط ومطلوب دومًا. فهو يصر على مبادئه في بيرمينغهام ويكررها في جلاسكو. إنه يقاتل ببسالة عن قناعاته، يحوّل قاطع فلين ومحام إلى نفس وجهة النظر السياسية، ويرفع الصوت عاليًا حتى لا يمكن لأي من كلماته الثمينة أن تضيع من مستمعيه. وعندما ينتهي العرض ويهتف الناس ويصفقون، وينحني جلادستون إجلالًا، يذهب إلى البيت، يفرد يديه، ويصلي، ويذهب

لينام دون أدنى ومضة شك، دون أقل شعور بالعار لكونه ملأ قاعات بيرمنغهام أو غلاسكو بماذا؟

«هو مقتنع أنه أدى واجبه تجاه مؤيديه وأنه صادق مع نفسه وبالتالي تتيح له استقامته أن يغط في نوم عميق. قد لا يكون قادرًا على القيام بالنقد الذاتي إلى حد القول: لم تكن اليوم واضحًا، كان غزّالَا القطن في الصف الأول سئمين حتى الموت-تثاءب واحد منهما في وجهك. لكن لا يمكنه الاعتراف بذلك، وقد يقول لنفسه إنه لم يكن واثقًا من أن الرجل تثاءب بالفعل! وكذلك لن يكذب، لأن الكذب ذنب، وجلادستون لا يذنب. قد يقول لنفسه: لدي انطباع بأن الرجل كان يتثاءب، لكن لا بد من أني كنت مخطئًا.

«ربما قلت شيئًا في هذا السياق في كريستيانيا، لكن لا يهم. مهما يكن من أمر لا بد من أن أعترف بأن بهلوانيات جلادستون الفكرية لم تؤثّر فيّ يومًا».

«جلادستون المسكين!» قال رينيرت.

لم يجب نيجل.

«لكن لم يكن هذا ما قلته في كريستيانيا،» صاح أوين. «هاجمت جلادستون بسبب الإيرلنديين وبارنيل، وقلت إنه ليس مفكرًا عظيمًا. أتذكر بدقة قولك ذلك. هو يشكل قوة هامة وفعالة، قلت، لكنه عادي للغاية عندما يتعلق الأمرِ بذلك-ليس أكثر من خنصر بيكونزفيلد الفظيع».

«الآن أتذكر: أخرجوني بسبب ذلك. لكن سأعترف بذلك أيضًا، ولمَ لا؟ لا يمكنه أن يزيد الأمور سوءًا. لكن ليكن حكمكم عليَّ رحيمًا!».

سأل الطبيب ستينرسن نيجل: «هل أنت محافظ؟».

نظر نيجل نحوه بذهول ثم انفجر بالضحك وسأل: «ماذا تظن؟».

عندها رن جرس باب مكتب الطبيب. نهضت السيدة ستينرسن، كان الحال هكذا دائمًا، سيكون على الطبيب أن يغادر. لكن ما من أحد سينصرف مهما كانت الظروف، حسنًا، ليس قبل منتصف الليل بأية حال. ستجلب آنا المزيد من المياه الساخنة، الكثير منها، لقد كانت الساعة العاشرة.

«سيد رينيرت، أنت لا تشرب شيئًا!»

قال السيد رينيرت إنّه يستطيع الاعتناء بنفسه.

«لكن لا يتوجب على أيّ منكم المغادرة. عليكم البقاء. داجني، أصبحتِ هادئة جدًا.»

لكن داجني لم تكن أكثر هدوءًا من المعتاد.

عاد الطبيب من مكتبه وطلب المعذرة. لديه حالة نزيف دموي طارئة. ليس المكان بعيدًا جدًا، سيعود خلال ساعتين أو ثلاث ساعات ويأمل أن يجد ضيوفه: «وداعًا، لجميعكم، وداعًا جيتا».

وغادر الطبيب بسرعة كبيرة. التحق برجل آخر وتوجها نحو رصيف المرفأ.

«الآن لنفكر في شيء نفعله!» هتفت السيدة ستينرسن. «أشعر بملل فظيع عندما أكون هنا وحيدة ويتوجب على زوجي الذهاب-لا سيما في ليالي الشتاء عندما لا أكون متأكدة من أنه سيتمكن من العودة».

«أليس لديكما أطفال؟» سأل نيجل.

«لا، لكني بدأت بالاعتياد على هذه الليالي اللانهائية. في البداية كان الأمر فظيعًا. كنت خائفة جدًا، قلقة-وأخشى من العتمة أيضًا- حتى أني أحيانًا كنت أنهض وأذهب للنوم مع الخادمة. الآن، داجني، لا بد من أن تقولي شيئًا! بم تفكرين؟ بخطيبك، بالتأكيد!»

توردت داجني وأجابت ضاحكة: «نعم بالتأكيد هذا طبيعي. لكن لم لا تستقصين أفكار السيد رينيرت؟ هو لم يفتح فمه طوال المساء..»

احتجّ رينيرت، كان يثرثر مع الآنسة أولسن والآنسة أندرسن، كان منشغلًا في محادثة، وقد أصغى بانتباه، وتابع الحديث السياسي..

«عاد خطيب الآنسة كيلاند للتوّ إلى البحر مجدّدًا،» قالت المضيفة مُخاطبةً نيجل. «إنه ضابط بحري، ذهب إلى مالطا-ألم تكن مالطا؟»

«نعم،» قالت داجني.

«حسنًا، سرعان ما ينشغل أشخاص مثله! عاد إلى الوطن في إجازة لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع، ومن ثم ذات ليلة-أوه، هؤلاء الملازمون!»

«إنهم الأفضل،» قال نيجل، «قلّما تفارقهم الابتسامة، رجال مسفوعون، صرحاء ونشطون.» لباسهم الرسمي كان جميلًا ولائقًا للغاية أيضًا. في واقع الأمر لطالما كان مولعًا بضباط البحرية.

التفتت الآنسة كيلاند مبتسمة إلى أوين: «هذا ما يقوله السيد نيجل الآن. لكن ما الذي قاله في كريستيانيا؟»

كان هناك انفجار بالضحك. صرخ هانسن بصوت ثمل ثاقب: «حسنًا، ما الذي قاله في كريستيانيا؟ ما الذي قاله بالفعل في كريستيانيا؟ نخبك!»

قرع نيجل كأسه وشربا كلاهما.

ثم استأنف نيجل حبل أفكاره: لطالما كان مولعًا بضباط البحرية. في واقع الأمر، وسوف يذهب إلى حد القول إنه لو كان فتاة فقد يولع بضابط بحرية وليس بغيره.

هذا استدعى موجة جديدة من الضحك. قرع هانسن بابتهاج جميع الكؤوس على الطاولة وشرب. قالت فجأة داجني: «يقولون إن

جميع ضباط البحرية بلهاء. ألا توافق؟»

بالتأكيد لا! لكن حتى لو كان ذلك حقيقة، سيظل يفضل الوسيم على الذكي، لو كان فتاة. لا شك في ذلك! ولا سيما إذا كان فتاة صغيرة!

ما نفع عقل دون جسد؟ لكن يمكنك بالتأكيد أن تعكسي الآية-أي فائدة ترجى من جسد دون عقل؟ آه، لكن هناك جحيم من الفرق! أهل شكسبير كانوا أميين. يبدو أن شكسبير نفسه لم يكن يستطيع أن يقرأ بصورة جيدة جدًا، لكن مع ذلك حقق شهرة دائمة. لكن لنعد إلى الفكرة: قد تمل الفتاة من مثقف قبيح بسرعة أكبر من سأمها من مغفل وسيم. لو كان نيجل فتاة صغيرة ولديها الخيار، فقد يختار الوسيم دون تردد. ولتأخذ الغربان آراء الرجل بالسياسة النرويجية وفلسفة نيتشه.

«دعني أرك صورة لخطيب الآنسة كيلاند،» قالت السيدة ستينرسن، وهي تتفحص ألبومًا للصور.

وثبت داجني وصرخت:» أوه، لا!» لكنها استعادت رباطة جأشها وجلست من جديد. «إنها صورة سيئة،» قالت. «إنه يبدو أفضل في الحقيقة».

وجد نيجل نفسه ينظر إلى شاب وسيم ملتحٍ، جالسًا إلى طاولة في وضعية منتصبة وجميلة، يده على سيفه. كان شعره الخفيف مفروقًا من المنتصف. وفي طلعته شيءٌ إنجليزيٌّ جدًا.

«نعم، أتفق معك، إنه يبدو أجمل من ذلك،» تدخلت السيدة ستينرسن. «قبل أن أتزوج كنت أحبه. الرجل الذي بجانبه طالب لاهوت شاب توفي مؤخرًا اسمه كارلسن. حدث ذلك منذ أسبوع تقريبًا-مأساة رهيبة. لا، لم يمر كل هذا الوقت-جنازته كانت أمس الأول».

في الصورة رجل يبدو مريضًا بخدود مجوفة وشفاه شاحبة ونحيلة حتى بدتا مثل سطر في وجهه. كانت عيناه قاتمتين وواسعتين وجبهته عالية بشكل استثنائي، لكن صدره كان غائرًا وأكتافه ليست أعرض من أكتاف امرأة.

إذن هذا كان كارلسن! فكر نيجل: يدان معروقتان واهتمام باللاهوت مناسبٌ لوجه مثل هذا. كان على وشك أن يقول إن هناك شيئًا حزينًا جدًا حول محيا كارلسن عندما لحظ أن رينيرت قرب كرسيه من داجني وبدأ يتحدث معها. انكفأ نيجل وراح يقلب الألبوم.

«طالما أنكم كنتم تشتكون من صمتي،» قال رينيرت «ربما ستسمحون لي أن أخبركم ما حدث أثناء زيارة القيصر. إنها قصة حقيقية وتذكرتها للتو».

لكن داجني قاطعته قائلة بصوت خفيض: «ما الذي كنت تتحدث عنه طوال المساء في تلك الزاوية؟ أفضل أن أسمع عن ذلك. أنا أردت فقط أن تعرف بأني على علم بمحادثتك الخاصة. لكن بالتأكيد كنت تثرثر كالعادة. أنت وضيع بكل ما في الكلمة من معنى إذ تضحك دومًا على الناس. أعرف أن طريقته في إظهار ذلك الخاتم الحديدي على خنصره سخيفة -الطريقة التي يمسكه بها، يحكه، وينظر إليه، لكن ربما هي فقط نظرة غافلة.

«ولم يجعل من نفسه فرجة كما بدا أنك تلمح، على الرغم من أنه معجب بنفسه جدًا ومعتوه ويستحق ما حدث له. جوردون، لقد بالغت في الضحك عليه بتلك الطريقة. هو بالتأكيد لاحظ بأنك كنت تسخرين منه.»

دافعت جوردون عن نفسها بقولها إنه كان خطأ رينيرت-كان مسليًا بصورة مريعة-عندما قال: «بهلوانيات جلادستون الفكرية لم

تؤثّر فيّ مطلقا»-لم تؤثّر فيّ!

«جوردون أنت تتحدثين بصوت مرتفع مجددًا. أنا واثقة من أنه سمعك، لأنه التفت. لكن هل حدث أن لاحظت أنه عندما تمت مقاطعته لم يظهر أي علامة على نفاد الصبر؟ بدا حزينًا فقط. كما تعلمين، أنا بدأت أشعر بالعار من الجلوس هنا والتحدث عنه بهذه الطريقة. أخبر قصتك عن زيارة القيصر سيد رينيرت.»

روى رينيرت القصة. وإذ أنها لم تكن سرًا بل حكاية غير مؤذية عن امرأة تحمل باقة ورد، رفع صوته تدريجيًا حتى لفت انتباه الجميع أخيرًا. كانت قصة متشابكة واستغرقت بضع دقائق ليرويها.

عندما انتهى قالت الآنسة أندرسن: «سيد نيجل هل تتذكر القصة التي رويتها لنا الليلة الماضية عن الكورس في المتوسط؟»

أغلق نيجل الألبوم فجأة بنظرة فزعة.

هل كان يمثّل أم كان هذا حقيقة؟ قال بصوت هادئ إنّه أخطأ في بعض التفاصيل لكنه لم يكن خطأ متعمدًا. لم يخترع القصة بل حدثت بالفعل.

«يا إلهي، أنا لم أقصد أبدًا أن ألمّح إلى أنّك اخترعتها،» قالت بصوت ضاحك. «لكن هل تتذكر ما قلت عندما أخبرتك بأنها جميلة؟ قلت إنك مرة واحدة قبلها سمعت شيئًا جميلًا وإن ذلك حدث في حلم.»

أومأ بصمت.

«هلا أخبرتنا عن ذلك الحلم؟ رجاءً! أنت قصاص رائع! نحن جميعًا نرجوك!»

لكنه رفض متذرعًا بعدة حجج: كان حلمًا دون بداية أو نهاية، ووهمًا زائلاً جاءه أثناء الليل. لا يمكنه أن يعبر عنه بالكلمات. لا بد

من أن الجميع بين الحين والآخر اختبروا شطحات الخيال هذه التي تومض في العقل سريعًا، وبالسرعة التي تومض فيها تختفي. بدا الأمر برمته شديد الحماقة طالما أنه حدث في غابة فضية بيضاء..»

«غابة فضية–ومن ثم ماذا؟»

قال لا، هازًا رأسه.

قد يفعل أي شيء من أجلها، كان عليها فقط أن تجربه. لكنه لا يستطيع أن يتحدث عن ذلك الحلم، لا بد من أن تصدقه.

«حسنًا. لكن اروِ لنا قصة أخرى، رجاء.»

لا يشعر برغبة في ذلك، ليس الليلة. لا بد من أن يعذروه.

كانت هناك محادثة طارئة بعدها، بعض التعليقات المازحة، وعندئذ قالت داجني:

«تقول إنك ستفعل أي شيء من أجل الآنسة أندرسن. ماذا على سبيل المثال؟»

نزوة داجني هذه استدعت مرحًا عامًا، وكان على داجني نفسها أن تضحك. وبعد لحظة تأمّل، ردّ نيجل: «سأكون قادرًا على فعل شيء رهيب حقيقة من أجلك.»

«شيء رهيب؟» قل. قتل. ربما؟»

«نعم، أؤكد لك، يمكنني أن أقتل أسكيمو أسلخه وأجعله ورقَ نشاف لك.»

«حسنًا، هذا مؤثر! لكن ماذا عن الآنسة أندرسن؟ ماذا يمكنك أن تفعل من أجلها؟ شيء نبيل للغاية؟»

«ربما–لا أعرف. بالمناسبة، فيما يخص الأسكيمو هذا قرأته في مكان ما. وليست القصة من اختراعي.»

توقف قصير.

«جميعكم لطفاء إلى أبعد حد،» قال. «تحاولون أن تستدرجوني، فقط لأني غريب.»

استرق هولتان النظر إلى ساعته.

«ربما أنت تعرف تمامًا الآن،» قالت السيدة ستينرسن. «لن يسمح لك بالمغادرة حتى يعود زوجي. قطعًا لا شك في ذلك. يمكنك أن تفعل ما تحب لكن لا يمكنك المغادرة.»

كانت القهوة قد قدمت وانتعشت المجموعة من جديد. قفز هانسن الذي كان غارقًا في محادثة مع أوين على قدميه خفيفًا مثل ريشة على الرغم من ثقل وزنه وصفق بيديه متحمسًا، مسد أوين أصابعه وذهب إلى البيانو وعزف بعض الألحان.

«يا لحماقتي،» صرخت المضيفة. «كيف نسيت أنك تعزف على البيانو. رجاءً استمر!»

سيكون أوين سعيدًا بإرضائهم. لم يكن شديد البراعة، لكن إن لم يكن لديهم اعتراض على شوبان، أو فالس لانر[1]...

صفق نيجل بحماس والتفت إلى داجني قائلًا: «ألا تشعرين لدى سماعك موسيقى مثل هذه، برغبة في أن تكوني بعيدة قليلًا-ربما في الغرفة المجاورة-تمسكين صامتة بيد محبوبك؟ لطالما فكرت أن تلك لحظة في غاية الجمال.»

رمقته بنظرة فاحصة طويلة. هل كان جادًا؟

لم يبد أي أثر خفيف للتهكم على وجهه، فاستأنفت بنبرتها المازحة: «لكنك قد لا ترغب في كثير من الضوء، وعلى الكراسي

---

(1) جوزيف لانر: (1801-1843) مؤلف موسيقي نمساوي.

أن تكون منخفضة ووثيرة. ويجب أن يكون الجو ماطرًا ومظلمًا في الخارج.»

كانت هذا المساء أكثر جمالًا من المعتاد. تباينت عيناها الزرقاوان الداكنتان بشكل مدهش مع لون بشرتها الصافية.

ولو أن أسنانها لم تكن مثالية؛ إلا أن ابتسامتها لم تكن متحفظة، قد تضحك على أي شيء عمليًا فلا يكون بوسعك أن تمنع نفسك من ملاحظة فمها الأحمر الشهواني. لكن ربما الشيء الأكثر سحرًا فيها كان التورد الذي ينتشر على وجهها وهي تتحدث وسرعان ما يتلاشى.

«الآن اختفى هولتان ثانية!» صرخت السيدة ستينرسن. «كالعادة من المستحيل أن تراقبه–ينتهي الأمر دومًا بنفس الطريقة. على الأقل، يا سيد رينيرت، آمل أن أستطيع الاعتماد عليك في أن تقول ليلة سعيدة قبل أن تغادر!»

غادر مدير المدرسة من باب المطبخ متسللًا كعادته تمامًا، مكتئبًا ومنهكًا لإسرافه في الشرب وشاحبًا من قلة النوم. لم يعد، وعندما سمع نيجل بهذا، تغيرت ملامح وجهه كليًا. خطرت له فكرة أن يجرؤ على سؤال داجني في أن يرافقها في الغابة بدلًا من هولتان. سألها ولم يضيع وقتًا، وبعيون متوسلة ورأس مُطَأطِئ أضاف: «وأعدك أن أكون مؤدبًا.»

قالت ضاحكة: «في تلك الحالة، لا بأس.»

شعر باضطراره إلى الانتظار إلى حين عودة الطبيب. لكن فكرة السير مع داجني في الغابة أثارته، استمر بالتحدث مثيرًا ضحك الجميع وكان أنيسًا للغاية. وقد وافق وهو في تلك الحالة من الابتهاج على إلقاء نظرة على حديقة السيدة ستينرسن، طالما أنه يعتبر نفسه

خبيرًا إلى حد ما-لا سيما الزاوية التي احتلتها الحشرات في شجيرات الكشمش.[1] قد يتخلص منها حتى لو كان عليه أن يطردها كما تطرد الأرواح الشريرة!

هل كان أيضًا ضليعًا بالسحر؟

أوه، عبث بكل شيء. على سبيل المثال، هو يضع خاتمًا-لا بد من أنهم لاحظوه-خاتمًا حديديًا عاديًا، لكن له قدرات سحرية. ما من أحد قد يصدق ذلك عندما يراه! لكن إذا أضاع الخاتم-لنقل عند الساعة العاشرة -سيتوجب عليه أن يجده بحلول منتصف الليل، أو أن شيئًا ما سيئًا قد يحصل. حصل عليه من تاجر يوناني مسن-في بيرايوس. بالتأكيد رد اللطف بالمثل وأعطى الرجل بعضًا من التبغ.

لكن هل هو يؤمن فعليًا بالقدرات السحرية للخاتم؟

نعم إلى حد ما. لقد شفاه مرة.

تناهى إليهم نباح كلب على الطريق المؤدي إلى الزقاق البحري.

فنظرت السيدة ستينرسن إلى الساعة، نعم، لا بد من أن يكون الطبيب قادمًا، انتبهت إلى نباح الكلب. كم هو رائع! منتصف الليل، وقد عاد. طلبت المزيد من القهوة.

«إذن فلهذا الخاتم قدرات استثنائية، سيد نيجل، وأنت تؤمن بها؟»

«نعم، إلى حد ما.» بمعنى أنّ لديه أسبابًا معقولة لعدم الشك فيه. حسنًا، هل تهم معتقدات المرء المزعومة حقًا أو ما يؤمن به المرء حقًا في قلبه؟

عالجه الخاتم من التوتر العصبي ومنحه قوة متجددة وثقة.

ضحكت السيدة ستينرسن في البداية، لكنّها بدأت بعد ذلك تكيل

---

(1) نوع من أنواع العنب دون بذور.

الاعتراضات. لا، لا يمكنها أن تقبل بهذا النوع من اللغو-لا بد من أن يعذرها-لكنها كانت واثقة من أنه لا يعني كلمة مما قال. عندما يتحدث المتعلمون بتلك الطريقة، ماذا يمكن أن تتوقع من رجل الشارع؟ إلامَ قد يؤدي-وأضف إلى ذلك، ألن يتوجب على الأطباء أن يغلقوا عياداتهم؟

قدم نيجل مرافعته. كل علاج يعادل الآخر نجاعة. أهم ما في الأمر هو الإرادة، والإيمان، وشخصية المريض. لكن لم يكن هناك بالتأكيد سبب يدعو الأطباء لإغلاق عياداتهم. لديهم متابعون مخلصون. كان مرضاهم أناسًا متعلمين ويتعالجون بالأدوية، في حين يتعالج الفلاحون المهرطقون بخواتم حديدية، وعظام بشرية متفحمة، وعفن من المقابر. ألم تكن هناك أمثلة عن مرضى شفوا بماء عادي لاقتناعهم بأن الماء علاج فعال بشكل خاص؟ ألم تكن هناك حالات كثيرة بين مدمني المورفين، على سبيل المثال؟ في القوة اللافتة لهذه العلاجات، من يؤمنون بالعلاج غير العلمي قد يقولون فليذهب العلم الطبي إلى الجحيم، ويتجاهلون تعليماته. آمل أنه لم يمنح انطباعًا بأنه يعتقد نفسه خبيرًا في هذه الأمور. لم يكن محترفًا وليست لديه وقائع تدعم أفكاره. إلى جانب أنه كان في مزاج جيد جدًا ولا يرغب في جعل أي شخص يشعر بالاكتئاب بالتحدث في أمور مزعجة. على السيدة ستينرسن والجميع أن يسامحوه.

ظلّ يحدّق إلى الساعة وكان في الواقع قد بدأ بإغلاق أزرار سترته.

قطع وصول الطبيب المحادثة. كان التوتر والمزاج السيّئ باديين عليه، حيا ضيوفه ببشاشة مصطنعة وشكرهم لبقائهم. حسنًا، بالتأكيد لم يكن هناك مدير المدرسة-رافقته السلامة-لكن بطريقة أخرى كانت الحفلة لا تزال تستمر بقوة. آه، حسنًا، كان العالم بالتأكيد مليئًا بالكفاح!

كعادته بدأ بالتحدث عن الحالة التي استدعي من أجلها. كان خائر العزم، شعر بأنه كان مخيبًا من مرضاه الذين يتصرفون كالبلهاء-يجب أن يوضعوا خلف القضبان. يا له من مكان جاء منه للتو! كانت المرأة مريضة، والدها كان مريضًا، ابنها كان مريضًا-والرائحة الكريهة! مع أن بقية أفراد العائلة كانوا مُعافين ومُتورّدي الخدود، والصغار نضرين. كان الأمر برمته عَصيًّا على التصديق-ويفوق قدرته! كان الرجل المسن-والد المرأة-ممددًا هناك مصابًا بجرح بليغ كبير. فأرسلوا في طلب مُعالِجَة شعبية. أوقفت النزف، لا بأس، لكن طريقتها في إيقافه! كانت مقززة وإجرامية. لم يستطع حتى أن يتحدث عنها، لكن الرائحة كانت تكفي لتقتلك! ومن ثم بالتأكيد بدأت الغرغرينا. لو لم يُستَدع هذا المساء، الله وحده يعلم أي نتيجة كانت ستكون. كان عليهم أن يجعلوا القوانين ضد الشعوذة أكثر صرامة ويطاردوا هؤلاء الناس حقًا. حسنًا، كان النزف قد توقف. ثم حضر الولد، رجل طويل جلف المظهر والبثور تملأ وجهه. «منذ بضعة أيام أعطيته بعض المراهم، مع إرشادات خاصة كي يطبق المرهم الأصفر ساعة في اليوم، والمرهم الأبيض، مرهم الزنك، بقية الوقت. وماذا فعل؟ فعل العكس تمامًا، بالتأكيد. وضع المرهم الأبيض لساعة، والأصفر، ذلك الذي يشد ويحرق كالجحيم، ترك ذلك المرهم على مدار الساعة. واستمر على هذا المنوال لأسبوعين! المذهل في الأمر أن بشرته اندملت-بالرغم من حماقته! ذلك الغبي تدبر أمر شفائه بالرغم مما فعله! الليلة أراني خدًا وأنفًا خاليين من الندوب. مجرد حظ! كان ليخلف ضررًا كبيرًا على وجهه ويحتاج إلى وقت طويل كي يشفى، لكن هذا لم يزعجه ولو قليلًا! ثم كانت هناك والدة الفتى. هي مريضة، وضعيفة، ومنهكة، ومتوترة، وفاقدة للشهية، وتشعر بالوهن

من طنين في أذنيها. «لا بد من أن تغتسلي،» قلت لها. «اغتسلي! ضعي بعض الماء على جسدك، اللعنة! نظفي نفسك! اذبحي عجلاً، كُلي واحصلي لعظامك على بعض اللحم، افتحي نوافذك ودعي الهواء النظيف يدخل، لا تتمشي بملابس رطبة، ظلّي في الخارج قدر ما بوسعك-وذلك الكتاب هناك، ذلك الكتاب ليوهان أرنت، ارمه في النار! لكن الأمر الأكثر أهمية: الحمام، تدليك الجسم، والمزيد من الحمام، وإلا أدويتي لن تنفع. «حسنًا، لا يمكنها تحمل ثمن عجل، حقيقة للأسف-لكنها استحمت وأزالت بعضًا من القذارة.

لكنها تدعي أنه يجعلها عرضة لالتقاط للبرد، كل هذه النظافة تجعلها ترتعش، تجعل أسنانها تصطك، لذا كفت عن استخدام الماء. لم تستطع تحمل المزيد! إذن ماذا فعلت؟ أمسكت بسلسلة، يفترض أنها ترياق يشفي الحرارة الروماتيزمية، فولتا كروس أو أيًا يكن ما يطلقون عليه من اسم، وعلّقته حول عنقها. طلبت أن أراه: قرص من الزنك، خرقة، صنّارتان بحجمين مختلفين-هذا كل ما كان معلقًا بها. «من أجل أي شيطان هذا؟» سألتها. لكنه فعلًا أجدى نفعًا معها، وجعلها تشعر بتحسن بسيط. ذَهَبَ ألمُ رأسها ولم تشعر بالبرد كثيرًا. قرص الزنك وتلك الصنارات شفَتْها-ماذا يمكنك أن تفعل مع شخص مثلها! يمكنني أن أبصق على عود وأناوله لها، وقد يكون الأثر مشابهًا. لكن حاول أن تقول لها ذلك! «اخلعيه،» أقول «وإلا لن أمسك، لن أعالجك!» وماذا تظن أنها فعلت؟ أمسكت بقرص الزنك وطردتني، شر طردة! يا يسوع المسيح! لم يكن يتوجّب علي أن أكون طبيبًا-لا بد من أن أكون طبيبًا مشعوذًا!»

جلس وراح يحتسي قهوته، كان من الواضح أنه مهزوز جدًا. تبادلت زوجته ونيجل النظرات، وعندئذ قالت بصوت ضاحك: «السيد نيجل

هنا قد يفعل ما فعلته تلك المرأة تمامًا. كنا نتحدث لتونا عن ذلك آن وصولك. لا يؤمن السيد نيجل بعلمك.»

«أوه لا يفعل حقًا،» علّق الطبيب بجفاء. «حسنًا، هذا يعود كليًا إلى السيد نيجل.»

غاضبًا ومُهانًا، ومشمئزًا من إهمال المرضى الذين تجاهلوا نصائحه، ارتشف الطبيب قهوته بصمت وبمزاج نكد. طريقة الآخرين في إمعان النظر فيه زادته هياجًا على هياج. «افعلوا شيئًا، لا تجلسوا هنا وحسب!» هتف. لكن بعدئذٍ، عندما أنهى قهوته، استعاد مزاجه البهيج المعتاد ثانية، وتحدث إلى داجني، ومزح حول المراكبي الذي أقله إلى مرضاه. ثم أغرقته مشاكله المهنية مرة أخرى وانتهى ثانية إلى مزاج عصبي. لم يستطع تجاوز أمر المراهم تلك، أينما ذهب، اصطدم بسلوك أحمق غبي، وخرافة. كان جهل هؤلاء الناس رهيبًا!

«لكن الرجل شفي، أليس كذلك؟»

جعلته هذه الملاحظة من داجني يرغب في أن يغرز أسنانه فيها، تصلب. تحسن حال الرجل، نعم، لكن ما بوسع ذلك أن يثبت؟ يكفي جهل معظم الناس لجعل شعر المرء ينتصب حتى نهايات أطرافه.

تحسن الرجل، هذا صحيح، لكن ماذا لو أحرق وجهه؟ هل كانت تدافع حقًا عن مثل هذا الجهل السحيق؟

كانت هذه المواجهة المثيرة مع شخص ريفي فعل بالضبط عكس ما قيل له، وعالج نفسه، مزعجة للطبيب بما لا يطاق، وومضت عيناه-اللطيفتان عادة-بالنقمة خلف النظارات. كان مهانًا بما تعجز الكلمات عن وصفه، جُعل أضحوكة بسبب قرص من الزنك، وأضاف

التودية[1] لقهوته كي تهدئه.

ثم قال فجأة على نحو غير متوقع: «اسمعي جيتا، أعطيت المراكبي خمس كرونات، أريدك أن تعلمي فقط. كان شخصًا غريبًا! كان بنطاله ممزقًا بالكامل من الخلف، لكن هذا لم يبد أنه يسبب له أقل إزعاج. كان شريرًا إلى حد بعيد، وقويًا مثل ثور. غنّى طوال الطريق وأكد لي أن بوسعه أن يطال السماء بصنارة صيد إذا ما وقف على قمة جبل آيتي. «أظن أن عليك أن تقف على أطراف أصابعك مع ذلك،» قلت. لكنه أخذ كلامي على محمل الجد وأكد لي أن بوسعه الوقوف على أطراف أصابعه أيضًا كأي شخص. كان بالتأكيد شخصًا غريبًا ومسليًا جدًا.»

أخيرًا همت الآنسة أندرسن بالمغادرة، وكذلك فعل الجميع. عندما تمنى لهم نيجل ليلة سعيدة، عبر عن شكره بود وإخلاص كبيرين، حتى أن الطبيب الذي كان منزعجًا منه آخر ربع ساعة كان راضيًا تمامًا.

«عد قريبًا،» قال. «هل لديك سيجار؟ خذ واحدًا من عندي!» وأصر على نيجل أن يأخذ سيجارًا آخر. وكانت داجني واقفة عند الباب تنتظره متدثرة بدثارها.

---

(1) مشروب كحولي مصنوع من النخيل.

الفصل الثامن

ليلة بيضاء

كانت ليلة جميلة. بدا بعض الناس ممن لم يغادروا الشوارع مرحين ومفعمين بالحيوية. في المقبرة، كان رجل يدفع عجلة بيده ويغني بينه وبين نفسه، على الرغم من تأخر الوقت. كان كل شيء في صمت مطبق، حتى أن صوته كان الصوت الوحيد المسموع. انبسطت البلدة تحت منزل الطبيب مثل حشرة غريبة هائلة، منبطحة على بطنها ومجسّاتها ممتدة في كل اتجاه. قد تمد ساقًا أو تسحب مجسًا هنا وهناك، والآن عند الزقاق البحري، انزلقت باخرة صغيرة على امتداده دون صوت ظاهر، مخلّفة وراءها ثلمًا أسود.

تصاعد الدخان من سيجار نيجل مشكلًا متاهة زرقاء. كان الآن يستنشق عطر الغابة والعشب، مفعمًا بالامتنان. غص في حلقه شعور بفرح عارم، وحمل الدموع إلى عينيه. كان يسير بجانب داجني، ولم تكن قد فاهت بكلمة بعد. وهما يمرّان بالمقبرة، أثنى ببعض كلمات على عائلة ستينرسن لكنها لم تجب. ملأه الليل بجماله وسكينته نشوةً، حتى أنه كان يلهث وترقرقت الدموع في عينيه. يا لسحر هذه الليالي البيضاء!

هتف بصوت مرتفع: «انظري فقط كيف يمكن للمرء أن يرى التلال بوضوح هناك! سامحيني، لكني أشعر الليلة بسعادة غامرة، قد يكون

بمقدوري الإقدام على فعل أمر مجنون من شدة الفرح. انظري إلى أشجار التنوب والجروف الصخرية، وحزم العشب، وشجيرات العرعر! في هذا الضوء، تبدو مثل أشخاص جالسين! والليل منعش جدًا وبارد، إنه مكشوف وصاف ولا يثقل على روح المرء بهواجس غريبة-ليس المرء مسكونًا بمشاعر مشؤومة. ألا توافقين؟ رجاءً سامحيني إذا بدا ذلك غريبًا، لكني أشعر كما لو أن ملائكة تحلق في روحي. هل أخيفك؟».

استدعى سؤاله توقفها سريعًا. ابتسمت عيناها الزرقاوان له. ثم فجأة أصبحت جدية، وقالت: «كنت أحاول أن أعرف أي نوع من الرجال أنت».

وبقولها هذا، وقفت ساكنة تمامًا ونظرت إليه. عندما استأنفا السير مجددًا، كان صوتها صافيًا لكن تشوبه رجفة خفيفة، كما لو أنها كانت خائفة وسعيدة في آن. بدآ يتحدثان، وتحدثا طوال وقت النزهة في الغابة، متطرقين إلى موضوع في إثر آخر، ومنتقلين من حالة إلى أخرى، يملؤهما الارتباك والقلق نفسه.

«هل فكرتِ فيّ حقًا؟ لكن أؤكد لك، أني فكرت فيك أكثر بكثير. عرفت عنك حتى قبل أن ألتقيك، سمعت بعض الناس يذكرون اسمك على المركب. وصلت إلى هنا في الثاني عشر من شهر حزيران!».

«حقًا؟ الثاني عشر من حزيران من بين كل الأيام».

«نعم، وكانت كل الأعلام ترفرف-أسرتني البلدة بسحرها، لهذا قررت أن أنزل إلى الشط. ومن ثم واصلت الاستماع عنك...».

ابتسمت وقالت: «أتصور أنك كنت تتحدث مع القزم؟».

«لا، لكني سمعت كم أنت محبوبة وتحظين بإعجاب جميع من في البلدة..» وفجأة فكر نيجل في كارلسن، طالب اللاهوت الذي قتل

نفسه بسببها.

«أخبرني،» قالت، «هل تعني حقًا ما قلته عن ضباط البحرية؟».

«نعم، لماذا؟».

«لأني أتّفق معك تمامًا».

«ولمَ قد لا أعنيه؟ لطالما أعجبت بهم، حريتهم، ولباسهم الرسمي، عافيتهم وجرأتهم البالغة-هم ممتازون عادة، إضافة إلى استقامتهم».

«لكن لنتحدث عنك. ما الذي حدث بينك وبين السيد رينيرت؟».

«لا شيء. قلت السيد رينيرت؟».

«اعتذرت منه الليلة الماضية على شيء ما، وكادت لا تتحدّث إليه الليلة. هل تهاجم الناس وتطلب منهم السماح دومًا؟».

ضحك مسدلًا جفنيه. «في الحقيقة لم يكن ينبغي عليَّ مهاجمة السيد رينيرت،» قال. «لكني واثق من أن بإمكاني تسوية الأمر عندما أحظى بفرصة التحدث إليه. أعترف بأني مندفع وصريح، بدأ الأمر برمته عندما دفعني وهو يدخل من الباب. لم يكن شيئًا ذا بال، حقًا، شعرت فقط بأنه كان تصرفًا يفتقر إلى التهذيب. لكني قفزت مثل الأبله، وشتمته، ورشقته بكأس البيرة، وضربت قبعته بعنف وخرج بعدئذ. كسيد محترم لم يكن هناك شيء آخر بوسعه فعله. لكن بعد ذلك أسفت للطريقة التي تصرفت بها، وقررت أن أكفر عنها، ولو أنّ لي ما أقوله دفاعًا عن نفسي. كنت متوترًا ذلك اليوم، حصلت عدة أشياء أزعجتني بشكل هائل. لكن بالتأكيد ما من أحد يمكنه أن يعرف ذلك. تلك أشياء لا يمكنك وصفها لذا أفضّل إلقاء اللوم على نفسي.

كان لكلماته وقع صادق وعفوي، كما لو أنه كان يحاول أن يكون

منصفًا لكلا الطرفين. كان تعبيره أيضًا صريحًا ونزيهًا.

لكن داجني توقفت فجأة ونظرت مباشرة في عينيه وقالت في ذهول تام: «لكن ليس هذا ما حصل! لقد سمعت قصة مختلفة تمامًا».

«القزم يكذب» صرخ نيجل متوردًا.

«لكني لم أسمعها من القزم! لمَ تتحدث عن نفسك بتلك الطريقة؟ سمعتها من الرجل في السوق -بائع تماثيل الجبس-أخبرني القصة كلها، رأى كل شيء».

توقف قصير.

«لا يمكنني أن أفهم لمَ تحط من قدر نفسك،» تابعت وعيناها مثبتتان عليه، «سمعت كل شيء عنها اليوم، وكنت سعيدة جدًا-أقصد ظننت أنك تصرفت بمثل هذا التأثر ونبل الروح. بدا هكذا بالطبيعة. لا أظن أني كنت سأجرؤ على المشي معك الآن لو لم أسمع القصة هذا الصباح. أقصد هذا حقيقة».

توقف قصير.

«وأعجبت بي لذلك؟» قال أخيرًا.

«لا أعرف،» أجابت.

«أوه نعم لقد فعلت، انظري،» واصل، «كل هذا كان مجرد مهزلة. أنت صادقة ولا يمكنني أن أكذب عليك. أريدك أن تعلمي ما حدث بالضبط».

ونظر مباشرة في عينيها بوقاحة، باشر في إخبارها كيف خطط الأمر برمته: «سترين أنني عندما أروي لك قصتي عن الحادثة مع رينيرت، ربما تُحَرَّفُ الوقائع قليلًا، ربما كي أستهين بنفسي قليلًا، كان لصالحي بكل ما للكلمة من معنى، أريد أن أحصل على كل ما بوسعي من هذا. أنا صادق معك لأني أحسب أنه يومًا ما ستعلمين بالقصة

الحقيقية، وطالما أني حقرت نفسي قدر الإمكان أمامك، أتأهب لأغنم من ذلك -لأكون مثابًا ثوابًا جمًا. قد ترتقي مكانتي، وأحرز سمعة من الشهامة والنبل لا يمكنني إحرازها بسهولة بغير ذلك. ألست محقًا؟ لكن لا يمكنني نيل ذلك إلا بتواضعي وغلظتي الشديدة لدرجة أني أبعث فيك شعورًا كليًا بالاشمئزاز. عليَّ أن أعترف بكل هذا لك، لأنك تستحقين صدقًا تامًا. لكن بالتأكيد أعرف ما سيحدث: سأبعدك آلاف الأميال عني».

ظلت تنظر إليه بحيرة تامة في أمر هذا الرجل وفيما قاله للتو، محاولة أن توضح كل ذلك في عقلها. ما خلف كل ذلك؟ ما غرضه من فضح نفسه أمامها بهذه الطريقة؟ توقفت فجأة مجددًا، صفقت بيديها معًا وانفجرت ضاحكة ضحكًا مرتفعًا طنانًا: «أنت أكثر الأشخاص الذين التقيتهم في حياتي مجونًا! تخيل، وأنت تمضي بقول كل تلك الأمور الشنيعة عن نفسك بوجه جامد-إنه تدمير ذاتي! ما الذي تأمل تحقيقه؟ لم أسمع يومًا بشيء غاية في الجنون كهذا! كيف يمكنك أن تكون واثقًا من أنني سأكتشف ما الذي حدث حقيقة؟ قل لي-لا، لا تفعل لن تكون سوى كذبة أخرى! يا لها من أمور رهيبة تلك التي قلتها! عندما تجري مثل هذه الحسابات الدقيقة وتنسج قصتك لتتناسب مع مآربك، ومن ثم تتراجع عن كل شيء بالاعتراف بمكرك أو خداعك كما سميته-ما الذي عليَّ أن أفكر فيه! الليلة الماضية فعلت الأمر نفسه تقريبًا. أنا لا أفهم. لمَ تخطط لتحركاتك بعناية شديدة ومن ثم تقصر عن إدراك بأنك تفضح نفسك وكذبك؟».

صمت برهة ثم قال دون تردد: «لكن على العكس، هو جزء من خطتي. سأحاول أن أوضح لك ما أعنيه. أنا لا أجازف بشيء إذا كشفت نفسي لك، كما فعلت للتو على الأقل، ليس الكثير. لا يمكنني أن أكون

واثقًا من أن الشخص الذي صارحته سيصدقني. أنت لا تصدقينني الآن، لكن حتى مع ذلك سأكسب في النهاية كسبًا كبيرًا مضاعفًا، سوف أثاب بمكافآت جمة وستحلق روحي إلى قمم الجبال. حتى لو صدقتني، سأصل إلى القمة. تهزين رأسك غير مصدقة؟ أؤكد لك، لقد اتبعت تلك الطريقة عدة مرات، ولطالما نجحت. حتى لو صدقت ما اعترفت لك به للتو ستظلين مأخوذة بصراحتي. قد تقولين لنفسك:

«لقد خدعني لكنه اعترف فيما بعد حتى ولو لم يكن من سبب يدعوه إلى ذلك. جرأته أربكتني، تحقيره لنفسه أذهلني!» إلى حد يرغمك على أن تلاحظيني، أنا أزيد من فضولك وأجعلك تنتبهين إليَّ، أصدمك فتنتبهين. منذ برهة قلت إنك لم تتمكني من فهمي. قلت ذلك لأنك كنت تفكرين فيّ وهذا ما أثارني وأبهجني. فعلت الكثير لأكسب سواء صدقتني أم لم تفعلي».

توقف قصير.

«وهل تحاول أن تحملني على التصديق،» قالت، «بوضعك كل هذه الخطط بدهاء خطوة فخطوة وتنبؤك بكل منعطف من منعطفات الأحداث وترقبك كل صعوبة؟ ولكن الآن لا شيء يمكنك قوله سيفاجئني. بعد هذا، لا يمكنني أن أتوقع منك سوى الأسوأ. أنت لست كاذبًا سيئًا في الحقيقة، رغم وضوح ذلك، بل أنت في واقع الأمر ذكيٌّ تمامًا».

أجاب بأن ملاحظاتها أكدت قناعاته فقط. كان ممتنًا لها، لأنها الآن حقّقت هدفه. لكنّها كانت لطيفة جدًا أكثر مما يستحق.. وفجأة قاطعَتْهُ هاتفةً: «هذا يكفي،».

حان دوره الآن في أن يكون مأسورًا: «لكني أعترف لك مجددًا بأني كنت أخدعك،» قال وهو ينظر إليها بجدية. حدّق كلّ منهما في

الآخر لبرهة، تسارع نبض قلبها وشحب لونها. كانت لهفته شديدة لجعلها تصدق أكثر الأمور انحطاطًا عنه. بدا مستعدًا ولديه رغبة كافية في الاستسلام لينتقل إلى مواضيع أخرى، لكنّه في هذا الأمر رفض الرضوخ تمامًا. أيّ هاجس عبثي كان يستحوذ عليه! خرجت عن طورها بغضب صارخة: «لا يمكنني أن أصدق، لمَ تواصل فضح نفسك أمامي؟ وعدتَ أن تكون مؤدبًا».

كان غضبها تلقائيًا وأصيلًا. أثارت قناعاته الراسخة المصمتة أعصابها كثيرًا حتى أنها فقدت في الحال سيطرتها على نفسها. كانت مغتاظة كليًا لأنها انتفضت بهذا الشكل، وأظهرت غيظها بأن خبطت بمظلتها على الأرض وهي تمشي.

بدا ذليلًا وقال عدة أشياء مضحكة وملطفة حول الأمر. أخيرًا اضطرت أن تضحك ثانية وأكدت له أنها لن تأخذه على محمل الجد. كان فاسدًا، وهذا كل ما في الأمر. إذا ما ظن أنه كان مسليًا، يمكنه أن يستمر في الضحك، لكن ليست هناك كلمة أخرى عن هذا الهاجس المجنون...

توقف قصير.

«ربما تتذكرين،» تفكَّر. «التقيتك هنا لأول مرة. لن أنسى أبدًا كيف بدوت وأنت تركضين-رؤيا، أميرة جنية.

«لكني أحب أن أخبرك عن مغامرة حقيقية عشتها مرة.» كانت موجزة وغير مهمة حقيقة، ولم يكن هناك الكثير ليقال. ذات ليلة كان جالسًا في غرفته-في بلدة صغيرة-ليست في النرويج-لكن هذا لا يهم. كانت ليلة في خريف عام 1883 منذ ثماني سنوات. كان جالسًا وظهره إلى الباب يقرأ كتابًا.

«كنت تقرأ على ضوء مصباح؟»

«نعم، كانت العتمة حالكة في الخارج. كنت جالسًا هناك أقرأ عندما سمعت بوضوح وقع خطوات على الدرج ومن ثمّ قرعًا على بابي. قلت: «ادخل!» لكن لم يكن من رد. ثم فتحت الباب ولم يكن أحد هناك. طلبت الخادمة: هل صعد أحد؟ لا، لا أحد. «شكرًا لك» قلت.«ليلة سعيدة». وغادرت الخادمة.

«جلست مجددًا وبدأت أقرأ. شعرت فجأة أن شخصًا يتنفس بالقرب مني وسمعت همسًا، «تعال!» التفت لكني لم أرَ أحدًا. تابعت القراءة، لكن باستفزاز قلت، «اللعنة!» ثم ظهر أمامي رجل شاحب صغير ذو لحية حمراء وشعر جاف وكث وصلب. كان يقف إلى يساري. غمز لي وغمزت له، لم نتقابل من قبل، لكننا بقينا على هذه الحال بضع لحظات. أغلقت الكتاب بيمناي، انتقل الرجل نحو الباب واختفى. رأيته بأم عيني وهو يختفي. نهضت ومشيت إلى الباب، وسمعت ثانية ذلك النصح،«تعال!» ارتديت معطفي، وانتعلت جرموقي[1]، وخرجت. لكن حينها فكرت في أن آتي بسيجار، وعدت إلى الغرفة لأجلب واحدًا. حشوت جيبي ببعضها، يعلم الله لماذا لكني فعلت. وخرجت مجددًا.

«كانت الظلمة حالكة، كما قلت، ولم أتمكن من رؤية شيء. لكني شعرت بحضور رجل صغير بجانبي. تلمست طريقي محاولًا أن أمسك به. اتخذت قراري ألا أخطو خطوة أخرى إذا لم يعرّف عن نفسه، لكنه لم يكن ليُرى. ثم حاولت أن أغمز له هنا وهناك في الظلمة غير أني لم ألقَ استجابة.

«لا يهم»، قلت. «لم أخرج بسببك، آمل أن تدرك ذلك. أنا أردت فقط أن أتنزه.» تحدثت بصوت مرتفع كي يسمعني. مشيت لساعات ووجدت نفسي في الريف، ثم في الغابة. لطمت وجهي أغصان مبللة

(1) حذاء قصير يلبس فوق الحذاء وقاية له من الماء أو غيره.

بالندى، أفانين، وأوراق. ثم أخرجت ساعتي كما لو أني أرغب في النظر فيها، وقلت: «حسنًا، أظن بأني سأعود إلى البيت!». لم أذهب إلى البيت، على الرغم من ذلك، شيء ما منعني من العودة وقادني. «طالما أن الطقس رائع جدًا،» قلت لنفسي، «يمكنك أن تواصل التجوال لليلة أو اثنتين، طالما أن ليس لديك ماتفعله». قلت ذلك بالرغم من أني كنت متعبًا، ومبللًا بالندى. أشعلت سيجارًا آخر. كان الرجل الصغير لا يزال إلى جانبي، شعرت بأنفاسه قربي. مشيت في كل اتجاه لكني لم أعد إلى البلدة. كانت قدماي قد بدأتا تؤلمانني، كنت مبللًا حتى ركبتي، ووجهي كان باردًا من الارتطام بالأغصان المبللة. «ربما يبدو غريبًا عليَّ أن أتجول في مثل هذا المكان في هذا الوقت من الليل،» قلت، «لكن لطالما كنت معتادًا في طفولتي على استكشاف الغابات ليلًا.» ومشيت أصر على أسناني. دقت ساعة البلدة الثانية عشرة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة-أحصيت الدقات. أبهجني صوتها الأليف، على الرغم من أني كنت منزعجًا لأننا لم نبلغ مكانًا أبعد من البلدة بعد السير كل هذا الوقت. وأنا أقول هذا، كانت ساعة البلدة تدق، وعند الدقة الثانية عشرة ظهر الرجل الصغير أمامي وضحك. لن أنسى هذا أبدًا؛ كان حيًا مثلي. سناه الأماميتان مفقودتان، ووضع يديه خلف ظهره».

«لكن كيف رأيته في الظلمة؟»

«لقد شع منه الضوء. كان هناك وهج غريب حوله بدا صادرًا من خلفه وجعله شفافًا. حتى ملابسه كانت مضيئة. كان بنطاله ممزقًا وقصيرًا للغاية. رأيت كل شيء في ومضة. مندهشًا طرفتُ بعيني وخطوتُ خطوةً إلى الخلف. عندما رفعت بصري كان الرجل قد مضى».

«أوه!».

«لكن إليك المزيد. رأيت برجًا أمامي. وعندما تمكنت من التركيز، اكتشفتُ أنه كان برجًا مثمنًا ومظلمًا، بدا شبيهًا ببرج الرياح في أثينا، إذا ما رأيت صورة لذاك. لم أسمع أبدًا عن وجود برج في هذه الغابة، لكنه كان هناك. عندما وقفت أمامه، سمعت ثانية «تعال!» ودخلت. تُرك الباب مفتوحًا خلفي، فشعرت بارتياح عارم.

«خطوت إلى الداخل تحت سقف مقنطر، فوجدتُ الرجل الصغير مجددًا. كان معلقًا على أحد الجدران مصباح يتقد، وتمكنت من رؤيته بوضوح. تقدم نحوي كما لو أنه كان يقف هناك طوال الوقت، وضحك بصمت مُحدّقًا إليّ. نظرت في عينيه، وبدتا تعكسان كل رعب شهده في حياته. غمز لي ثانية، لكني لم أبادله الغمز وتراجعت لدى اقترابه مني. سمعت فجأة وقع خطوات خفيف من خلفي. التفت ورأيت امرأة شابة تدخل.

«نظرت إليها وتولاني شعور بالسعادة. كان شعرها أحمر اللون وعيناها سوداوين، لكنها كانت ترتدي ثيابًا رثة وتمشي حافية على الأرض الحجرية. كان ذراعاها عاريين وناعمين لا تشوبهما شائبة.

«نظرت إلينا، ثم انحنت لي، وتوجهت نحو الرجل الصغير. ودون أن تنبس بكلمة بدأت تفك أزراره وتتحسسه كأنها كانت تبحث عن شيء. ثم سحبت فانوسًا صغيرًا يشع بشحوب من بطانة معطفه وعلقته على إصبعها. كان الفانوس الآن مشعًا جدًا يفوق تألقه تألق المصباح المعلق على الجدار. وكان الرجل واقفًا بهدوء تام ويضحك بصمت كالسابق، وهي تتفحصه. قالت المرأة «ليلة سعيدة»، مشيرة إلى الباب، وغادر هذا الكائن الغريب المرعب الذي كان نصف رجل ونصف وحش. وألفيتُ نفسي مع المرأة بمفردنا.

«تقدمت نحوي، انحنت مجددًا وقالت دون أن تبتسم أو ترفع

صوتها: «من أين أتيت؟». أجبت: «من البلدة، بلدتي الجميلة. لقد مشينا الطريق كله من البلدة».

«رجاءً، أيها الغريب، سامح أبي على تصرفه!» صرخت. «لا تمسك ذلك عليه. إنه مريض-ليس بكامل قواه العقلية-يمكنك أن ترى ذلك في عينيه».

«نعم، رأيت عينيه، إنهما ترميانني بالسحر، نومتاني تنويمًا مغناطيسيًا».

«أين التقيته؟» سألت.

«في غرفتي كنت جالسًا أقرأ عند مجيئه».

هزت رأسها وغضت بصرها.

«كفي عن التفكير في الأمر يا جميلتي،» قلت. «استمتعت بالنزهة وبلقائك. انظري إليَّ، أنا سعيد ومرتاح البال كثيرًا، وأنت يجب أن تبتسمي أيضًا!».

لم تبتسم، لكن قالت: «اخلع حذاءك. لن تغادر الليلة. سأجفف لك ملابسك».

نظرت إلى ثيابي المبللة، كان الماء يرشح من حذائي. فعلت ما طُلب مني: خلعت حذائي وأعطيته لها. وبينما أنا في هذا الحال، أطفأت المصباح وقالت: «تعال!»

«دقيقة واحدة،» قلت. «طالما أني لن أنام هنا لمَ تجعلينني أخلع حذائي؟».

«لا يمكنني إخبارك،» قالت. قادتني من الباب إلى غرفة مظلمة. كان هناك صوت في إثرنا، كما لو أن شخصًا يتنفس. شعرت بيد ناعمة على فمي، وقالت الفتاة بصوت مرتفع: «إنها أنا، يا أبي.

الغريب رحل!».

«شعرتُ ثانيةً بحضور الرجل المجنون القزم. مشينا سلمة درج، ولم ينبس أي منا بكلمة. دخلنا غرفة ذات سقف مقنطر، لم يتسرّب منه أيّ شعاع ضوء لفرط الظلام الحالك كالحبر.

«صه،» همست. «هذا سريري.» تحسست ووجدته.

«الآن اخلع بقية ملابسك،» همست.

خلعتها وناولتها لها.

«ليلة سعيدة»، قالت.

سحبتها وترجيتها أن تبقى. لا تذهبي! أعرف لمَ طلبتِ مني خلع حذائي في الأسفل. سأكون هادئًا جدًا، لن يسمعني والدك. تعالي».

لكنها لم تفعل. قالت ليلة سعيدة وغادرت.

توقف قصير.

توردت داجني، نهدَ صدرها وارتعش منخاراها. «وهل غادرت حقًا؟» قالت بتلقائية.

توقف قصير.

«الآن تحوّلت ليلتي إلى حكاية من حكايات الجن، ذكرى ذهبية جميلة. تخيلي ليلة بيضاء شاحبة. كنت وحيدًا. وكان الليل كثيفًا وثقيلاً كالقطيفة. كنت منهكًا، ركبتاي ترتجفان، أشعر بالدوار. ذلك المجنون الذي ساقني في حلقات طوال ساعات في العشب الرطب، مثل حيوان، ملوحًا لي وهو يقول: «تعال، تعال!». قلت لنفسي لو يدنو مني سآخذ فانوسه وأضربه به على فكه. كان إزعاجًا رهيبًا، ورغبة في أن أهدأ أشعلت سيجارًا وذهبت إلى السرير. استلقيت هناك لفترة أراقب وهج الرماد. ثم سمعت الباب يغلق في الأسفل، وعمّ السكون كل شيء.

«مرت عشر دقائق تقريبًا. الآن هذا مهم: كنت مستلقيًا في السرير يقظًا أدخن السيجار. وبغتة سمعت تمتمة صدرت من السقف المقنطر، كما لو أن السقف ارتفع. اتّكأت على مرفقي، وتركت سيجاري يحترق، مُحدّقًا في الظلمة، لكني لم أرَ شيئًا. عدت واستلقيت مصغيًا، وهذه المرة سمعت أصواتًا بدت قادمة من بعيد، موسيقى رائعة-جوقة من ألف صوت، في مكان ما في الخارج، ربما من السماء، تغني برفق.

دنت الموسيقى أكثر فأكثر، إلى أن صارت آخر الأمر فوقي تمامًا، فوق البرج. نهضت ثانية على مرفقي، وخبرت شيئًا يملؤني بنشوة خارقة كلما فكرت فيه: ظهر عدد هائل من هيئات مضيئة صغيرة ساطعة بيضاء. عدد لا يحصى من ملائكة بدوا أنهم يهبطون على شعاع ضوء مائل. كانوا ربما مليون ملاك، يسبحون في موجات من الأرض إلى السقف وهم يغنون، بِيضًا وعُراةً. حبست أنفاسي وأصغيت. مروا على أجفاني ومسّوا شعري، وبدت القنطرة بكاملها مفعمة بنفس ذكي من أفواههم الصغيرة المنفرجة. وضعت يدي عليهم، اندفع بعض منهم وحط عليها. كما لو أن نجوم الثريا البراقة على يدي. انحنيت ونظرت في عيونهم وأدركت أن هذه العيون كفيفة البصر. حررت سبعة عميان وأمسكت بسبعة آخرين لكنهم كانوا أيضًا مكفوفي البصر، كانوا جميعهم عُميان. البرج برمّته كان مليئًا بملائكة عُمي يغنّون.

استلقيت هناك دون حراك، بهرني هذا المشهد وكانت روحي تتعذب على هؤلاء العميان.

بعد برهة تقريبًا، سمعت صوتًا معدنيًا مكتومًا تردد من بعيد بوضوح شديد لوقت طويل، كانت ساعة البلدة مجددًا-تدق الساعة الواحدة هذه المرة.

فجأة كف الملائكة عن الغناء. رأيتهم ينظمون أنفسهم في ترتيب معين ويحلّقون. حاموا نحو السطح، محتشدين حول الفتحة توّاقين إلى الخروج، يركبون شعاع الضوء العريض، ملتفتين نحوي وهم يرفرفون بعيدًا. التفت الأخير من بينهم مرة أخرى مُحدّقًا إليّ بعينيه العمياوين قبل رحيله.

هذا آخر ما أتذكره-التفت الملاك الأعمى لينظر إلي. ثم اسودَّ كل شيء مجددًا. عدت لأستلقي على السرير و غفوت..

عندما استيقظت، كان ضوء النهار رحيبًا. وحيدًا في الغرفة المقنطرة. كانت ملابسي ملقاة على الأرض بقربي. لا تزال رطبة، لكني ارتديتها مع ذلك. ثم فتح الباب وظهرت فتاة الليلة السابقة أمامي. مشت نحوي، فقلت:

«من أين أتيت؟ أين كنت الليلة الماضية؟».

«في الأعلى هناك،» أجابت، مشيرة إلى سطح البرج.

«ألم تنامي؟».

«لا، كنت أحرس».

«لكن ألم تسمعي غناءً أثناء الليل؟» سألت. «سمعت الموسيقى الأكثر روعة».

«أوه، أنا كنت أعزف وأغني،» أجابت.

«أنت؟ أخبريني بصدق يا عزيزتي هل كنت أنت؟».

«نعم.» مدت لي يدها وقالت: «تعال، سأريك الطريق».

غادرنا البرج ومشينا يدًا بيد عبر الغابة. سطعت الشمس على شعرها الذهبي وكانت عيناها السوداوان مضطرمتين.

أخذتها بين ذراعي وقبلتها مرتين على جبهتها، وسجدت أمامها

على ركبتي. بأصابع مرتجفة فكت شريطًا من فستانها الأسود وربطته على رسغي. بكت وهي تفعل ذلك، كانت العاطفة تغلبها.

«لماذا تبكين؟» سألت. «سامحيني إذا ما فعلت ما تسبب لك بالأذى».

لكن كل ما قالته كان: «هل يمكنك أن ترى البلدة من هنا؟».

«لا،» قلت. «هل يمكنك؟»

«انهض ولنمض،» قالت، وأخذت بيدي. توقفتُ مجددًا وأخذتها بين ذراعي وقلت:

«أنت تجعلينني سعيدًا جدًا. لا يمكنني إلا أن أحبك».

ارتجفت بين ذراعي وقالت: «عليَّ أن أعود الآن. هل يمكنك أن ترى البلدة؟».

«نعم،» قلت، «لكن يمكنك أن تريها أنت أيضًا؟».

«لا،» قالت.

«لمَ لا؟» سألت.

«انسحبت مني وحدجتني بعينيها الواسعتين ومن ثم غادرت مطرقة الرأس. عندما خطت بضع خطوات التفتت ونظرت إليَّ مرة أخرى.

حينها أدركت أنها هي أيضًا كانت عمياء.

«كانت الساعات الاثنتي عشرة التالية فارغة تمامًا بالنسبة إليَّ. امّحت، وواصلت القول لنفسي إنّ تلك الساعات الاثنتي عشرة لا بد من أن تكون قيّمة بطريقة ما، لقد ضاعت وعليَّ أن أجدها. لكن ليس لدي فكرة إلى أين ذهبت.

«حل الليل مجددًا -مساء معتم خريفي رطيب. كنت هناك في غرفتي، وفي يدي كتاب. نظرت إلى ساقي التي كانت لا تزال ندية.

نظرت إلى رسغي-كان مربوطًا عليه شريط أسود. كل شيء ينسجم مع القصة.

طلبت الخادمة وسألتها عما إذا كان يوجد برج مثمَّن مظلم في الغابة، ليس بعيدًا عن البلدة. أومأت وقالت نعم، كان هناك برج. «وهل يعيش أحد هناك؟» سألتها. «نعم يعيش فيه رجل، لكن ثمة خطب فيه، يقولون إنه مسكون بأرواح شريرة، يسميه الناس الرجل الفانوس. لديه ابنة تعيش معه أيضًا».

«قالت ليلة سعيدة وذهبت إلى السرير. في صباح اليوم التالي خرجت مجددًا إلى الغابة. سلكت نفس الدرب، رأيت نفس الأشجار، وأيضًا البرج. عندما بلغت الباب رأيت مشهدًا جمّد قلبي. كانت الفتاة العمياء قتيلة وجسدها مُمدّدًا على الأرض، لقد سقطت كما يظهر، جسدها المكدوم أظهر ذلك بوضوح تام. تمددت هناك بفم فاغر على اتساعه، تشع الشمس على شعرها الأحمر. على حافة السطح مزقة من فستانها علقت كانت لا تزال تخفق مع النسمات. وتحت، عند الدرب المفروش بالحصى، وقف الرجل الصغير الأب، ينظر إلى الجثمان. كان جسده مضطربًا ويولول بصوت مرتفع. ظل يمشي حول الجثمان يغمره الأسى. عندما أحس بوجودي ارتجفت لمرأى تلك العيون الرهيبة. ركضت مرعوبًا عائدًا إلى البلدة.وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها. وهكذا حكيت لك حكايتي الخيالية».

لم تنبس داجني بكلمة، مشت على مهل وعيناها مثبتتان على الأرض. بعد وقفة طويلة قالت: «تلك كانت بالتأكيد حكاية غريبة!».

رانت فترة أخرى من صمت طويل، وحاول نيجل أن يكسرها بقوله شيئًا عن شعور عميق بالسلام في الغابة.

«هل يمكنك أن تشمي الرائحة الرائعة هنا؟ هلا نجلس لدقيقة!»

جلست، منشغلة البال وجلس قبالتها.

كان يشعر بأن عليه أن يبعث فيها البهجة. لم تكن مأساة-حقًا، كل شيء كان محض مغامرة. عندما تقارنها مع حكايات الهند الخيالية الآن يمكنها أن تبهج مزاجك بالفعل! هي على نوعين، أولًا حكايات خارقة للطبيعة عن كهوف ممتلئة بالماس، والأميرات اللاتي نزلن من الجبال، مخلوقات جميلة من البحر، أرواح الأرض والفضاء، قصور من لؤلؤ، وقلاع خلف الأفق، أحصنة طائرة، غابات من الفضة والذهب. ثم هناك قصص تتناول التصوف، وتتضمّن أمورًا عجيبة، غريبة، رائعة. اخترع الشرقيون حكايات خرافية وعظيمة مطرودة من عقول محمومة، لا يمكن أن تبزها حكايات أخرى. من البداية عاش هؤلاء الناس في عالم خيالي، لا واقعي، وكان من الطبيعي بالنسبة إليهم أن يتحدثوا عن الجن -مثل قصور خلف الجبال كما لو أننا نتحدث عن قوة السماء الصامتة العظيمة التي تتسكع في الفضاء، تمضغ النجوم. كان الفرق الأساسي أن هؤلاء الناس يعيشون تحت شمس أخرى ويأكلون فاكهة بدلًا من اللحم.

«لكن ألا تظن أن لدينا أساطير غنية؟» قالت داجني.

«أساطيرنا رائعة لكنها مختلفة. لا يمكننا أن نتصور شمسًا تشع وتلتهب دون رحمة. تحكي حكاياتنا عن الأرض وما تحتها، إنها نتاج خيال الفلاحين بسراويلهم الجلدية، تنتج من ليالي الشتاء القاتمة التي تنقضي في أكواخ خشبية والدخان يتصاعد من السطح. هل قرأت يومًا ألف ليلة وليلة؟ إنها مختلفة جدًا عن الشعر الدنيوي الريفي بحق مثل حكايات جودبراندسدال، فتلك كانت من اختراعنا، وانعكاسًا لعبقريتنا. لا تثير حكاياتنا الرعدة فينا، إنها وهمية ومسلية، تثير ضحكنا. لم يكن بطلنا أميرًا وسيمًا بل ريفيًا ماكرًا. ماذا تقولين؟ ألم

تكن حكاياتنا من الشمال محض خيال؟ ألم نخترع شيئًا من الغموض وجمال البحر الوحشي؟ حسنًا، ستبدو مراكب صيد نوردلاند للشرقي مثل سفينة شبحية خرافية خارجة من حكاية خيالية حقًا. هل سبق لها أن رأت تلك المراكب الشراعية؟ لا؟ إنها تبدو مثل أنثى حيوان كبير عظيم، تنتفخ بطنها بمولود مقبل، وتجلس على ذيل مسطح. أنفها ناتئ مثل قرن يستدعي الرياح الأربع.. نعيش في أقصى الشمال. حسنًا، بأية حال هذا كان رأي متواضع لمهندس زراعي عن حقيقة جغرافية.

لا بد من أن تعبها تفاقم من ثرثرته هذه المرة. كانت هناك لمحة من السخرية في عينيها الزرقاوين عندما سألت:

«كم الساعة؟».

«الساعة؟» قال، كما لو أنه شارد الذهن. «لا بد من أن تكون الواحدة-لكن لا يزال الوقت مبكرًا».

توقف قصير.

«ما رأيك بتولستوي؟» سألت.

«لا أهتم لأمره كثيرًا،» قال، وكأنّه يتحيّن فرصة مواصلة المحادثة. «أحببت آنا كارنينا، الحرب والسلم، و...».

سألت مبتسمة: «وما رأيك بإمكانية سلام دائم؟».

كان سؤالًا جيدًا! لقد فقد ثقته بنفسه ولم يستطع التفكير في أي شيء يقوله.

«ماذا تعنين؟ أوه، لا بد من أني كنت أضجرك».

«لا، صدقًا كانت مجرد فكرة خطرت لي»، قالت بسرعة متوردة. «لا تتكدر. ما جعلني أفكر في ذلك كان أننا ننظم سوقًا خيرية بغرض تمويل الدفاع».

توقف قصير.

نظر إليها فجأة، كانت عيناها مفعمتين بالحيوية. «سأعترف بشيء. أشعر بالسعادة الليلة، وربما هذا ما دعاني إلى التحدث كثيرًا. كلّ شيء رائع، لكنّ أكثر الأشياء روعةً، حقيقةُ أني أسير هنا معك. الليلة هي أجمل الليالي التي عرفتها على الإطلاق. لا يمكنني أن أشرح، لكن كما لو أني كنت جزءًا من الغابة، من الطبيعة، غصنَ تنوب، أو حجرًا، نعم، حتى حجر، لكنه حجر يتخلله عطر شديد الحساسية والشعور بالسلام المحيط بنا. انظري هناك، يكاد الفجر ينبلج. هل ترين ذلك الشريط الفضي؟».

نظرا نحوه لبرهة.

«أنا أيضًا سعيدة الليلة،» قالت.

قالت ذلك باندفاع وتلقائية كما لو كانت تحتاج إلى التعبير عن ذلك لنفسها.

نظر نيجل إليها بجدية وشرع يتحدث ثانية. بعصبية بدأ متعجلًا في مونولوج عن عشية منتصف الصيف، قال إن الأشجار كانت تتأرجح وتهمهم، حتى أن قدوم الفجر كان له تأثير غريبٌ فيه، واضعًا إياه تحت فتنة القوى السحرية. كما عبر جروندفيج[1] عن ذلك في أغنية:

«نحن أطفال الضوء، والآن انتهى ليلنا!» لكن بدلًا من التحدث كثيرًا، ربما قد يُريها خدعة بقشة وعسلوج، ليثبت أن القشة أقوى من العسلوج. لم يكن هناك أي شيء لا يستطيع فعله لأجلها...

«انظري هناك إلى شجيرة العرعر الوحيدة تلك-أحيانًا يحتل أكثر الأمور بساطة خيالي. يبدو أنها تنحني لنا بمودة شديدة. ويغزل العنكبوت شبكته من شجرة إلى شجرة. يبدو شبيهًا بتصميم صيني،

(1) نيكولاي فريدريك جروندفيج: (1783-1872) كان قسًا وكاتبًا وشاعرًا دانماركيًا.

مثل شموس تغزل من المياه. أنت لا تشعرين بالبرد، أليس كذلك؟ أنا واثق من أننا محاطان بأقزام دافئة ترقص مبتسمة في هذه اللحظة بالذات-لكن لو كنت تشعرين بالبرد سأوقد نارًا. بالمناسبة خطر لي للتو، ألم يجدوا كارلسن في مكان قريب من هنا؟».

هل كان يحاول أن ينتقم منها؟ بدا أهلًا لفعل أي شيء.

وثبت على قدميها مذعورة تصرخ: «كف عن ذلك رجاء! أي شيء رهيب تقوله!».

«أنا آسف» قال نادمًا. «لكنهم يقولون إنه كان يحبك، لا أستطيع أن ألومه على ذلك...».

«يحبني؟ ولا يقولون أيضًا إنّه قتل نفسه بسببي-بسكيني؟ لنمض الآن».

كانت في صوتها مسحةُ حزن ولكن ما من أثر للارتباك أو للتكلّف في سلوكها. أذهلته ردّة فعلها. لم يبد أنّ لمعرفتها بتسبّبها في موت واحد من معجبيها أيّ تأثير فيها. لم تكن ساخطة، ولم تحاول أن تستغل الأمر لصالحها. حسبها أن ألمحت إليها كحادثة مأساوية وتركتها تمضي عند هذا الحد. انسدل شعرها الطويل الأشقر على ياقة فستانها، وكان في خديها المخضلّين بالندى في ذلك الحين وهج دافئ نضر. تأرجح وركاها بخفة وهي تسير.

خرجا من الغابة وبلغا أرضًا مقطوعة الشجر. نبح كلب وقال نيجل: «ها نحن الآن عند البيت. تبدو تلك المباني الكبيرة البيضاء مغرية جدًا-والحديقة، وبيت الكلب، وسارية العلم-تمامًا في وسط الغابة! آنسة كيلاند، ألا تظنين أنك ستحنّين لهذا المكان عندما تغادرينه، أقصد عندما تتزوجين؟ حسنًا، بالتأكيد هذا يعتمد على المكان الّذي ستعيشين فيه».

«لم أفكر في هذا حقيقة،» قالت مضيفة «يكفي حتى اليوم...».

«...هو الفرح منه!».

توقف قصير.

بدت أنها تفكر فيما قاله.

«على فكرة،» قالت، «آمل أنك لست متفاجئًا لكوني في الخارج حتى هذه الساعة المتأخرة. فنحن نسهر كثيرا هنا. إنّنا ريفيون، أطفال الطبيعة. ولطالما تمشينا أنا والسيد هولتان على هذا الطريق وتحدثنا حتى انبلاج الفجر».

«السيد هولتان؟ لم يظهر لي أنه ثرثار».

«حسنًا، أظن أني كنت من يسوق الحديث، بمعنى أني كنت أطرح أسئلة وهو يجيب. ما الذي ستفعله الآن عندما تعود إلى غرفتك؟».

«الآن؟ سأذهب إلى السرير وأنام حتى الظهر تقريبًا، مثل خشبة، مثل الميت، دون أن أستيقظ مرة ودون أحلام. ما الذي ستفعلينه؟».

«ألا تستلق مستيقظًا وتظلّ تفكر في شتّى الأمور؟ هل تنام دومًا مباشرة؟».

«في الدقيقة التي ألقي برأسي على الوسادة. وأنت؟».

«اسمع! طائر! لا بد من أن يكون الوقت قد تجاوز ما تقول. دعني أرَ ساعتك. يا إلهي لقد تجاوزت الثالثة-إنها الرابعة تقريبًا! لِمَ قلت للتو إنها الساعة الواحدة؟».

«آسف،» قال.

نظرت إليه، لكن دون أدنى أثر للضيق وقالت: «لست بحاجة لأن تكون مخادعًا جدًا. صدقًا كنت لأبقى حتى هذا الوقت المتأخر، حتى لو كنت على علم. آمل أنك لن تسيء فهمي. لا أهتم لكثير من الأشياء وعندما

أفعل أتمسك بها بكلتا يدي. هكذا عشت منذ مجيئي إلى هنا، ولم أصدم أحدًا على حد علمي. فكر في الأمر، أنا لست واثقة كثيرًا من ذلك، لكن لا يهم. بأية حال أبي لا يمانع وهو من أحسب له حسابًا. لنغذَّ السير».

عبرا ببيت الكاهن ودخلا الغابة من الجانب الآخر. كانت الطيور تغرد، واستمر شريط الضوء الأبيض في الشرق بالاتساع. انحسرت المحادثة، لم يتحدثا عن شيء معين. بعد مدة التفتا وعادا إلى بوابة البيت.

«مرحبًا، أيها الولد الكبير،» قالت لكلب الحراسة الذي كان يجر سلسلته. «شكرًا لك لمرافقتي إلى البيت سيد نيجل. لقد كانت أمسية رائعة. الآن سيكون لدي ما أكتب عنه إلى خطيبي. سأخبره أنك مختلف عن جميع الرجال وعن كل شيء. لن يعرف ماذا يفعل بها. يمكنني أن أراه الآن، يعيد قراءة الرسالة ونظرة مشوشة تعلو وجهه. إنه رجل لطيف-لا يمكنك أن تتخيل كم هو طيب! لا يقول أبدًا أي شيء قد يجرح مشاعر أحد. من العار ألا تلتقيه وأنت هنا. ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة،» قال نيجل ولم يُزح عينيه عنها حتى اختفت داخل المنزل.

خلع نيجل قبعته ومشى في الغابة. كان غارقًا في أفكاره. توقف عدة مرات، نظر عاليًا وحدق مباشرة للحظة تقريبًا، ومن ثم مشى نفس المشية المتئدة. يا لجمال صوتها! لم يسمع من قبل مثيلًا له -كانت كل كلمة من كلماتها موسيقى.

الفصل التاسع

في ظهيرة اليوم التالي نهض نيجل وغادر الفندق دون أن يتناول طعام الفطور. تجول في معظم أنحاء البلدة، يغويه الطقس الرائع وأرصفة الميناء المفعمة بالحياة. وكأن دافعًا مباغتًا دفعه للالتفات إلى رجل مستفسرًا عن كيفية الوصول إلى مكتب القاضي. أرشده الرجل وكان نيجل في طريقه. قرع ودخل مارًا بعدة موظفين منهمكين في مكاتبهم، توجه إلى النائب السيد رينيرت وطلب التحدث إليه بضع دقائق-لن يستغرق وقتًا طويلًا-نهض رينيرت على مضض وأدخل نيجل إلى مكتب خاص.

بدأ نيجل بالقول: «رجاء سامحني على العودة إلى هذا الأمر مرة أخرى-أقصد القزم. آمل قبولك اعتذاري العميق.

«ظننت أن القضية منتهية بعد اعتذارك في حضرة الجميع عشية منتصف الصيف».

«هذا لطف كبير منك،» قال نيجل. «لكنّي لا أشعر بتمام الرضى للكيفية التي سوينا الأمر بها، سيد رينيرت. فيما يتعلق بي، نعم، لكني أفكر في القزم. آمل أنك قد تشعر بأن القزم يستحق اعتذارًا وأنك الشخص المخول بتسوية الأمور معه».

«هل تقول بأن عليّ الذهاب للاعتذار من ذلك الأحمق على مجرد مزحة؟ هل هذا ما تعنيه؟ من الأفضل أن تهتم بنفسك ولا...».

«نعم، لقد خضنا في ذلك من قبل! لكن بالعودة إلى الفكرة: لقد حولت معطف القزم إلى مزق وكنت وعدته بمعطف جديد، ألم تفعل؟».

«انظر هنا. أنت في مكتب عام وتتكلم عن مسألة خاصة حتى أن لا شأن لك بها. هذا مكتبي. ليس عليك أن تعود عبر المكتب الرئيس، لعلك تغادر من هذا الباب».

وفتح النائب الباب الجانبي لنيجل.

«شكرًا لك. لكني لا أزال أشعر بأن عليك أن ترسل للقزم المعطف الذي وعدته به، في الحال. هو يحتاج إليه، وهو واثق من أنك تفي بوعودك».

عند هذا، طوح رينيرت بالباب فاتحًا إياه على مصراعيه صارخًا: «اخرج!».

«يعتبرك القزم رجلًا شريفًا،» تابع نيجل، «وليس عليك أن تخذله».

الآن فتح النائب الباب المؤدي إلى المكتب الخارجي واستدعى موظفين اثنين. أمال نيجل قبعته وغادر دون أن يضيف كلمة أخرى.

لقد سارت الأمور على نحو سيّئ بالفعل. كان من الحكمة أن يبقى خارج الأمر برمته. ذهب نيجل إلى غرفته، وتناول طعام الغداء، قرأ الصحف، ولعب مع الجرو، جاكوبسن.

بعد ظهر ذلك اليوم، وهو ينظر من النافذة، رأى نيجل القزم يسير جاهدًا على طول الطريق المفروشة بالحصى قادمًا من أرصفة الميناء، يحمل كيسًا من الفحم. منحنيًا بشدة تحت وطأة ثقله حتى أنه لم يستطع رؤية وجهته. كانت ساقاه متقلقلتين للغاية وسار باعوجاج شديد حتى أن سرواله كان مهترئًا إلى مزق في الثنايا. خرج نيجل ولاقاه عند مكتب البريد، حيث كان القزم قد حطَّ كيسه ليستريح قليلًا.

انحنى كلّ منهما للآخر. وعندما كان القزم يستقيم بدا بجلاء

ميلانٌ في كتفه اليسرى. أمسك نيجل به ودون أن يرخي قبضته همس بعنف: «هل أخبرت أحدًا عن المال الذي أعطيتك إياه؟ هل تفوهت بكلمة عنه لأي شخص؟».

أجاب القزم مأخوذًا: «لا، لم أفعل، ولا أية كلمة!».

«أقول لك فقط،» قال نيجل شاحبًا من شدة الغضب. «إذا ما تفوهت بكلمة عن ذلك المبلغ القليل، سأقتلك! سأقتلك! هل تفهم؟ وقسمًا بالله من الأفضل أن تخبر عمك أن يلتزم الصمت أيضًا!».

وقف القزم هناك فاغر الفم يتلعثم بشكل مفكك، لن يقول شيئًا، ولا كلمة، وعد.. أقسم..

أضاف نيجل كما لو ليعتذر على فورته العنيفة نوعًا ما: «هذه فجوة، بلدة نائية صغيرة فاسدة. لا يمكنني أن أتحرك دون أن يحدّق الناس إليّ. لا يمكنني تحمل هذا التلصص الدائم! ليذهبوا إلى الجحيم جميعًا! وقد أعذر من أنذر! أيضًا، لدي سبب لأؤمن أن هذه الآنسة كيلاند من بيت الكاهن، ماهرة في استدراجك وجعلك تتكلم. لكني لها بالمرصاد، ولن أقبل أيّ من تلصّص منها. لقد التقيتها الليلة الماضية. إنها لعوب عظيمة، لكن هذا خارج عن الموضوع. ولا بد من أن أصر مُجدّدًا على ألاّ تذكر شيئًا عن صفقتنا الصغيرة. أنا سعيد لرؤيتك. أردت أن أسألك أمس الأول، عندما كنا جالسين معًا على شاهدة القبر في المقبرة».

«نعم».

«كتبت بضعة أبيات من الشعر على ذلك الحجر. أعترف بأنها كلمات فاسقة وغير لائقة، لكن هذا ما حدث. عندما غادرت كانت لا تزال موجودة، لكن عندما عدت بعد بضع دقائق شخص ما كان قد محاها. هل كنت أنت؟».

غض القزم بصره وقال: «نعم».

مرتعدًا من ضبطه وقد أتى على أمر بهذه الجرأة من تلقاء نفسه، حاول القزم أن يشرح متلجلجًا:

«أردت أن أمنع... أنت لا تعرف مينا ميك، وإلا لما كنت فعلت ذلك أبدًا... لم تكن لتستطيع كتابة تلك الكلمات. قلت لنفسي إنك لا بد معذور لكونك غريبًا، وطالما أني أعيش هنا كان من السهل أن أزيل ما كتبت-لذا ظننت أن بوسعي ذلك. مسحت الكلمات-لم يرها أحد».

«كيف تعرف؟»

«لم يرها أحد. بعد أن ذهبت معك والطبيب ستينرسن إلى البوابة، عدت في الحال ومحوتها. تغيبت لبضع دقائق».

نظر نيجل إليه، أمسك بيده وعصرها دون أن ينبس بكلمة. تبادلا النظرات، ارتجفت شفتا نيجل قليلًا. «وداعًا،» قال. «بالمناسبة هل حصلت على المعطف؟».

«لا، لكني واثق من أنني سأحصل عليه عندما أحتاج إليه. خلال ثلاثة أسابيع...».

فيما بعد مرت مارتا جودي امرأة البيض ذات الشعر الأشيب. كانت تحمل سلتها تحت مئزرها، عيناها السوداوان مخفوضتين. حياها القزم، وانحنى نيجل أيضًا، لكنها كادت لا ترفع بصرها نحوهما. أسرعت متجهة إلى السوق، حيث باعت البيضتين الاثنتين أو الثلاث اللاتي كانت بحوزتها، وغادرت مجددًا ونقودها في يدها. كانت ترتدي فستانًا أخضر من قماش خفيف.

قال نيجل وعيناه مثبتتان على الفستان: «إذن تحتاج إلى المعطف بعد ثلاثة أسابيع؟ ما المناسبة؟».

«سوق خيرية، احتفال كبير. ألم تسمع عنه؟ سألعب دورًا في اللوحة المسرحية-كلفتني الآنسة داجني بلعب دور فيها».

«فهمت،» قال نيجل بترو. «حسنًا، ستحصل على معطف بدلًا من المعطف القديم. قال السيد رينيرت هذا بنفسه اليوم. هو ليس سيئًا للغاية في الحقيقة. لكن تذكر وتذكر جيدًا: لا ينبغي عليك أن تشكره أبدًا! أبدًا! لا ينبغي عليك أن تشير إلى ذلك المعطف في حضرته-هو لا يرغب في أي امتنان. لأن هذا سوف يهينه في العمق. إلى جانب أنك تدرك بأنه لا يرغب في أن يتم تذكيره بذلك اليوم عندما ثمل وثار في الفندق وبدا شديد الحمق وقبعته منهكة القوى».

«نعم».

«ولا تخبر عمك عن مصدر حصولك على المعطف أيضًا، لا يجب أن يعلم أحد. يصر السيد رينيرت على ذلك. أنت تدرك بالتأكيد أنه سوف يبدو شديد الحماقة إذا ما شاع أنه كان فظًا للغاية ومتمردًا وأنه توجب عليه أن يسوي الأمر بتقديم معطف».

«نعم، أفهم».

«قل لي، لمَ لا تستعمل عربة يد لإيصال فحمك؟».

«لا يمكنني بسبب إصابتي. يمكنني أن أحمل الكثير من الوزن إذا ما أخذت الحذر، لكني لا أستطيع أن أدفع أو أجر أي شيء، إذا ما فعلت أرهق نفسي وأسقط على وجهي متسببًا بألم عظيم، لكن حمل كيس واحد ليس بهذا السوء».

«هذا جيد. تعال لزيارتي مجددًا. رقم 7 -تتذكر؟ فقط ادخل إلى اليمين».

وهو يقول هذا دس ورقة نقدية في يد القزم وبسرعة هبط الشارع

نحو أرصفة الميناء. كانت عيناه على الفستان الأخضر طوال الوقت، وها هو يتعقّبه الآن.

نظر برهة من حوله. لم يكن أحد يشاهده. قرع الباب، لكن لم يفتح أحد. كان قد قرع مرتين في السابق دون أن يلقى ردًا، لكن هذه المرة رآها عائدة إلى البيت من السوق وكان عازمًا على عدم المغادرة قبل أن يدخل. فتح الباب بجرأة ودخل.

كانت تقف وسط الغرفة تنظر إليه. شحب لونها وكانت في حالة هلع شديد لأنه وقف هناك يمسك يديها الممدودتين غير عارفة ماذا تفعل.

«رجاء سامحيني على التسلل بهذه الطريقة،» قال نيجل، منحنيًا انحناءة احترام استثنائية. سأقدر لك كثيرًا سماحك لي بالتحدث إليك لبرهة. أعد بأنه لن يستغرق وقتًا طويلًا. لقد زرتك مرتين لكني لم أجدك في البيت للأسف. اسمي نيجل، أنا غريب في البلدة وأقيم في الفندق المركزي».

حتى ذلك الحين لم تكن قد فاهت بكلمة، لكن دفعت نحوه بكرسي وبدأت تمشي باتجاه باب المطبخ. كانت في حالة تشوش بالغ، وعندما نظرت إليه ظلت تعبث بمئزرها.

كانت الغرفة على الشكل الذي رسمه لها في ذهنه-طاولة، وكرسيان، وسرير، تؤلف الأثاث الوحيد تقريبًا. عند النوافذ كانت بعض النباتات تتفتح منها زهور بيضاء، لكن لم يكن من ستائر ولم تكن الأرض نظيفة. لاحظ نيجل الكرسي الرث ذا المسند العالي في زاوية بالقرب من السرير. لم يكن له سوى قائمتين مسنودًا إلى الجدار: مشهد مثير للحزن. كان المقعد مكسوًا بخملة حمراء.

«أرجوك، ينبغي أن أوكد لك أنه ما من شيء يدعوك إلى القلق،»

قال نيجل. «أنا لا أخيف الناس عادة عندما آتي للزيارة. هذه ليست المرة الأولى التي أزور فيها الناس هنا في البلدة، لذا فأنت لست الوحيدة. أذهب من بيت إلى بيت وأجرب حظي في كل مكان-ربما سمعت بي؟ لا؟ حسنًا هذا حقيقي. إنه جزء من عملي-أنا من هواة الجمع-أشتري شتى أنواع الأشياء القديمة وأدفع ما قد تستحقه من ثمن. لا تكوني مذعورة! أنا لست لصًا-أؤكد لك أنني لست معتادًا على السير حاملًا متعلقات سواي. أنت في مأمن تمامًا معي. إذا لم يكن بوسعي أن أساوم بطريقة ودية وأشتري ما أريد بما يرضي الطرفين فأنا لست مهتمًا».

«لكن ليس لدي أشياء قديمة،» قالت أخيرًا وهي تبدو عاجزة ومرتبكة تمامًا.

«هذا ما يقوله الجميع،» أجاب. «لدى الكثير من الناس أشياء أصبحوا مرتبطين بها، أمور يكرهون الانفصال عنها-أشياء لعبت دورًا في حياتهم، ربما متاع موروث من الأهل أو الأجداد. لكن كل هذه الأشياء المنبوذة تتكدس وهي لم تعد تُستعمل بتاتًا! لمَ عليها أن تأخذ حيزًا في حين يمكن استبدالها بالمال؟ بعض من هذه الأنتيكات العائلية عديمة الفائدة ثمينة بحق، لكن ينتهي بها الأمر بأن تتناثر إلى شظايا ويتم نفيها إلى العلية. لذا لمَ لا نبيعها وهي لا تزال بحالة جيدة؟ يتضايق أناس بسطاء عندما أزورهم ويقولون لي إنهم لا يحتفظون بالأشياء القديمة. حسنًا، هذا امتيازهم. لا يمكنني فعل شيء، لذا أنحني وأغادر. ثم هناك هؤلاء الذين يتحرجون ويرفضون أن يعرضوا لي إناءً مثقوبًا للطهي. هم فقط لا يقدّرون قيمة الأشياء. إنهم سذج ليست لديهم فكرة عن الطريقة التي أصبح بها جمع الأشياء صرعة شهيرة هذه الأيام. أقول صرعة

برويّة، أعترف بأنه هوس حقيقي يدفعني، وعلاوة على ذلك، أسميه باسمه الحقيقي. قد أكون أيضًا صادقًا بشأنه. لكن تلك بالتأكيد مسألة شديدة الخصوصية. ما أردت قوله إنها لحماقة وسخف من هؤلاء الناس في تحفظهم الشديد بشأن عرض قطعة قديمة. انظري إلى حالة التفكك التي عليها الأسلحة والخواتم التي يعثر عليها في هضاب دفينة عتيقة! هل هذا يعني أنها عديمة القيمة؟ لا بد من أن تري مجموعة جلاجلي! لدي جرس حديدي عادي-كان مقدسًا لدى عشيرة هندية. تخيلي-عُلّق طوال عصور على عمود خيمة في مستوطنتهم، شيء للدعاء والأضاحي. فقط فكري في ذلك! لكن لنعد إلى موضوعنا-عندما تطرقت إلى موضوع جلاجلي حُملت بعيدًا».

«لكن أنا حقيقة ليس لدي أي أشياء قديمة من هذا القبيل،» قالت مارتا ثانية.

ادعى نيجل مظهر الخبير وقال على مهل: «هلا سمحت لي أن ألقي بنظرة على الكرسي هناك؟ بالتأكيد لن أتحرك قيد أنملة بغير إذنك، لكن وقعت عيني عليه منذ لحظة دخولي من الباب».

قالت مارتا مرتبكة: «ذلك الكرسي... بالتأكيد... لكنّ اثنتين من قوائمه مكسورتان..».

«نعم، القائمتان مكسورتان. لكن ما الفرق؟ على العكس، هذا قد يعزز قيمته. هل لي أن أسأل عن مكان حصولك عليه؟».

كان نيجل يتفحص الكرسي، مقلّبًا له وينظر بعناية في كل تفصيل. كان الطلاء قد تبدد وكان التزيين الوحيد ما يشبه التاج على المسند منحوتًا في خشب الماهاغوني. شخص ما قرَّضه بسكين، وتشير أشغال الخشب حول ثقب المقعد إلى أنه استُعمل سابقًا لتقطيع التبغ.

«حصلنا عليه من الخارج-لا أتذكر من أين. جلب جدي مرة عدة

كراسي متشابهة وهذا آخر ما بقي منها. كان بحارًا».

«هل كان والدك أيضًا بحارًا؟».

«نعم».

«هل رافقته في أسفاره؟ اعذري تساؤلي».

«نعم، لقد أبحرت معه لعدة سنوات».

«كم هذا مثير للاهتمام! لا بد من أنك زرت عدة بلدان، تمخرين البحر المالح، كما يقال. ثم عدت إلى هنا لتستقري؟ حسنًا، ما من مكان كالوطن، أليس كذلك؟ أليست لديك فكرة حقًا من أين أتى جدك بالكرسي؟ أنا أضع أهمية بالغة على معرفة مصدر كل شيء- كل ما يمكنني معرفته حوله».

«لا، لا أعرف من أين حصل عليه. ربما من هولندا. لا أعرف».

لحظ بكل سرور أنها كانت تجيبه وتزداد حيوية أكثر فأكثر. تقدمت نحوه ووقفت قريبة تمامًا وهو يواصل معاينة كل تفصيل من تفاصيل الكرسي، كأنما لا يستطيع أن يرفع عينيه عنه. استمر بإبداء الملاحظات حول التفاصيل وحول البراعة في العمل، تحدث على نحو متواصل. كان مبتهجًا لاكتشاف قرص صغير في الظهر مركّب عليه قرص آخر -قطعة من النقش غير متقنة الصنع منفذة على نحو سيّئ. كان الكرسي مفككًا وتعامل معه بعناية بالغة.

«حسنًا،» قالت. «تستطيع الحصول عليه إذا كنت تريده حقًا، إذا كان سيمنحك المتعة. سأجلبه إلى الفندق لو ترغب. إنه غير مفيد بالنسبة إليّ.» وفجأة ضحكت على حماسته للحصول على هذا الكرسي الذي أكله الدود. «إن له قائمة واحدة سليمة،» قالت.

نظر إليها. بالرغم من أن شعرها كان أبيض إلاّ أنّ ابتسامتها ابتسامة امرأة شابة مشعة وأسنانها مثالية. عندما ابتسمت تألقت

عيناها. يا لها من عانس داكنة وساحرة العينين! ملامح نيجل لم تتغير.

«أنا مسرور لرغبتك في التخلي عن الكرسي،» قال دون تكلف.

«لنتحدث الآن عن السعر-لا رجاءً دعيني أنهي كلامي. لن أدعك تحددين السعر، أنا أفعل ذلك بنفسي دومًا. أثمّن الغرض وأعرض السعر، وهذا هو! وإلا قد تطلبين الكثير وتحاولين إرغامي على القبول بشروطك-ولمَ لا تفعلين؟ قد تصرّين على أن سعرك ليس باهظًا. هذا حقيقي بما يكفي، لكن مع ذلك عليَّ أن أتعامل مع أنواع مختلفة من الناس وأفضّل أن أحدد السعر بنفسي، لأشعر أني مسيطر. إنها مسألة مبدأ. لو كان الأمر عائد إليك، ما الذي يمنعك من طلب ثلاثمئة كرون مقابل ذلك الكرسي؟ ستبررين طالما أنك تعرفين أننا نتحدث عن قطعة نادرة وقيمة. لكني لا أستطيع أن أدفع سعرًا خياليًا بهذا القدر -أقول لك هذا بكل صدق، طالما أني لا أرغب في أن يكون عندك أي أوهام زائفة. أنا لن أدمر نفسي ماليًا، سأكون معتوهًا لو دفعت لك ثلاثمئة كرون ثمنًا لذلك الكرسي! سأدفع لك مئتين ثمنًا له ولن أزيد شلنًا. أنا أرغب في دفع ما أعتبر أن الغرض يستحقه لكني لن أزيد على ذلك».

تفرست به فاغرة العينين بذهول لكنها لم تقل كلمة. ثم في لمحة خطر لها أنه لا بد يمزح، وابتسمت ابتسامتها المترددة المحرجة.

برويّة متعمّدة أخرج نيجل الأوراق النقدية الحمراء من محفظته ولوح بها، ولم يزح نظره عن الكرسي.

«من الممكن أن يدفع لك شخص آخر مبلغًا أكبر بقليل-سأعترف بذلك بصدق تام. لكنّي قدّرت قيمة هذه القطعة بمئتين، ولا أشعر بأني أستطيع أن أزيد عليها. القرار يعود لك، لكن فكري في الأمر. مئتا كرون ليس سعرًا سيئًا كما تعلمين».

«لا،» أجابت بابتسامتها الخفرة، «لكني لا أريد نقودك».

«لا تريدين نقودي؟ ماذا تعنين؟ ما الخطب في نقودي؟ هل تظنين أنها مزيفة؟ بالتأكيد لا، هل تظنين أنني أتيت بها بطريقة مخادعة؟».

فارقتها الابتسامة. بدا جادًا وكانت تقلب الفكرة في ذهنها. هل كان هذا الرجل الغريب الأطوار يحاول أن يحصل على شيء منها؟ له عينان داهيتان -قد يكون قادرًا على أي شيء. بدا أن لديه دافعًا خفيًا، كما لو أنه ينصب فخًا لها. لمَ عليه أن يأتي إليها، من بين الجميع، ويقدم المال؟ توصلت على ما يبدو إلى قرار وقالت: «إذا كنت تصر على منحي كرونًا أو اثنين مقابل الكرسي سأثمن ذلك لكن لا أريد أكثر».

بدا مستثارًا قليلًا واقترب منها أكثر. ثم بدأ بالضحك: «لأول مرة خلال السنوات التي قضيتها في جمع الأشياء يحدث لي شيء مثل هذا! حسنًا، يمكنني أن اعتبرها مزحة!».

«لكنها ليست مزحة! لم أسمع يومًا شيئًا بهذا القدر من السخافة! لا أريد شيئًا. إذا كنت تريد الكرسي خذه!».

ضحك نيجل بصوت مرتفع. «لا أحد يقدّر قيمة النكتة الجيدة مثلي. أضحك على نكتة جيدة حتّى ينتابني الدُوار. لكن الآن لنعد إلى القضية. ألا تظنين أن علينا أن ننتهي من هذا ونحن في مزاج جيد؟ خلال دقيقة قد تعيدين الكرسي إلى زاويته وتصرين على خمسمئة!».

«لكن خذه! أنا.. أنا لا أفهم».

وقفا هناك وكلّ واحد منهما يحدّق إلى الآخر بجديّة.

«إذا كنت تظنين أني أفكر في أي شيء سوى الحصول على الكرسي مقابل سعر معقول فأنت مخطئة.» قال.

«لكن بحق السماء خذه، إنه لك!» صرخت.

«أنا ممتن للطفك. لكن سواء كنت تصدقين أم لا، لدينا -نحن هواة الجمع-ميثاق شرف، بالرغم من أنه لا يكون دومًا شديد

الوضوح، من شأنه أن يظهر نفسه، يشب على قائمتيه الخلفيتين، إذا جاز التعبير، لو حاولت يومًا الحصول على غرض ثمين بوسائل غير شريفة، ستصغر قيمة مجموعتي برمتها في تقديري، أنا هاوي الجمع-إذا ما حصلت على غرض بتلك الطريقة. لكنه قد ينعكس على المجموعة برمتها. لكن يا للتضارب-أنا واقف هنا أناقش قضيتك بدل الاهتمام بمصالحي! لكن يبدو أني محرج.»

لن تستسلم، ولم يتوصل إلى نتيجة معها. كانت متعنتة، بمقدوره أن يأخذ الكرسي مقابل بضع كرونات أو ينسى أمره. قال أخيرًا ليحفظ ماء وجهه غير قادر على ثنيها: «حسنًا، لندع الأمر إلى حين. لكن هل تعدين بألا تبيعي الكرسي لأي شخص آخر قبل أن تخبريني؟ لأني لن أتخلى عنه، حتى لو كان أغلى ثمنًا قليلًا. بأية حال أنا راغب في مقارنة سعر أي شخص آخر وتذكري أنني كنت الأول!».

غادر وسار في الشارع غاضبًا. يا للمخلوقة العنيدة-فقيرة ومتشككة! وذلك السرير! ليس حتى فرشة من القش، ولا ملاءة، فقط تلك التنورتان-ربما كان عليها ارتداؤهما سوية في النهار لتقي نفسها من البرد! ومع ذلك كانت شديدة الهلع من التورط حتى أنها رفضت عرضًا جيدًا! لكن أي شيطان يجعله يهتم؟ هو لم يهتم أبدًا. لكنها كانت بالفعل شديدة التطرف! لنفترض أنه أرسل رجلًا ليعرض سعرًا للكرسي رغبة في رفعه، هل سيثير هذا شكوكها؟ يا لها-من حمقاء عنيدة! لكن لمَ ذهب إلى هناك وعرَّض نفسه لهذا الصد؟

كان مستغرقًا في غضبه وهياجه حتى أنه قبل أن يدرك ذلك، وجد نفسه أمام الفندق. توقف فجأة على حاله من الغيظ وعاد إلى الشارع متجهًا إلى متجر الخياط ج. هانسن. تحدّث إلى صاحب المتجر على انفراد وطلب منه تفصيل معطف، مختارًا القَصة والقماش، وأصرّ

على إبقاء الأمر سريًا. وطلب إرساله حال جهوزه إلى القزم جروجارد، رجل إيصال الفحم الكسيح الذي..

هل كان المعطف للقزم؟

نعم وماذا في ذلك؟ لمَ يريد أن يعرف؟ أي شأن له في الأمر؟

حسنًا، بشأن المقاسات..

أوه نعم إنه للقزم. بالتأكيد سيأتي لتؤخذ مقاساته-لمَ لا؟ لكن ليس من داع لبحث أي شيء ليس له قطعًا علاقة بالموضوع-هل ذلك مفهوم؟ متى سيكون المعطف جاهزًا؟ خلال بضعة أيام؟ رائع!

عد نيجل النقود، وودعه مغادرًا. انزاح غضبه وفرك يديه معًا بامتنان، متمتمًا لنفسه. نعم، سينجح في مهمته العسيرة في النهاية! انتظر وسترى! عندما وصل إلى الفندق، هرع إلى غرفته ورن الجرس. يداه مرتجفان بنفاد صبر، وبعد ثانية فتح الباب. صرخ: «استمارات برقيات، سارة!».

عندما دخلت فتح حقيبة كمانه، ولذهولها رأت أن هذه العلبة التي كانت تعاملها دومًا بعناية شديدة لم تكن تحتوي إلا على بعض الملابس الكتانية المتربة وبعض الوثائق وأدوات للكتابة، لكن ما من كمان. وقفت مشلولة تحدّق إليها. «استمارات برقيات،» صرخ بصوت مرتفع. «طلبت أوراق برقيات!».

عندما حصل أخيرًا على الاستمارات، كتب مسودة رسالة تأمر شخصًا في كريستيانيا بإرسال مئتي كرون إلى الآنسة مارتا جودي التي تسكن في هذه البلدة. لترسل مغفلة اسم المرسل دون كلمة. يوهان نيجل.

لكن لم يكن لينجح. قرر ألا يفعل بعد أن فكر في الأمر. أليس من الأفضل أن يشرح ويرسل المال مباشرة، ليكون متأكدًا من إرساله؟ مزق البرقية، وأحرقها، وبسرعة كتب رسالة. نعم هذا سيكون أفضل،

رسالة تفيد بمزيد من المعلومات ، بهذه الطريقة يكون لخطته حظ بالنجاح أوفر بكثير. سوف يريها-ويجعلها تفهم! لكن بعد أن وضع المال في المغلف وختمه، بدأ يعيد النظر إليه مرة ثانية. قد تظل مرتابة-كان قد لوح لها بالمئتي كرون. لا، هذا ليس جيدًا. أخرج عشر كرونات من جيبه وجعل المبلغ مئتين وعشر كرونات. ومن ثم مهر المغلف، وأرسله.

للساعة التالية كان مسرورًا جدًا بمخططه. سيسقط المال عليها مثل المن من السماء، مبتعثًا إليها من أيد خفية-معجزة. ما الذي قد يكون عليه رد فعلها عندما سينهمر كل هذا المال عليها! لكن كلما فكر أكثر أصبح أكثر يأسًا. كانت الفكرة مجنونة ومجازفة كبيرة، لقد تصرف بطيش كبير. عند وصول المال، قد تصبح مشوشة ومذعورة وقد تسلمه للآخرين. قد تفرده على النضد في مكتب البريد حتى أن كل البلدة ستعرف بأمره. أو ربما ستتشبث برأيها وتقول: «احتفظ بنقودك!» وعندئذ سيضع الموظف إصبعه في أنفه ويقول: «انتظري ثانية. لدي فكرة.» وقد يقلب في صفحات الدفتر ويجد أن مبلغًا مساويًا أرسل من هنا منذ بضعة أيام بالضبط، ربما حتى نفس الأوراق النقدية -مئتان وعشر كرونات إلى عنوان في كريستيانيا. سيعرف أن المرسل هو يوهان نيجل، غريب يقيم في المركزي.

موظفو مكتب البريد هؤلاء شخصيات متطفلة... رن نيجل الجرس مرة ثانية وطلب من البواب أن يسترد الرسالة. كان في حالة من توتر عصبي طوال اليوم وكان مشمئزًا تمامًا من الأمر برمته. لم يأبه أبدًا لما حصل. وما دخله في تسبب الرب بارتطام مميت على سكة Erie في أميركا النائية حتى؟ لا شيء البتة. ولم يكن يهتم لأمر مارتا جودي إلا قليلًا، عانس البلدة المحترمة.

في اليومين التاليين لم يغادر الفندق.

الفصل العاشر

زار القزمُ نيجل مساء يوم السبت في غرفته الفندقية. كان يرتدي معطفه الجديد ويبتسم.

«لقد قابلت النائب رينيرت، سألني أن أجيبه صراحةً عمن قدم لي المعطف. إنه ماكر-لقد أراد أن يختبرني». قال.

«وماذا قلت؟»

«ضحكت وقلت إنني لن أخبره-ولن أخبر أحدًا-وإن عليه أن يعذرني، وداعًا! أوه، عرفت كيف أتصرف معه! حسنًا، فكرت في الأمر وتوصلت إلى أنني منذ حوالي ثلاثة عشر عامًا لم أحصل على معطف جديد. أريد أن أشكرك على النقود التي منحتها لي المرة الماضية. كان مبلغًا كبيرًا جدًا على شخص مثلي. ما الذي سأفعله بكل ذلك المال؟ لقد غمرتني باللطف، أنا مشوش تمامًا في قرارة نفسي. لكن لكوني طفوليًا جدًا-عرفت بأني سأحصل على المعطف يومًا ما-قلت لك ذلك، ألم أفعل؟ أحيانًا يستغرق الأمر وقتًا، لكن لم يخب أملي يومًا في النهاية. وعدني الملازم هانسن مرة بقميصين صوفيين لم يلبسهما أبدًا. هذا حدث منذ سنتين، لكني واثق من الحصول عليهما كما لو أني أرتديهما الآن. هذا ما يحدث دومًا، يتذكر الناس أخيرًا ويعطونني ما أحتاج إليه في حينه. ألا تظنّ بأنّي أبدو مثل رجل جديد في ملابس لائقة؟».

«لقد مر وقت طويل منذ زيارتك الأخيرة».

«حسنًا، كنت أنتظر المعطف. لم أرغب في المجيء بالمعطف القديم. ربما أكون أخرق، لكني لا أشعر براحة في الحضور بمعطف رث. لا أعرف السبب، لكنه يقلل من احترامي لنفسي. سامحني للتحدث عن احترامي لنفسي كما لو أنه أمر على شيء من الأهمية. إنه ليس كذلك البتة، لكني أشعر به بين الحين والآخر».

«هل أقدم لك بعض النبيذ؟ لا؟ ما رأيك بسيجار؟».

طلب نيجل النبيذ والسيجار. صبَّ لنفسه كاسًا في الحال وشرب، في حين دخن القزم وتحدث بغير توقف. بدا كما لو أنه لن يتوقف أبدًا.

«خطر لي للتو أنك قد تكون في حاجة إلى عدد من القمصان؟ آمل ألا يزعجك سؤالي.» قال نيجل، مقاطعًا إياه فجأة.

اعترض القزم في الحال: «لم يكن هذا سبب ذكري للقمصان. واثق ثقتي بجلوسي هنا أن هذا لم يكن في بالي».

«بالتأكيد لا. لكن لمَ الصراخ؟ إذا لم يكن لديك اعتراض، أحب أن أرى ما ترتديه تحت ذلك المعطف».

«بكل سرور. يمكنك أن ترى هذا الجانب، والآخر ليس سيئًا أبدًا..».

«انتظر دقيقة! يبدو الجانب الآخر أسوأ!».

«ما خطبه؟» صرخ القزم. «أؤكد لك أني لا أحتاج إلى أي قميص في الوقت الراهن. في واقع الأمر، أجد هذا القميص ممتازًا. هل تعلم من قدمه لي؟ إنه الطبيب ستينرسن بنفسه. لا أظن أن زوجته تعلم بأمره، بالرغم من شدة سخائها. حصلت عليه بمناسبة عيد الميلاد».

«عيد الميلاد؟».

«هل يبدو أن وقتًا طويلًا مضى؟ لن أسيء معاملة قميص ممتاز

مثل هذا. أنا أتعامل معه بحذر شديد ولهذا أخلعه ليلًا وأنام عاريًا، وبالتالي لا أرتديه إلا عند الحاجة فلا أمزقه. هذا ما يجعله يصمد مدة أطول ويمكنني أن أشعر بالاحترام، ولا أشعر بالخجل لأني لا أملك قميصًا مناسبًا. لكني مسرور جدًا بامتلاكه لأرتديه في السوق الخيرية، تصر الآنسة داجني على أن أظهر في اللوحة المسرحية. التقيت بها في الكنيسة البارحة. لقد ذكرتك أيضًا...».

«وسأحصل لك على بنطال. سيكون مستحقًا ثمنه كي أراك تمثل أمام الجمهور. إذا كان بوسع السيد رينيرت أن يقدم لك معطفًا يمكنني أن أقدم لك بنطالًا، لكن فقط بنفس الشروط: أن تبقي على سرية الأمر «.

«نعم، بالتأكيد».

«أظن أن عليك أن تحتسي بعض النبيذ. حسنًا، الأمر عائد إليك. ومع ذلك، أحتاج إلى شيء. فأنا أشعر الليلة بالتوتر وبعض الاكتئاب. وأحب أن أطرح عليك سؤالًا قد يكون متهورًا بعض الشيء. هل تعلم أن لك لقبًا؟ هل تعلم أن الناس يلقبونك بالقزم؟».

«نعم، أنا على علم. في البداية جرحني الأمر كثيرًا، وصليت لله بشأنه. أمضيت طوال يوم الأحد في الغابة، راكعًا في ثلاثة أماكن جافة-كان فصل الربيع والثلج يذوب. لكن ذلك حدث منذ عدة سنوات، والآن لا أحد يدعوني سوى بالقزم، وأتصور أني تقبلته. ما الذي دعاك إلى السؤال؟ ما الذي يمكنني أن أفعل إزاءه مع علمي به؟».

«هل تعلم كيف حصلت على مثل هذا الاسم السخيف؟».

«نعم. حدث هذا منذ وقت طويل، قبل أن أصبح أعرجَ، لكني أتذكر الأمر بجلاء. ذات ليلة في حفلة سمر. ربما لاحظت المنزل الأصفر القريب من إدارة الجمارك-إلى اليمين وأنت تهبط؟ في تلك

الأيام كان لونه أبيض ويسكنه رئيس البلدية. كان اسمه سورنسن، عازبًا ومثلي الجنس. كانت ليلة ربيعية وكنت قادمًا من رصيف الميناء، حيث كنت أتجوّل وأنظر إلى السفن. عندما وصلت إلى المنزل الأصفر، سمعت صوت احتفال، هناك كثير من الضوضاء والضحك. بينما كنت عابرًا رأوني وقرعوا على النافذة. دخلت وكان هناك الطبيب كولبي، القبطان ويليام برانتي، فولكداهل ضابط الجمارك، وكثر سواهم. جميعهم غادروا البلدة أو ماتوا. بأية حال، كان هناك سبعة أو ثمانية أشخاص وكانوا جميعًا ثملين. حطموا جميع الكراسي فقط من أجل الضحك. بدا رئيس البلدية مستمتعًا بذلك كليًا، وكان علينا أن نشرب من الزجاجات لأنّهم حطّموا جميع الكؤوس. وبدأت الخمرة وهي تلعب برأسي مثل البقية تزيد على الهرج هرجًا: خلع السادة ملابسهم وركضوا حول الغرفة عراة تمامًا بالرغم من أن الستائر لم تكن مسدلة، وعندما لم أسايرهم تلقفوني وجردوني من ملابسي. حاولت أن أجابههم قدر الإمكان لكن لم يكن بوسعي فعل شيء، فرجوتهم أن يعذروني -أمسكتهم باليد وتوسلت إليهم أن يعذروني».

«على ماذا؟»

«ظننت أني قلت شيئًا جعلهم يتقافزون عليَّ. طلبت منهم السماح فلا يؤذوني إلا أقل ما يمكن. لكن هذا لم يفد بشيء-واستمروا بتجريدي من ملابسي كليًا. وجد الطبيب رسالة في جيبي وبدأ يقرؤها جهارًا. هذا جعلني أصحو قليلًا لأنها كانت رسالة من أمي، التي كانت تراسلني عندما كنت مبحرًا. حسنًا، انتهى الأمر بي إلى نعت الطبيب بالسكّير، لأن الجميع يعلم كم شرب. «أنت سكير!» صرخت، وحينها جنَّ الطبيب وحاول أن يمسك بخناقي، لكن الآخرين أوقفوه. «دعنا نضع بعض الخمر فيه بدلًا من ذلك،» قال رئيس البلدية-كما لو أني

لم أكن قد اكتفيت سلفًا. وحينها بدؤوا يصبون في حلقي من شتى أنواع الزجاجات. بعد ذلك، دخل سيدان-لا أتذكر أيهما-بحوض الماء. وضعوا الحوض وسط الغرفة وأعلنوا أنهم سوف يعمدونني. حسنًا، ظنوا جميعًا أن هذه فكرة عظيمة، وانطلقوا بصرخات رهيبة ليبدوا تأييدهم. ومن ثم عمدوا إلى وضع جميع أنواع القذرات في الماء، بصقوا فيه، وأفرغوا المشروب، وحتى أنهم ذهبوا إلى غرفة النوم من أجل أن يجدوا أسوأ الأشياء ويتخلصوا منها في الماء. وفوق كل ذلك صبوا ملء رفشين من رماد الموقد ليجعلوه أكثر قذارة. ومن ثم كانوا جاهزين للبدء بالمراسم. «لم لا تعمّدون شخصًا آخر؟» سألت ممسكًا رئيس البلدة من ركبتيه. «لقد تعمّدنا،» قال، «وبنفس الطريقة!» وصدقته لأنّه كان يرغب دائمًا في رؤية الناس يسرفون في السكر لكي يقوم بتعميدهم. «تعال هنا،» طلب رئيس البلدية، لكني لم أرضخ، وقفت هناك ممسكًا بمقبض الباب قدر استطاعتي. «تعال إلى هنا في هذه الدقيقة!» صرخ، لكني لم أذعن. لكنه لم يقل «دقيقة[1]» لقد بدت أكثر شبهًا بـ«قزم»، لأن أصله من جودبراندسدال وهذه لهجتهم. لكني لم أتحرك. ثم زمجر القبطان برانتي: «القزم، القزم، هذا هو. علينا أن نعمده باسم القزم!» ووافق الجميع على ذلك، لأني ضئيل جدًا. أمسك اثنان منهما بي وجراني نحو رئيس البلدية، وكنت خفيفًا حتى أن رئيس البلدية رفعني بنفسه وغطسني في الحوض. وضع رأسي، مسح أنفي بقاع الحوض، الذي كان مليئًا بالرماد وشظايا الزجاج المكسور، بعدئذ سحبني وتلا الصلوات عليَّ. ثم كان على العرابين أن يدخلوا في المشهد. رفعني كل واحد منهما في الهواء ومن ثم رماني، وعندما ملوا من هذا، اصطفوا على كلا الجانبين وتقاذفوني من واحد إلى

---

(1) التشابه في اللفظ بين كلمتي «minute» و «midget».

آخر مثل كرة. قالوا إنهم كانوا يفعلون هذا لتجفيفي، وتواصلت تلك اللعبة حتى حل عليهم التعب. ثم طلب منهم رئيس البلدية أن يتوقفوا، فرموني وسموني القزم، جميعهم، صافحوني ودعوني بالقزم ليجعلوا المعمودية رسمية. ثم رموني في الحوض مجددًا-هذه المرة الطبيب كولبي وكان عنيفًا جدًا حتى أنه تسبب لي بأذية كبيرة في خاصرتي- من الواضح أنه لم يستطع أن ينسى دعوتي له بالسكير. منذ تلك الليلة التصق بي اللقب. وفي اليوم التالي عرف كلّ من في البلدة أنّي كنت في منزل رئيس البلدية وأنه تم تعميدي».

«إذن كنت جرحت خاصرتك. لكنك لم تتلقَّ أية إصابة في الرأس؟».

توقف قصير.

«أنت تطرح السؤال نفسه للمرة الثانية عما إذا كنت أصبت في رأسي-لا أفهم ما الذي تود الوصول إليه. لم يصب رأسي في ذلك الوقت-لم يكن هناك ارتجاج من أي نوع، إذا كان هذا ما تلمح إليه. لكن اصطدمت بشدة بالحوض حتى أني كسرت ضلعًا من أضلاعي. لكن الوضع الآن جيد. عالجني الطبيب كولبي مجانًا، ولم أعانِ شيئًا منذ ذلك الحين».

في حين تحدث القزم، كان نيجل يواظب على الشراب. طلب المزيد من النبيذ وصب لنفسه كأسًا آخر. ثم قال فجأة: «هل تعتبرني حكمًا جيدًا على الناس؟ لا تحدّق إليّ بتلك الطريقة-إنه مجرد سؤال ودي. ما أريد معرفته هو هل تظن أني أستطيع أن أرى دخيلة الشخص الذي أتحدث إليه؟».

نظر إليه القزم بذهول، غير عارف ما يقول. تابع نيجل: «رجاء سامحني، في المرة الأخيرة سعدت بزيارتك، بدا أني أزعجتك عندما وجهت إليك بعض الأسئلة المتهورة. قد تتذكر أنه في ذلك الوقت

قدمت لك بعض النقود مقابل أن تتبنى طفلًا. وطالما أني لم أكن أعرفك، لم أعرف كيف أشرح ما أود قوله. لكن يبدو أني أهينك مجددًا، بالرغم من حقيقة أني الآن أعرفك وأحترمك احترامًا عظيمًا. لكني أظن أن هذا عائد لكوني متوترًا اليوم وثملًا تمامًا. هذا كل ما يمكنني قوله دفاعًا عن نفسي. بالتأكيد يمكنك أن ترى بنفسك. يمكنك-لم الإنكار؟ لكن ماذا كنت أقول؟ أوه، نعم: أردت أن أعرف إلى أي حد تعتبرني قادرًا على الحكم على الجنس البشري؟ أظن أنني أستطيع أن أكتشف ما يخفيه صوت من أتحدث إليه-لدي أذن شديدة الحساسية. عندما أتحدث مع شخص، ليس عليَّ أن أنظر إليه لأتتبع أفكاره. يمكنني أن أحس في الحال بكذبه أو محاولته أن يتذاكى عليَّ. الصوت آلة خطيرة. لا أعني جِرس الصوت الذي قد يكون عاليًا أو منخفضًا، شجيًا أو حادًا. أنا لا أتحدث عن الصوت لكن عن العالم الداخلي الذي تنبع منه الأسرار الدفينة. أوه، إلى الجحيم مع ما يكمن خلف الصوت! ولمَ أهتم؟».

شرب نيجل مزيدًا من النبيذ وتابع كلامه: «لمَ أنت هادئ جدًا؟ لا تخف من صراحتي بشأن براعتي في الحكم على الشخص. إذا حدث وأخفتك فلا بد أني قد خلطت الأمور! لكن ها قد نسيت مجددًا ما كنت في صدد قوله. حسنًا سأواصل التحدث حتى أتذكر. يا إلهي كم أثرثر! قل لي، ما رأيك بالآنسة كيلاند؟ لدي رغبة شديدة في المعرفة. في رأيي، الآنسة كيلاند لعوب وقد تكون مغرية للغاية حتى أن الكثير من الرجال-الكثير جدًا-بمن فيهم أنا، قد يقدمون حياتهم كرمى لها. بأية حال، هذا انطباعي. إنها مخلوق جميل، ولا بد أن تشعر بألم رائع عندما تدوسك -قد أطلب منها أن تفعل هذا من أجلي يومًا ما-قسمًا بالله، هذه تجربة أود أن أعيشها! ليس الآن مع ذلك، أنا أنتظر حتى

يحين وقتي. لكني أخفتك حتى أعيتك حيلتك بتشدقي الليلة! أقصد هل قلت شيئًا يهينك شخصيًا؟».

«لو تعرف فقط بأي لطف تحدثت عنك الآنسة كيلاند! التقيتها البارحة وتحدثنا لفترة طويلة نسبيًا...».

«قل لي، اعذرني لمقاطعتك، لكن ربما أنت أيضًا تملك ما يكفي من الحساسية لتشعر بالنبرة الخفيضة، والتذبذبات في صوت الآنسة كيلاند؟ أنا أهذر الآن، وأنا واثق من أنك تعي ذلك، أليس صحيحًا؟ لكن سأسر إذا ما شعرت بأنك حليف لي-وتملك القدرة أيضًا على تقدير الناس. حينها يمكننا أن نتصافح، ونعقد اتفاقًا فلا يخون أحدنا الآخر. هل تفهم ما أعنيه؟ بمعنى آخر لن أستغل أبدًا ما أعرفه عنك بالرغم من أني أقرؤك مثل كتاب. الآن عادت إليك تلك النظرة المشوشة والمزعجة مجددًا! لا تأخذني على محمل الجد، لقد شربت كثيرًا. لكن الآن تذكرت فجأة ما كنت سأقوله عن الآنسة كيلاند وهو ليس مهمًا. لكن من ناحية أخرى لمَ عليَّ أن أقدم رأيي وأنت لم تطلبه؟ أنا آسف إذا ما قلت شيئًا يثير سخطك. عندما أتيت إلى هنا منذ ساعة كنت في مزاج عال. كل هذا الحديث تأتى عن شرب كمية كبيرة من النبيذ. لكن لا بد من أن أحاول ألاّ أحيد عمّا كنت أقوله. كنت تتحدث عن حفلة سمر في منزل رئيس البلدية-تتذكر-عندما تم تعميدك. لقد منحني ذلك فجأةً فكرةَ تنظيم سهرة سمر. فقط بضعة أصدقاء -وأنت يجب أن تحضر أيضًا -أعتمد عليك. لا تقلق- لن يتم تعميدك ثانية. سأحرص أن تعامل باحترام وكياسة. هذه المرة لن يكون هناك تكسير للطاولات والكراسي-أعدك! لكني أحب أن أجمع بعض الأصدقاء معًا هنا ذات مساء-قريبًا في عطلة نهاية الأسبوع، كيف تشعر إزاء ذلك؟».

ازدرد نيجل كأسين، الواحد بعد الآخر. ولم يقل القزم شيئًا، تلاشت حيويته الطفولية، وبدا أنه يستمع لحديث نيجل فقط بداع التهذيب. رفض بعناد أن يشرب شيئًا.

«هدأتَ بشكل مريع على حين غرة،» قال نيجل. «تبدو كما لو أنك صدمت بشيء ما-كلمة، وهم-كما لو أنك ضربت فجأة بشيء ما. هل رأيتك تجفل قليلًا للتو؟ حسنًا، ربما كنتُ مخطئًا. هل فكرت يومًا كم ستشعر بالتزوير إذا ما وضع ضابط قانون يده يومًا على كتفه دون كلمة، وأنت تنظر إليه مباشرة في عينيه؟ لكن ماذا سأفعل معك؟ أنت تنسحب أكثر فأكثر ويزداد تجهمك في هذه الدقيقة. أنا متوتر الأعصاب اليوم وأحرجك لكن عليَّ أن أتحدث-أنا دومًا أتحدث عندما أكون ثملًا. ليس عليك أن تغادر-حينها سأضطر إلى التحدث مع الخادمة سارة، وهذا لن يكون مناسبًا، إلى جانب أنه سيجعلني أسأم. هل تدعني أخبرك عن تجربة عشتها؟ هي ليست مهمة بتاتًا، لكن ربما ستسليك، وفي نفس الوقت يمكنني أن أثبت لك بأني أجيد الحكم على الشخص. ها ها! لكن لا بد من أن أخبرك أنه إذا كان ثمة من يمكنه قراءة الناس، فهو أنا! ربما يعزز هذا الاعتراف الصغير غرورك. حسنًا، لنختصر القصة -كنت في لندن منذ حوالي ثلاث سنوات-التقيت بامرأة شابة ورائعة ابنة رجل كان لي معه بعض الشؤون. عرفت السيدة الشابة جيدًا، كنا يوميًا معًا طوال ثلاثة أسابيع وربطتنا صداقة حميمة. ذات أصيل أرادت أن تريني لندن، وهكذا ذهبنا نزور المتاحف والمعارض الفنية، ننظر إلى فن العمارة، نتجول في المتنزهات، وحل المساء دون أن نشعر بمرور الوقت. كان علي أن أقضي حاجتي-لأكون صريحًا، وجدت نفسي في ظرف قد يجد المرء المعافى نفسه فيه بعد قضاء الأصيل بالتنزه. ما كنت لأفعل؟ لم

أستطع أن أختفي، ولم أستطع أن أجد عذرًا لنفسي. حسنًا، كان عليَّ أن أطرحه، وتبللت حتى أخمص قدمي. لكن أي جحيم كان يمكنني فعله؟ لحسن الحظ كنت أرتدي معطفًا طويلًا أخفى وضعي المحرج. مررنا بمقهى في شارع مضاء بإضاءة بهية، وماذا تظن أن السيدة فعلت؟ توقفت وسألت إذا كان بوسعنا الحصول على ما نأكله! في وضع عادي قد يكون هذا طلبًا معقولًا-لقد مشينا لساعات ويكاد التعب يقتلنا -لكن كنت مرغمًا على الرفض. عرفت أنها ظنت بأني فظ من خلال طريقتها في النظر إليَّ وقالت: «لمَ لا؟» كان العذر الذي قدمته أني لا أملك نقودًا-ولا بنسًا واحدًا! كان عذرًا جيدًا، وصدف أن السيدة لم تكن تحمل مالًا أيضًا. وقفنا هناك نتبادل النظرات، نضحك على ورطتنا. ثم نظرت حولها وخطرت لها فكرة: «لدي صديقة في ذلك المنزل في الطابق الثاني ستعطينا بعض النقود.» وبقولها ذلك انطلقت مسرعة. مضى على غيابها عدة دقائق وشعرت بالرعب. ماذا سأفعل بحق الله عندما تعود بالنقود؟ لم أستطع الدخول إلى ذلك المقهى المزدحم بكل هؤلاء الناس المضاء ببهاء! سأرمى خارجًا وهذا سيكون أكثر سوءًا. كنت أنوي أن أصر على أسناني وأطلب منها أن تدخل بمفردها قائلًا بأني سأنتظر في الخارج. عادت بعد عدة دقائق. بدت في مزاج جيد، وقالت إن صديقتها لم تكن هناك لكن هذا لا يهم-يمكنها أن تنتظر وقتًا أطول بقليل-ستعود إلى البيت خلال ربع ساعة. واعتذرت أيضًا لأنها جعلتني أنتظر. كنت أنا من شعر بارتياح شديد على الرغم من أني كنت منزعجًا ومشبعًا بالبلل. لكن الآن جاء الجزء الأفضل-ربما خمنت سلفًا؟ أنا واثق من أنك تعرف لكن بالرغم من ذلك أود أن أخبرك. لم أعرف حتى هذه السنة -1891-مدى حماقتي. فكرت في الأمر برمته، وفجأة كل الأمور التي بدت غير مهمة

اجتمعت مرة واحدة معًا. لم تصعد السيدة أي درج أبدًا! ما فعلته كان أنها فتحت الباب الخلفي وتسللت منه. أنا أيضًا كان لدي شعور بأنها خرجت من نفس الباب. ماذا يثبت ذلك؟ لا شيء بالتأكيد. لكن أليس غريبًا أنها لم تصعد الدرج وإنما استعملت المدخل الخلفي؟ هاها. أرى أنك فهمت تمامًا، لكني لم أعرف هذا حتى عام 1891 أي بعد ثلاث سنوات. آمل أن الشك لم يخامرك في أني قد خططت الأمر كله مقدمًا رغبة في خلق هذه الحالة. كل ما في الأمر أني لم أستطع إرغام نفسي على المغادرة ، وعدت ثلاث مرات، مبقيًا عيني طوال الوقت على السيدة بشكل يجعلها لا تغيب عن ناظري لحظة واحدة. أنت بالتأكيد لم تفكر في أني مذنب أو شيء من هذا القبيل! لكن بالتأكيد من الممكن أن رجلًا قد يعاني بسبب حماقة صرفه ويبلل نفسه أيضًا، بدلًا من أن يتخلى عن متعة مشاهدة فتاة جميلة شابة تتلوى بالتياع. لكن كما قلت، خطر لي هذا فقط هذه السنة، بعد حدوثه بثلاث سنوات. حسنًا، ها ها، ماذا تظن؟».

توقف قصير.

شرب نيجل بعض النبيذ وواصل الكلام: «قد تسأل عن علاقة هذه القصة بك وبي وبحفلة السمر. لا شيء البتة يا صديقي. لكني شعرت برغبة في قصها عليك بأية حال لأثبت مدى غبائي عندما يتعلق الأمر بسلوك الإنسان. أوه، يا لهذا الجسد البشري! ماذا تظن أني، أنا يوهان نيلسن نيجل، ضبطت نفسي أفعل ذلك الصباح؟ وجدت نفسي أتجول جيئة وذهابًا أمام منزل القنصل أندرسن على التلة، محاولًا أن أقيس ارتفاع السقف في غرفة معيشته! أليس هذا غريبًا؟ لكن ها هي نفسك تشرئب مجددًا! إنها تسجل أدق التفاصيل، ما من شيء غير مستوعب. كيف تشعر على سبيل المثال إذا كنت في طريق

عودتك إلى البيت ذات ليلة من العمل أو من اجتماع لتجد فجأة رجلًا يقف في زاوية يحدّق إليك بصمت ويلتفت ليتبعك بنظراته وأنت تمر به؟ وافترض أن الرجل يرتدي السواد ليزيد في خلط الأمور وكل ما بوسعك أن تراه هو وجهه وعيناه؟ آه يا لنزوات السلوك البشري! ذات مساء تذهب إلى حفلة، هناك-لنقل-اثنا عشر شخصًا، بالإضافة إلى الثالث عشر-قد تكون الفتاة من مكتب البرق، طالبة حقوق معوزة، موظفة، أو حتى قبطان باخرة-بكلمات أخرى، شخص ما ليس مهمًا. يجلس هذا الشخص في زاوية ولا يشارك في المحادثة لكنه مع ذلك يجعل حضوره محسوسًا، وعلى الرغم من صمته يلعب دورًا هامًا في المجموعة. هذا لأنه يلبس بطريقة معينة، صموت جدًا، ينظر إلى الآخرين بتعبير فارغ ولا مبال. إنّه لا يشارك شيئًا ويشكّل قوّة سلبية ويخلق جوًا كئيبًا يجعل الضيوف الآخرين يتحدّثون بأصوات مكتومة. ألا توافقني الرأي؟ بهذه الطريقة، يمكن أن يصبح الشخص الذي نحن بصدده، للمفارقة، مركزًا للجذب. كما أخبرتك، أنا لا أحكم على الشخصية لكنه أمر مسل أن تلاحظ أهمية أشياء لا تبدو مهمة. «كنت مرة حاضرًا بوجود مهندس، غريب تمامًا في الحشد، لم يفتح فمه... لكنها قصة أخرى ولا علاقة لها بما نتحدث عنه، إلا أنها تُحدث فيّ تأثيرًا حيويًا. لكن لنعد إلى نزعة الفكر التي قادتنا إلى هنا: ربما صمتك الحجري هذا المساء هو الذي منح اتجاهًا مختلفًا لكلماتي-بغض النظر عن ثمالتي. أو ربما يكون التعبير-الخجل والبريء مناصفة في عينيك هو ما يجعلني أتحدث بهذه الطريقة؟ إنه طبيعي تمامًا. أنت تصغي -إلى ما يقوله رجل ثمل-وبين الحين والآخر شيء ما يصيب الهدف أكرر يصيب الهدف. وأشعر بأني مستدرج للمضي أكثر، لأقذف دزينة أخرى من الكلمات في وجهك. أنا أشير

إلى هذا مجددًا كي أؤكد على قيمة الأمور التافهة. لا تغفل الترهات، يا صديقي إنها على قدر كبير من الأهمية.

«ادخل!»

كانت سارة تعلن أن العشاء جاهز.

نهض القزم في الحال. في هذه الأثناء كان نيجل ثملًا بالفعل ولم يستطع حتى أن يتكلم كما يجب. ظل يناقض نفسه وكان تشوشه يزداد باطراد. بدا التعبير المتأمل في عينيه وأوردته النافرة في جبهته يعكس الأفكار المشوشة التي كانت تجول في رأسه.

«حسنًا، أنا لست متفاجئًا أنك تستغل هذه المقاطعة للمغادرة،» قال «بعد كل هذا الاستطراد الذي كان عليك أن تصغي إليه هذا المساء. لكن هناك عدة أمور أخرى أحببت أن أسألك رأيك فيها. لم تجب على سؤالي هذا أبدًا، كيف تشعر حقيقة تجاه الآنسة كيلاند. بالنسبة إليَّ هي مخلوق غريب بعيد المنال مفعمة بالجمال وبيضاء كالثلج-تخيل ثلجًا حريريًا عميقًا نقيًا للغاية. هكذا أراها. إذا ما أوحيت لك بشيء مختلف منذ فترة، لم يكن مقصودًا. الآن أحب أن أشرب كأسي الأخير معك. في صحتك! لكن خطر في بالي شيء للتو-إذا كان لديك الصبر لتستمع إلي لدقيقة أخرى تقريبًا سأكون في غاية الامتنان. اقترب قليلًا-للجدران في هذا الفندق آذان-الحقيقة أني واقع في حب الآنسة كيلاند على نحو يائس. -لقد قلته! هذه الكلمات البسيطة لا يمكنها أن تعبر عن مشاعري، لكن الله في السماء يعرف كم أحبها بجنون. حسنًا، أنا عاشق وأعاني عذابات الملعون، لكن هذه مسألة جانبية. آمل أنك ستحترم ثقتي-هل تعدني بذلك؟ أشكرك يا صديقي العزيز لكنك ربما قد تسأل نفسك كيف يمكن لي أن أكون مغرمًا بها وقد دعوتها للتو باللعوب. أولًا، ليس هناك ما يمنع وقوع

المرء في حب امرأة لعوب. لا علاقة لهذا بالموضوع. بل هناك شيء آخر. لكن هل تقر بأنك تجيد الحكم على الناس أم لا؟ فإذا كنت تحكم على الشخصية، ستفهم ما سأقوله أيضًا: من غير الممكن أن أظن بأن الآنسة كيلاند لعوبٌ-ليس بجدية-بل العكس تمامًا. لديها هذا السلوك غير المتكلف! هل لحظت كيف تضحك بعفوية، وبطريقة غير متحفظة تمامًا بالرغم من أن أسنانها ليست ناصعة البياض؟ لكن هذا لا يمنعني من أن أشيع أن الآنسة كيلاند امرأة لعوب. أنا لا أفعل ذلك بقصد أذيتها أو الانتقام منها بل لأحمي غروري، إنها إلهة، وبعيدة المنال، لن تتقبل ملاطفاتي وتصريحاتي لأنها مخطوبة سلفًا. إنها ضائعة بالنسبة إليّ، الأمر مستحيل. هنا ثانية، لو تسمح، لدينا انحراف جديد في السلوك البشري. قد أسير نحوها في الشارع، على مسمع عدة أناس، وأنا أقصد قصدًا جليًا أذيتها وتحقيرها، وأقول بجدية تامة: «صباح الخير، يا آنسة كيلاند! أبارك لك ثوبك الداخلي النظيف!» يبدو شائنًا قول ذلك، لكن قد يكون بوسعي الإتيان به. ما هي خطوتي التالية؟ هل أتوجه إلى البيت وأبصق في منديلي، أو أتناول نقطتين من القارورة التي أحملها في جيب صدرتي-من يعلم؟ أو قد أمشي إلى الكنيسة ذات أحد أثناء إلقاء والدها باستور كيلاند لموعظة، وأمشي مباشرة في الممر المنصف، أتوقف أمام الآنسة كيلاند، وأقول: «هل تحبين أن أقرص انتفاخ ثوبك؟» بكلمة انتفاخ أنا لن أعني شيئًا على وجه الخصوص-قد تكون مجرد كلمة لجعلها تحمر خجلًا.» رجاء دعيني ألمس انتفاخ ردنك،» قد أستحلفها. ثم قد أرمي بنفسي عند قدميها وأتضرع إليها أن تمنحني الفرح الأسمى بأن تبصق عليَّ. الآن أنت مذعور بحق. أعترف بأني فاحش، لاسيما أني أتحدث عن ابنة كاهن لابن كاهن. سامحني يا صديقي العزيز، أنا لست حقودًا-

على الأقل، ليس هذا في نيتي، لكني ثمل كالرب. اسمع! عرفت مرة شابًا سرق مصباح غاز وباعه خردة، وصرف المال على الملذات. هذا حقيقة! إنه قريب الراحل باستور هايريم، وأنا على تمام المعرفة به. لكنك محق مجددًا. ما علاقة هذا بي وبالآنسة كيلاند؟ لم تقل شيئًا، لكني أستطيع أن أرى أنك ستنفجر بقول ما تفكر فيه، وأنت مصيب تمامًا. لكن الآنسة كيلاند أبعد من متناولي، وهذا ليس خسارة لها بل خسارة لي. وأنت تقف هناك، رصينًا وباردًا، مع قدرتك على أن ترى دخيلة الناس، ستفهم إذا أشعت يومًا ما في البلدة أن الآنسة كيلاند جلست على ركبتي، وأني التقيتها ثلاث ليال على التوالي في بقعة ما في الغابة، وأنها قبلت هداياي. ستكون قادرًا على فهم ذلك، أليس صحيحًا؟ أنت تجيد الحكم على الناس-نعم، أنت كذلك، لا تنكر! هل مشيت يومًا في الشارع، مستغرقًا في أفكارك، وفجأة أدركت أن الناس يحدّقون فيك؟ إنه أمر محرج على نحو رهيب. تنفض الغبار عنك بعصبية من الأمام والخلف، تنظر خفية إلى الأسفل لترى إذا كان من زر مفتوح، وتصاب بخجل شديد حتى أنك تخلع قبعتك لتتأكد فيما إذا كانت بطاقة السعر لا تزال عليها، ومع أن القبعة قديمة لكن لا تستطيع أن تجد أي خطأ، عليك أن تصر على أسنانك وتحتمل التحديقات من صغير القوم وكبيرهم. يا صديقي إذن هذا يضعك في الجحيم، كيف تشعر إذا ما دعيت للمثول أمام محكمة؟ الآن لقد صدمتك ثانية، ألم أفعل؟ رأيتك تقفز! حسنًا، أن يستدعيك رجل شرطة وغدٌ أريب، يفتشك، وبعد أسئلة لا نهائية تعاد إلى نقطة البداية-يا له من تعامل مبهج لرجل غير منحاز، غير متورط، فقط يجلس هناك يصغي ويستوعب كل شيء. هل تصغي إلي؟ ربما إذا ما عصرت القنينة يمكنني أن أحصل على كأس آخر منها».

صب آخر نقطة في حلقه وواصل: «أنا آسف بشأن مواصلتي القفز من موضوع إلى آخر. لكن عقلي لا يكف عن التجوال، من ناحية لكوني ثملًا للغاية، لكن أيضًا لأني أعرف أنّ ثمة خطبًا جوهريًا فيّ. أنا مجرد زراعي بسيط-أنت تعرف ذلك-طالب من أكاديمية كاودنغ. أنا فيلسوف لم يتعلم أبدًا التفكير. حسنًا، دعنا من الدخول في التفاصيل، فهي لا تهمك، ولأنها جزء من ماضيّ، أجدها كريهة. هل تعلم، كثيرًا ما يصل بي الحال إلى حد الجلوس هنا محاولًا مواجهة نفسي وفجأة أدعو نفسي روشفورت بصوت مرتفع؟ أربّت بنفسي على الرأس وأدعو نفسي روشفورت! هل تعلم أني طلبت مرة فعلًا خاتمًا للتوقيع منقوش عليه قنفذ؟... هذا يذكرني برجل عرفته يومًا-كان رجلًا محترمًا، يدرس فقه اللغة في جامعة ألمانية، ليس فيه شيء استثنائي على الإطلاق. لكنه بدأ يتحطم، خلال سنتين أدمن على الكحول، وأصبح روائيًا بالإضافة إلى ذلك! عندما التقى بالناس الذين حاولوا أن يسألوه عن نفسه، كان يجيب فحسب أنه واقعة. «أنا واقعة!» سيهتف، يتضيّق فمه في خيلاء. حسنًا، هذا لا يهمك. أنت أشرت إلى فيلسوف لم يتعلم أبدًا أن يفكر-أو كان أنا من تحدث عنه؟ أنا آسف-الآن أنا ثمل بحق، لكن ماذا يعني؟ لا تدع ذلك يزعجك. لكني أود أن أشرح عن الفيلسوف الذي لا يستطيع التفكير. إذا ما فهمتك على نحو صحيح، أنت أردت أن تهاجم رجلًا. كان رد فعلك عنيفًا جدًا حتى أن ذلك الانطباع تشكل لدي، أنت تحدثت عنه بازدراء شديد. لكن ذلك الرجل يستحق أن يحكم عليه على نحو أكثر موضوعية. في المقام الأول كان مجنونًا-لا أزال أصر على أنه كان مجنونًا. كان يرتدي دومًا ربطة عنق طويلة حمراء ويبتسم بحماقة. في الواقع، كان أحمقَ إذ أنه دومًا يدفن أنفه في كتاب عندما يقترب منه أي شخص، ولو أنه

لم يقرأ أبدًا. وأمر آخر: لم يرتد يومًا جوربًا، فيتاح له أن يضع زهرة في عروته. هذا ما كان عليه. لكن أفضل جزء على الإطلاق هو أنه يملك مجموعة صور فوتوغرافية لفتيات من الطبقة العاملة بسيطات ومع ذلك محترمات، كتَبَ عليها أسماء تبدو غريبة، ليمنح انطباعًا أنه كان يتحرك في دوائر هامة. على واحدة من تلك الصور كتب «الآنسة ستانغ»، ليلمح أنه كان على علاقة برئيس الوزراء[1]، ولو أن اسم عائلة الفتاة كان فقط لاي، أو ربّما هوغ في أحسن الأحوال. هي هي! ماذا تفعل بهذا الزيف! تخيّل أن الناس كانوا يتحدثون عنه من خلف ظهره-يغتابونه، قال. هي هي، هل تظنّ أنّ أي شخص قد يهتم يومًا؟ بعدها توجه ذات يوم نحو متجر المجوهرات يدخن سيجارين-سيجارين! واحدًا في يده والآخر في فمه، وكلاهما يشتعل. ربما لم يكن يعي أنّه يحمل سيجارين مشتعلين في نفس الوقت، لكن طالما أنه كان مفكرًا لم يتعلّم التفكير، فإنّه لم يسأل عن السبب...».

«يجب أن أغادر» قال القزم أخيرًا بصوت مكبوت.

نهض نيجل في الحال. «لا بد من أن تذهب؟» قال «هل تظن حقًا أن عليك أن تتركني الآن؟ حسنًا، لا بد من أن أعترف أن وقتًا طويلًا استغرقني لأضع الرجل في وجهة نظره المناسبة. حسنًا، سيكون عليه أن ينتظر إلى وقت آخر. إذن أنت تصر حقيقة على المغادرة الآن؟ شكرًا لك جزيلًا على القدوم لرؤيتي هذا المساء! أبدو أني أكثر سكرًا من المعتاد-أنا أتساءل فقط كيف أبدو. خذ إبهامك وضعه تحت عدسة مكبرة وماذا ترى؟ يمكنني أن أقرأ ملامحك، أنت رجل ذكي استثنائي يا سيد جروجارد والنظر في عينيك يؤثّر فيّ -إنهما شديدتاالبراءة. خذ سيجارًا آخر قبل أن تغادر! متى ستأتي لزيارتي

(1) وهو إميل ستانغ رئيس حزب المحافظين.

مجددًا؟ نعم، بالتأكيد، يجب أن تأتي إلى حفلة السمر! أعدك بأن هذه المرة لن تمس شعرة في رأسك. أعد أنها ستكون فقط حفلة اجتماعية صغيرة، سيجار، مشروب، وتسعة أنخاب لأرض آبائنا، لنسعد الطبيب ستينرسن. ألا توافق؟ أظن أنها ستكون حفلة مسلية. لا بد من أن تكون مسلية. وسأعمل على أن تحصل على ذلك البنطال الذي كنا نتحدث عنه، سأكون ملعونًا لو لم تفعل. لكن بالشروط المعتادة، بالتأكيد. أشكر لك صبرك هذا المساء. لنتصافح. أشعل سيجارًا آخر! أمر آخر: أليس من شيء تود أن تسألني عنه؟ إذا كان هنالك لا تتردد! حسنًا، كما ترغب. ليلة سعيدة، ليلة سعيدة».

الفصل الحادي عشر

ثم جاء يوم التاسع والعشرين من حزيران. كان يوم الاثنين، إذ حدثت عدة أمور استثنائية: على سبيل المثال، جاءت امرأة غريبة ترتدي برقعًا إلى البلدة، توجهت إلى الفندق، حيث ظلت لعدة ساعات، ثم اختفت. كان يوهان نيجل في ذلك الصباح الباكر يدندن ويصفر بسرور في غرفته. وهو يرتدي ثيابه، صفر طربًا نُتفًا من الألحان، وبدا أنه في مزاج سعيد للغاية. في اليوم السابق كان صامتًا ومتحفظًا بعد أن شرب حتى الثمالة ليلة السبت الماطرة في حضرة القزم. ذرع الغرفة جيئة وذهابًا، يتجرع مقادير كبيرة من الماء. عندما غادر الفندق صباح الاثنين، كان لا يزال يدندن وبدا مسرورًا جدًا بنفسه. حتى أن مزاجه البشوش دفعه للتحدث إلى امرأة كانت تقف عند أسفل الدرج ومنحها بعض النقود.

«هل تعرفين أين يمكنني اقتراض آلة كمان؟» سأل.

«هل تعلمين إذا ما كان أحد في البلدة يعزف على الكمان؟»

«لا، لا أعرف.» قالت المرأة، وقد بدت ذاهلة.

بالرغم من أنها لم تقدم له العون منحها النقود وغادر سريعًا. كان قد وقع نظره للتو على داجني كيلاند خارجة من متجر تحمل مظلتها الحمراء، فأسرع نحوها. كانت بمفردها. انحنى بشدة، وتحدث إليها. احمرت خجلًا كالعادة، وحاولت أن تخفي وجهها خلف

مظلتها. تحدثا في البدء عن نزهتهما في الغابة. لقد أصيبت بالبرد، مع أنها كانت ليلة دافئة. هي لم تشفَ بعد. تحدثت بصراحة كأنها كانت تتحدث إلى أحد معارفها القدامى.

«لكنك لست نادمة، أليس كذلك؟» سأل ودخل في صلب الموضوع.

«لا،» قالت وهي تنظر باستغراب. «لست نادمة. ما الذي قد يجعلك تقول شيئًا مثل ذلك؟ بل على العكس، كانت أمسية ممتعة كثيرًا، مع أن تلك القصة التي رويتها لي عن رجل الفانوس أرعبتني. لقد حلمت به-كان مروعًا!».

تحدثا لفترة عن رجل الفانوس. كان نيجل في مزاج صريح. اعترف أيضًا بأنّه يخاف فجأة ويتوتر من دون سبب على الإطلاق، ويشعر بنفسه مغفّلاً. على سبيل المثال، عندما يصعد الدرج، أحيانًا يجد نفسه وهو يلتفت من حوله ليرى إذا ما كان أحد يتبعه. لماذا؟ ربما لأنه أحس بروح غامضة شديدة البلادة وعديمة الحس، روح يصعب إدراكها، هو جوهر منبثق عن قوة غير مرئية-الخارق يظهر نفسه.

«هل تعلمين،» قال، «أشعر في هذه اللحظة كأني راغب في مغادرة هذا الشارع واتخاذ مسار آخر: المنازل، أحجار الرصيف على الجهة اليسرى، وأشجار الإجاص الثلاث، الأشجار الموجودة في حديقة القاضي تجعلني كئيبًا. عندما أكون وحيدًا لا أسلك أبدًا هذا الطريق بل أسلك طريقًا آخر، حتى لو أنه يبعدني عن وجهتي.»

ضحكت داجني قائلة: «لدي شعور بأن الطبيب ستينرسن قد يعزو ذلك إلى القلق والخرافة».

«هذا بالضبط ما قد يقوله! يا للغرور، يا للحماقة! لنفترض أنني ذات مساء أتيت إلى بلدة غريبة-هذه البلدة، على سبيل المثال، لمَ لا؟ في اليوم التالي تتجول في الشوارع لترى كيف يبدو المكان. بعض المنازل،

بعض الشوارع تترك عندك انطباعًا سيئًا، في حين تجد شوارع أخرى، وبعض المنازل ساحرةً ومُحبّبَةً جماليًا. هل هذا دليل على القلق؟ لكن الآن أنا أدعي بأنّ لديك أعصابًا فولاذية، حتى أنك لا تعرفين ما معنى أن يكون المرء متوترًا. حسنًا، تذهبين وتجوبين الشوارع. ترين مئات الناس، ولا يحدثون أي انطباع لديك على الإطلاق. لكن في طريقك نحو أرصفة الميناء تتوقفين فجأة أمام منزل ذي طابق واحد صغير رث بلا ستائر لكن توجد زهور بيضاء في نافذته. يقترب منك رجل، وبوجه ما يؤثّر في نفسك. تتبادلان النظر. لا شيء غريبًا فيه عدا أنه يرتدي ثيابًا رثة ويمشي مطرقًا بعض الشيء. إنها المرة الأولى التي تقع عينك عليه، لكن فجأة يومض حدسك وتعرفين أن اسمه يوهانس. الاسم يأتي بوضوح. ما الذي يجعلك شديدة الثقة من أن اسمه يوهانس؟ لا تملكين شرحًا منطقيًا، لكنك تستطيعين قراءته في عينيه، تعرفينه من طريقة تحريكه لذراعيه، من وقع خطواته. لا يمكن أن يكون تداعيًا، لم تري من قبل أحدًا اسمه يوهانس يتشابه معه ولو بعض الشبه. إذن هي ليست الحالة. لكن ها أنت، في وجه هذا الغموض وهذا الحدس الغامض للغاية لا تمليكن أيّ تفسير.».

«هل التقيت بهذا الرجل هنا في البلدة؟».

«لا، لا» أجاب سريعًا. «الرجل، البلدة، والمنزل المؤلف من طبقة واحدة كلها محض خيال. لكنه لأمر غريب، أليس كذلك؟ ثم يحدث أمر غريب آخر: تصلين إلى بلدة غريبة، تدخلين منزلًا غريبًا، لنقل إنه فندق. لم تكوني هناك من قبل. لكن فجأة يساورك شعور واضح بأنّه منذ سنين مضت ربما كانت هناك صيدلية. الآن، ما الذي قد يمنحك ذلك الإحساس؟ ليس هناك أي إشارات بتاتًا على أنه كان كذلك. لم تتحدثي إلى أي شخص، وليس هناك رائحة مواد طبية، ما

من علامات على الرفوف ولا على الجدران، ما من آثار على الأرض قد توحي بأنّ النضد كان موضوعًا هنا. ومع ذلك أنت واثقة تمامًا أنه منذ سنوات عديدة كانت هناك صيدلية في ذلك المكان! ما من شك على الإطلاق. تدركين إدراكًا مفاجئًا خارجًا عن الحواس. كيف يمكن شرحه بطريقة أخرى؟ هل حدث لك هذا من قبل؟».

«لم أفكر يومًا فيه. لكن إذ تذكره الآن، أؤمن بأنه حدث. كثيرًا ما أخاف من الظلمة بلا سبب على الإطلاق. لكن ربما هذا شيء آخر مجددًا».

«هل هناك طريقة ما للمعرفة؟ هناك الكثير من الأشياء الغريبة بين السماء والأرض، أشياء جميلة لا يمكن تفسيرها، هواجس لا يمكن شرحها، مخاوف تجعل دمك يتجمد. تخيلي سماع شخص يحف بالجدران في ليلة كالحة الظلمة. أنت مستيقظة تمامًا، تجلسين إلى طاولة تدخنين الغليون، لكنك واعية بأنّ حواسك مغشاة بطريقة ما. رأسك مفعم بالمشاريع وأنت متلهفة لتنفيذها. ثم تسمعين بوضوح شخصًا يحتك بجدار خارجي، أو في الغرفة عند الموقد حيث يمكنك رؤية ظل على الجدار. تنزعين غطاء المصباح كي تحصلي على المزيد من النور وتقتربين من الموقد. تقفين هناك أمام الظل وإذ بك وجهًا لوجه مع شخص مجهول-رجُلٍ ذي قامة متوسطة الطول يلف وشاحًا صوفيًا أبيض وأسود حول عنقه، وشفاهه زرقاء بشكل لا يصدق. يبدو مثل الشاب في مجموعة أوراق اللعب النرويجية. تشعرين بالفضول وليس بالخوف وتمشين متجهة نحو الرجل وترمقينه بنظرة ذابلة لكنه لا يتحرك، وعلى الرغم من أنك قريبة منه للغاية، يمكنك أن تري عينيه تطرفان وتعرفين أنه حي مثلك تمامًا. ثم تحاولين أن تكوني في غاية الودّ، رغم أنك لم تريه من قبل أبدًا، تقولين: «أليس اسمك

هومان، بيرنت هومان؟» عندما لا يجيب، تقررين أن تناديه هومان، وتقولين: «بحق الجحيم لمَ لا تكون بيرنت هومان؟» وتنظرين إليه شزرًا. لكنه لا يتحرك ولا تعرفين ما أنت فاعلة. ثم تتراجعين خطوة، تنكزيه بساق غليونك، وتقولين: «باه!» ومع ذلك لا تتبدل ملامحه. هذا كثيرا! يزداد غضبك، وتضربينه ضربة قوية. بالتأكيد الرجل موجود في الغرفة، ومع ذلك لا يستجيب لضربتك. ولا يصاب بالإغماء لكنّه يدس يديه في جيوبه، ويهز كتفيه، بلا مبالاة وكأنّه يقول. «حسنًا، ما الّذي يعنيه هذا؟». «ماذا يمكن أن يعني؟» تكررين، والآن تضربينه بغَيْظ مرّة أخرى في جوف معدته. بعد هذا، يبدأ الرجل بالاختفاء. تراقبينه وهو يختفي ببطء، يزداد شكله غموضًا أكثر فأكثر، حتى لا يبقى شيء أخيرًا سوى معدته، معدته التي ستختفي بدورها هي أيضًا. ينظر إليك كل هذا الوقت مُبقيًا يديه في جيوبه، ينظر إليك بذلك التعبير المحتقر المتجاسر نفسه وكأنّه يقول: «ما الذي قد يعنيه؟»»

ضحكت داجني مجددًا. «لديك المغامرات الأكثر غرابة! ثم ماذا حدث؟ كيف انتهى كل ذلك؟»

«حسنًا، عندما تحطّين رحالك عند الطاولة ثانية للبدء بالعمل على خططك تلحظين أنك كدمت مفاصل أصابعك وقد خبطت بها الجدار... لكن الفكرة التي أردت الوصول إليها كانت: أخبري هذا لأصدقائك، وسيكون رد فعلهم الفوري أنك لا بد كنت نائمة-نائمة- بالرغم من أن الله وجميع ملائكته يعرفون أنك كنت مستيقظة تمامًا. إنها حذلقة وتحامل في تسميته نومًا، عندما تكونين في الواقع واقفةً بالقرب من الموقد، تدخنين غليونًا وتتحدثين إلى رجل. ثم يصل الطبيب. إنه طبيب رائع، متحدث عن العلم، ذو شفاه محكمة ومتفوق. «هذا لا شيء سوى حالة عصبية،» يقول. أوه، يا إلهي، يا لها من

نكتة! مجرد عصبية! لدماغ الطبيب أبعاد ثابتة، بارتفاع عدة إنشات وبعرض الكثير من الإنشات شيء يمكنك أن تمسكي به بقبضتك، كتلة من مادة رمادية سميكة. ومن ثم يكتب كلمات «حديد» و«كينين»[1] على قصاصة ورقية وتشفين في الحال. هكذا تم الأمر. لكن يا له من شخص ريفي، وأي دماغ أحمق دماغه ليفرض نفسه بإطاره المرجعي المحدود ودواء الكينين على مجال علمي غامض بشكل كبير أذلّ أكثر العقول ذكاءً!»

«أنت تفقد زرًا،» قالت.

«زرًا؟»

أشارت بابتسامة إلى واحد من أزرار سترته كان معلقًا بخيط رفيع.

«لمَ لا تنزعه؟ إن لم تفعل سوف تضيعه بالتأكيد».

ليرضيها أخرج سكينًا من جيبه وقطع الزر، وهو يخرج السكين سقطت بعض القطع النقدية والوسام الذي اهترأ شريطُه. راقبته وهو ينحني سريعًا ويلتقطها.

«هل هذا وسام؟» سألت «لكن يا لها من طريقة لمعاملته! انظر إلى ذلك الشريط، أي نوع من الأوسمة هو؟».

«إنه وسام لمنقذي الغرقى، كان بالصدفة في جيبي لم أكسبه».

نظرت إليه. كان تعبيره رزينًا، ونظر مباشرة في عينيها كما لو أنه كان صافي النية تمامًا. هي لا تزال تمسك الوسام في يدها.

«هل ستبدأ بذلك مجددًا!» قالت. «إن لم تكسبه لمَ تحمله معك؟».

«لقد اشتريته» هتف ضاحكًا. «إنه يخصني، ملكي، مثل هذه المدية، وهذا الزر. لماذا عليَّ أن أرميه؟».

---

(1) دواء لعلاج الملاريا.

«لكن يا لها من فكرة غريبة أن ترغب في شراء وسام» قالت.

«نعم، إنه نوع من الخديعة، لا أنكر ذلك. لكن لمَ لا؟ لقد وضعته يومًا ما فقط للتفاخر ورآه شخص ما حتى شرب نخبي. لا فرق بين احتيال وآخر، أليس كذلك؟».

«الاسم مخدوش» أشارت. تغيرت ملامحه فجأة وهو يتناول الوسام.

«الاسم مخدوش؟ لا يمكن ذلك. دعيني أرَى. لا، لقد بلي للتو لأنني حملته في جيبي. كان يرتطم بقطع نقودي-لهذا السبب».

نظرت داجني إليه بارتياب. ثم فجأة، فرقع أصابعه وهتف: «أوه، نسيت تمامًا! نعم، بالتأكيد الاسم مخدوش. لقد فعلت ذلك بنفسي! كيف نسيت ذلك؟ لم يكن اسمي منقوشًا بل اسم المالك-المنقذ. لقد خدشته حال حصولي عليه. أنا آسف، كان عليَّ أن أخبرك في الحال، لم أكن أقصد الكذب. كان عقلي شاردًا. كيف أصبحت فجأة قلقة بشأن ذلك الزر المفقود؟ وماذا لو خسرته؟ هل كان كل ذلك جوابًا على ملاحظاتي حول القلق والعلم؟».

توقف قصير.

«أنت دومًا صريح معي بشكل مذهل،» قالت متخطية سؤاله. «لا أعرف ما وراء ذلك. آراؤك غير تقليدية. الآن أنت تحاول أن تحملني على تصديق أنّ كل شيء زائف، وأن لا وجود لأشياء مثل النبل، والنقاء، والشهامة. هل هذا ما تشعر به حقًا؟ ألا يختلف الأمر فيما إذا نال المرء وسامًا مقابل بضع كرونات أو كسبه مقابل عمل باسل؟».

لم يُجب، فواصلت وهي تزن كلماتها ببطء وترو: «أنا لا أفهمك، أحيانًا عندما تتحدث أتساءل إذا ما كنت عاقلًا. سامحني، لكن في

كل مرة ألتقيك يزداد شعوري بالكدر والارتباك. مهما كان موضوع حديثك، أجد أنك تفسد اتزاني. لماذا؟ لم يحدث لي في حياتي أن التقيت بشخص يناقض معتقداتي الأساسية كما تفعل. قل لي، إلى أي حد تعني ما تقول فعلًا؟ ما الذي تؤمن به حقيقة في قرارة قلبك؟».

تحدثت بمثل هذا الحماس والإخلاص حتى أنه كان مبلبلًا. قال على سبيل الإجابة: «إذا كان لي إله، وكان بالنسبة إليَّ مقدسًا وعليمًا بكل شيء، سوف أقسم بذلك الإله بأني أعني كل كلمة قلتها لك وأني قصدت دومًا أن أكون صادقًا حتى عندما لم أفلح إلا في تشويشك. آخر مرة تحدثنا، قلت إن أفكاري وآرائي كانت مخالفة تمامًا لأفكار الآخرين وآرائهم. أنا أقر بذلك، أعيش متناقضًا، وأنا نفسي لا أفهم هذا. لا يمكنني أن أفهم لمَ لا يشاركني الآخرون معتقداتي وقناعاتي. هذه المفاهيم الأساسية تظهر لي واضحة تمامًا، والقضايا النابعة عنها تبدو أنها تقع تمامًا في مكانها المناسب. هذا حقًا ما يقوله لي قلبي، يا آنسة كيلاند. كم أتمنى أن أتمكن من جعلك تصدقين ذلك الآن وفي كل حين».

«الآن وفي كل حين! قطع وعد كهذا يفوق قدرتي».

«قد يعني لي الكثير للغاية،» قال.

كانا الآن في الغابة ويمشيان متقاربين جدًا حتى أن ذراعيهما غالبًا ما تماسا، لم تكن هناك رياح وتحدثا برفق. كان الصوت الوحيد تغريد طائر عابر. ثم توقف فجأة وهي أيضًا توقفت.

«ليس لديك فكرة كم اشتقت إليك في تلك الأيام القليلة!» هتف. «لا تنظري بوجل شديد! أنا لم أكد أقول شيئًا ولا أتوقع أي شيء، لا، أنا بالتأكيد ليس لدي أي أوهام. ربما قد تسيئين فهمي. لقد بدأت بقول الأمر الخاطئ-ما لم أنوِ قوله..»

عندما سكت قالت: «أنت غريب جدًا اليوم!» بدأت المشي من جديد، لكنه أوقفها مرة ثانية.

«رجاء يا آنسة كيلاند، انتظري لحظة. أرجوك كوني صبورة معي اليوم. أنا أخشى أن أقول شيئًا خوفًا من أن توقفيني وتطلبي مني الرحيل. لكن كنت أقلب هذا في عقلي طوال ساعات الأرق الكثيرة».

بذهول متنام نظرت إليه وسألت: «إلامَ يُفضي هذا كله؟»

«إلام يؤدي هذا كله، هل تسمحين لي بالكلام؟ ما يعنيه هذا كله هو أني أحبك، يا آنسة كيلاند. لا يمكن لهذا أن يفاجئك إلا بالكاد، لقد التقيتك، أنا من لحم ودم، ولقد وقعت في حبك. لا شيء شديد الغرابة في ذلك، أليس كذلك؟ ربما لم يكن عليَّ أن أخبرك بذلك أيضًا».

«لا لم يكن واجبًا عليك».

«لكن اليأس غالبًا ما يقودنا إلى المغالاة. لقد قلت أيضًا أمورًا بذيئة عنك، من فرط حبي لك. لقد دعوتك باللعوب وحاولت أن أحقرك، رغبة في تعزية نفسي ودعم أناي، لأني أعرف أنك كنت بعيدة المنال. هذا لقاؤنا الخامس، ولم أفلت زمام نفسي قبل هذه المرة الخامسة، ومع أني كنت لأفعل من أول مرة. عدا أن عيد ميلادي اليوم، أنا في التاسعة والعشرين من عمري، وكنت أغني وأشعر بالمرح من لحظة أن فتحت عيني هذا الصباح. بالتأكيد إنه لسخف، لكني فكرت: «لو تلتقيها اليوم وتقول لها، وهو يوم ميلادك، فلن تقدم على إيذائك. إذا ما قلت لها ذلك أيضًا، ربما ستكون راغبة أكثر في أن تغفر لك. أنت مستمتعة نعم، أعرف كم يبدو سخيفًا لكني لا أستطيع، أرغب في أن أركع أمامك كما فعل سواي».

«كل ما في وسعي قوله هو إنه لمن المؤسف أن يحدث هذا اليوم،»

قالت. «لم يكن عيد ميلاد سعيد لك».

«أنا واع بذلك. يا إلهي، يا لقوة تأثيرك على الناس! يمكنني أن أتفهّم أن يجنّ رجل بك. حتى الآن وأنت تتحدثين بهذه الكلمات غير المشجعة، صوتك موسيقى. إنه يسحرني في عمق أعماق كينونتي. كم هو غريب. هل تعلمين بأني كنت أذرع المكان جيئة وذهابًا أمام بيتك ليلًا على أمل أن أرى لمحة منك في نافذتك، وأني كنت أركع هنا في الغابة، أصلي لله من أجلك، أنا بإيماني الضعيف؟ هل ترين شجرة الحور تلك؟ كان عليَّ أن أتوقف في هذه البقعة الآن لأني في كثير من الليالي انحنيت تحت تلك الشجرة، في نوبة جنون مفعم بيأس صامت، مغمومًا كليًا لأني لم أستطع أن أزيحك من تفكيري. تمنيت لك كل مساء في هذه البقعة ليلة سعيدة. لقد انحنيت وتوسلت الرياح والنجوم أن تحمل لك رسالتي، وأنا واثق من أنك أحسست بها في نومك».

«لمَ تخبرني بكل هذا؟ ألا تعلم أني..».

«نعم، نعم!» قاطعها بعنف. «كنت ستقولين إنك وعدت شخصًا آخر بالزواج منذ وقت طويل، وأني سافل في محاولتي فرض نفسي عليك، الآن وقد فات الأوان. بالتأكيد أعلم ذلك! حسنًا، لمَ أخبرتك بكل هذا؟ لأحاول أن أستهويك، أن أؤثّر فيك، لأجعلك تفكرين في الأمر. وليكن الله شاهدًا عليَّ، أنا أتحدث من صميم القلب، لا شيء آخر يمكنني فعله. أعرف أنك مخطوبة وأنك تحبين خطيبك، وأنه ما فرصة لي. لكن مع ذلك عليَّ أن أدلي ببواعثي، أنا أرفض فقدان الأمل. ربما تدركين ما يعنيه أن أفقد كل أمل، ستفهمين ما أشعر به. عندما قلت للتو بأني لا أتوقع شيئًا، كنت أكذب. قلت ذلك فقط لأخفف عنك، فلا تشعري بالهلع، قلتُه لأكسب الوقت. يبدو أني أزيد الأمور سوءًا، أليس كذلك؟ لن تقدمي لي أي تشجيع، ولا أنا أفكر

للحظة واحدة في أني سأحتلّ مكان شخص آخر في قلبك. لكن خلال ساعات العذاب هذه كنت أفكّر: «إنها مخطوبة وسترحل قريبًا، في أمان الله، لكن لم يفقد كل شيء بعد. إنها لا تزال هنا، هي ليست متزوجة، لم تمت، إذن من يعلم؟ إذا ما بذلت قصارى جهدي، ربما لا يزال هناك وقت! أنت تستحوذين عليَّ، لم تغادري تفكيري أبدًا. أراك في كل مكان، وفي كل جدول أزرق أمر به أنادي داجني. لا أظنّ أنّه مَرّ يوم واحد طيلة هذه الأسابيع القليلة لم أفكّر خلاله فيك. في أي وقت أغادر فيه الفندق، حالما أفتح الباب وأهبط الدرج أمتلئ بالأمل والنشوة: «ربما ستصادفها!» وأبحث عنك في كل مكان. لا أفهم ذلك، أنا عاجز. صدقيني، لقد كافحت كثيرًا لأحتفظ بهذا لنفسي. إنه مخيب للأمل بشكل رهيب أن تعرفي أنه ما من كلمة من كلماتي يمكن أن تؤثّر فيك أدنى تأثير، لكن حتى مع معرفتي بهذا، أنا لست قادرًا على الاستسلام، سوف أتشبث حتى النهاية. أعرف أنه أمر مستحيل. وعلى الرغم من ذلك فإن الكثير من الأمور تتسابق في عقلي عندما أمضي ليلة كاملة من الأرق جالسًا بمحاذاة النافذة في غرفتي! لدي كتاب أمامي لكني لا أستطيع القراءة. أصر على أسناني وأقرأ ثلاثة أسطر، لكني لا أستطيع المواصلة، وأضع الكتاب جانبًا. قلبي يخفق، وأهمس بكلمات سرية رقيقة، أستدعي اسمًا، وألاطفه بأفكاري. الساعة تدق: اثنان، أربعة، ستة. أقرّر أن أضع حدًّا لهذه اللّوعة في الفرصة التالية وأعترف بكل شيء. إذا ما تجرأت على طلب أي شيء منك الآن لن يكون لقول شيء. أحبك، لكن لا تقولي شيئًا. انتظري ثلاث دقائق قبل أن تتكلمي».

سمعته بذعر متعاظم وبدت غير قادرة على التفوه بكلمة واحدة. كانا يقفان هناك بلا حراك.

«لكن لا بد أنك معتوه!» قالت أخيرًا، وهي تهز رأسها بعنف. شاحبة ومنكسرة، أضافت وفي عينيها الزرقاوين ألق جليدي: «تعلم بأني مخطوبة، تقبّل تلك الواقعة، وأيضًا..»

«أعرف ذلك تمام المعرفة! هل تظنين أنه يمكن أن أنسى وجهه ولباسه الرسمي؟ إنه رجل جذاب، لا تشوبه شائبة، لكني لا أستطيع أن أمنع نفسي عن تمني موته! قلت لنفسي مئات المرّات: لا حظّ لي معك. لكني أحاول أن أهرب من الحقيقة، وأتمنى أن يكون هناك سبيل ممكن، كثير من الأشياء يمكن أن تحدث، ليس كل شيء معدومًا. ولا يزال هناك أمل، أليس كذلك؟».

«توقف! لا تفعل هذا معي!» صرخت. «ماذا تريد مني؟ ما الذي يمكن أن تفكر فيه؟ هل تعني أن عليَّ... لأجل الله، دعنا لا نتحدث عن هذا بعد الآن، رجاء! اذهب الآن! لقد دمرت كل شيء ببعض التلميحات الحمقاء. لقد أفسدت كل شيء-الأحاديث التي تحدّثناها- والآن ليس في وسعنا أن نلتقي مجددًا! لماذا تفعل ذلك؟ لم أسمع يومًا شيئًا بهذا الجنون! أتوسل إليك، لا تشر إلى هذا مجددًا، من أجلك ومن أجلي. أنت تعرف تمام المعرفة بأني لا أستطيع أن أكون أي شيء لك. لا يمكنني تخيل كيف توصلت إلى هذه الفكرة! لننه هذه المحادثة. اذهب إلى البيت وتقبل الأمر. أشعر بالأسف الشديد عليك، لكن لا شيء يمكنني فعله».

«هل تعنين أنه الوداع-وأني أنظر إليك للمرة الأخيرة؟ لا، لا يمكن أن يكون! إذا ما وعدت بأن أكون هادئًا، وأن نتحدث عن أي شيء سواه، هل يمكنني أن أراك ثانية؟ إذا ما كنت هادئًا كليًا ولا أتطرق إلى هذا الأمر بتاتًا؟ ربما يومًا ما عندما تملين من الآخرين جميعًا.. أي شيء، طالما أنها ليست المرة الأخيرة. ها أنت تهزين رأسك ثانية-رأسك

الجميل. كم هو بائس كل شيء! حتى لو لم يكن هناك ما تفعلينه معي، لو تكذبي فقط وتقولي نعم-فقط لتسعديني! لقد اتضح أنه يوم حزين لي، بالرغم من أني استيقظت وأنا أغني هذا الصباح. دعيني أراكِ فقط مرة أخرى».

«لا يمكنك أن تطلب مني ذلك-لا يمكنني أن أعدك. علاوة على ذلك، أي فائدة ترجى؟ رجاء اذهب الآن! ربما نلتقي ثانية، لا أعرف، لكنه مستحيل. عليك أن تذهب الآن!» صرخت بغضب مضيفة: «هذا قد يكون أكثر الأشياء لطفًا يمكنك فعله».

توقف قصير.

وقف يرنو إليها، يتنفس بصعوبة. ثم استعاد رباطة جأشه وانحنى. ترك قبعته تسقط على الأرض وأمسك بيدها، رغمًا عنها، وضغط بيديه عليها بشدة. صرخت وفي الحال أفلتها، مغمومًا لأنه تسبب لها بالألم. وهي تبتعد توقف هناك يحدّق إليها. بعض خطوات أخرى وستكون بعيدة عن مرمى بصره. تورد وجهه، عض على شفتيه إلى أن نزفتا وأدار ظهره لها بمزيج من اللهفة والغضب. كان رجلًا في النهاية، لا بأس عليه-وداعًا...

فجأة التفتت وقالت: «ولا تتسكع حول بيت الكاهن ليلًا. إذن أنت من جعل الكلب ينبح باهتياج في الليالي الماضية! كدت ذات ليلة تجعل أبي يخرج من سريره. عليك أن تكف عن فعل ذلك، هل تسمع! يمكنني أن آمل فقط ألاّ تتسبب في المتاعب».

بدد جرس صوتها غضبه. هز رأسه.

«وهذا كان عيد ميلادي!» قال، مغطيًا وجهه بذراعه وهو يبتعد.

راقبته وهو يمضي، ترددت للحظة ثم ركضت خلفه وأمسكت بذراعه.

«أنا آسفة، لكن هذا ما يجب أن يكون. لا يمكن أن أعني أي شيء بالنسبة إليك. لكن ربما سنلتقي ثانية يومًا ما. ألا تظن ذلك؟ الآن عليَّ الذهاب».

أدارت ظهرها له وابتعدت مسرعة.

الفصل الثاني عشر

قدمت السيدة المبرقعة سيرًا على الأقدام من رصيف الميناء، حيث ترجلت للتو من السفينة. توجهت مباشرة إلى الفندق المركزي.

صادف أن نيجل يقف إلى نافذته ينظر إلى الخارج. لقد أمضى طوال ما بعد الظهر يذرع الأرض، متوقفًا بين الفينة والأخرى ليشرب كوبًا من الماء. كان خداه محمومين ومتوردين، تحتقن الدماء في عينيه. كان غارقًا لساعات في أفكار لقائه بداجني كيلاند.

عندها شعر برغبة في مغادرة البلدة ورمي كل هذا خلفه. فتح حقيبته وأخرج بعض الأوراق، وآلتي نفخ نحاسيتين، وآلة فلوت، وبعض الملابس، من ضمنها بذلة صفراء زاهية اللون تشبه التي كان يرتديها، وعدة أمور أخرى، بسطها جميعًا على الأرض. نعم، عليه أن يغادر، لا يمكنه البقاء في هذه البلدة مدة أطول. أنزلت الأعلام وهدأت الشوارع، لمَ لا يرحل؟ وأي شيطان جعله يأتي إلى هذا المكان منذ البداية؟ كانت حفرة بائسة أهلها متطفلون تافهون.

لكنه عرف في قرارة قلبه أنه لن يستطيع حمل نفسه على المغادرة، كان فقط يعبث بالفكرة ليدعم شجاعته ويواصل تضليل نفسه. بائسًا ومغتمًا، حزم جميع حاجياته مجددًا ووضع حقائبه في مكانها ثم راح يذرع المكان بين الباب والنافذة مسعورًا وذاهلًا، في حين دقت الساعة في الأسفل ساعة بعد أخرى. ثم دقت السادسة.

وهو يعرج على النافذة، وقع نظره على المرأة المبرقعة تدخل الفندق. تبدلت ملامحه كليًا، ضرب رأسه عدة مرات. في النهاية، لمَ لا؟ لها ما له من حق في أن تقيم في الفندق. بأية حال، لم يكن الأمر يعنيه، هناك أمور أخرى تشغل تفكيره، إلى جانب أنه لم يعد لأحدهما علاقة بالآخر.

بذل جهدًا كبيرًا ليكبح جماح نفسه، جلس وتناول صحيفة من على الأرض، وتظاهر بالقراءة. بعد عدة لحظات فتحت سارة الباب وناولته بطاقة كُتب عليها «كامًّا» بقلم رصاص. هذا كان كل شيء. نهض ونزل إلى الطابق السفلي.

كانت السيدة تنتظر في البهو. لا تزال تضع برقعها.

«مرحبًا سيمونسن،» قالت بصوت يخنقه الانفعال. جفل لكنه استعاد رباطة جأشه وسأل سارة: «هل من مكان يمكننا التحدث فيه لبرهة؟» أرشدتهما إلى غرفة تجاور غرفة الطعام وسرعان ما أغلق الباب، انهارت المرأة على كرسي، كانت في حالة انفعالية شديدة. كانت محادثتهما متقطعة، أشارا بتلميحات ملغزة إلى الماضي واستعملا كلمات وجُملاً لا يعرف سواهما معناها. من الواضح أنهما على معرفة جيدة الواحد بالآخر، تحدثا على مدى أقل من ساعة، كان حديثهما باللغة الدانماركية أكثر منه بالنرويجية.

«سامحني لأني دعوتك بسيمونسن، فهو الاسم التحبّبي الذي أطلقه عليك» قالت. «أردده كل مرة بيني وبين نفسي، كما لو أنك بالقرب مني».

«متى وصلت إلى هنا؟» سأل نيجل.

«توًا، منذ بضع دقائق قدمت على باخرة. لكني سأغادر سريعًا».

«بهذه السرعة؟»

«انظر، أعرف أنك تشعر بالارتياح، يبدو هذا واضحًا، أليس كذلك؟ لكن ماذا يجب أن أفعل بشأن الألم في ثديي؟ تحسس هنا، لا إلى الأعلى. ماذا تظن؟ يبدو لي بأنه يزداد سوءًا منذ لقائنا الأخير، ألا تظن ذلك؟ حسنًا، لا يهم. هل أبدو مشعثة؟ قل لي بصراحة. كيف يبدو شعري؟ أنا متسخة، امتدّت رحلتي أربعًا وعشرين ساعة. أنت لم تتغير، بارد كعهدك دومًا. هل لديك مشط؟».

«لا، ما الذي جعلك تأتين إلى هنا؟ ما هو ذلك..»

«قد أسألك نفس السؤال. ما الذي جعلك تختفي في مكان مثل هذا؟ هل تظن بأني لم أكن لأجدك؟ يبدو أنك تدعو نفسك مهندسًا زراعيًا هنا؟ التقيت بعض الرجال عند رصيف الميناء وقالوا إنك كنت تهتم بشجيرات الكشمش في حديقة السيدة ستينرسن. يبدو أنك كنت تعمل هناك كالمجنون طوال يومين. يا لها من فكرة غريبة! يداي متجمدتان من البرد، هذا حالهما دومًا عندما أكون منزعجة، أنت تعرف ذلك، وأنا الآن منزعجة. يبدو أنك لم تعد تكن لي الكثير من المشاعر، مع أني ما زلت أدعوك سيمونسن كما في الأيام الخوالي وأبدي مثل هذا الفرح لرؤيتك. هذا الصباح عندما كنت مستلقية في مضجعي تساءلت كيف سيستقبلني؟ هل سيتحدث إليَّ بحميمية كما كان يفعل، ويربت تحت ذقني؟ كنت متأكدة تقريبًا من أنك ستفعل لكنّني كنت مخطئة. وقد فات الأوان الآن، لذا رجاء لا تحاول. لمَ تجلس هناك تطرف بعينيك بتلك الطريقة؟ هل تفكر في شيء آخر في حين أتحدث إليك؟».

«لا أشعر أني بخير اليوم كامًا. أخبريني بصدق لمَ أتيت إلى هنا. سوف أقدر جوابًا صريحًا».

«لمَ أتيت لرؤيتك؟ يا إلهي، كم بإمكانك أن تكون قاسيًا! هل تخشى

من أن يكون سبب مجيئي لطلب المال منك –لأسرق محفظتك؟ إذا كان في قلبك مثل هذه الأفكار السوداء، قلها، رجاء. لمَ أتيت؟ ألا يمكنك أن تخمن؟ ألا تعرف ما هو اليوم؟ هل نسيت أن اليوم عيد ميلادك؟».

رمت نفسها على ركبتيها أمامه وهي تنشج، ممسكة بكلتا يديه، ورفعتهما أمام وجهها ومن ثم ضغطتهما على نهدها.

فجأة شعر بتأثر غريب من انفجار الحنان غير المتوقع هذا. قربها منه وعانقها على ركبتيه.

«لم أنسَ عيد ميلادك،» قالت. «لن أنسى أبدًا. ليس لديك فكرة كم بكيتك ليلًا، عندما جافاني النوم من التفكير فيك. يا عزيزي، لا تزال لديك نفس الشفاه الحمراء! فكرت في كثير من الأمور على سطح السفينة-تساءلت فيما إذا كانت شفتاك لا تزالان حمراوين. كيف تجوب عيناك! أنت متضايق، ألست كذلك؟ لم تتغير بتاتًا. لكن عينيك تطوفان كما لو أنك تحاول أن تفكر في طريقة للتخلص مني بأسرع ما يمكن. أظنك ستكون مرتاحًا أكثر إذا ما جلست بالقرب منك. لدي الكثير من الأمور لأتحدث معك بشأنها، وعليَّ أن أفعل في الحال لأن المركب سيغادر سريعًا جدًا. لكن ما تبديه من عدم اكتراث يربكني. ما الذي يمكنني قوله لجعلك تصغي إليَّ؟ أنت لا تقدر مجيئي إلى هنا، متذكرة عيد ميلادك... هل حصلت على الكثير من الزهور؟ أنا واثقة من أنك فعلت! لا بد أن السيدة ستينرسن تذكرتك! قل لي، كيف تبدو السيدة ستينرسن التي كنت تعمل عندها مهندسًا زراعيًا؟ أنت لم تتغير قيد أنملة! كنت لأشتري لك بعض الزهور أيضًا، لو كنت أملك المال، لكني في حال حرجة في الوقت الراهن. لأجل الله، ألن تصغي إليَّ هذه الدقائق القليلة؟ كم تغير كل شيء! هل تتذكر–لكنك

بالتأكيد لا تفعل-كيف تعرفت إليَّ ذات مرّة من بعيد من الريشة في قبعتي وأتيت تهرع نحوي؟ لا بد أنك تتذكر ذلك! لقد حدث ذات يوم على المتاريس[1] -لكن الآن لا يمكنني تذكر ما جعلني أذكر الريشة. لقد نسيت الفكرة التي كنت سأقولها، لكني كنت سأستغلها ضدك. ما المشكلة؟ لمَ تقفز بهذا الشكل؟».

نهض فجأة ومشى على أطراف أصابعه عبر الغرفة وفتح الباب بفظاظة.

«إنهم يطلبونك في غرفة الطعام سارة،» نادى من الباب.

وهو يجلس مجددًا أومأ هامسًا إلى كامًا: «لدي شعور بأنها كانت تسترق النظر من ثقب المفتاح».

أظهرت كامًّا تبرمها وقالت: «وماذا يعني ذلك؟» لماذا يفكر عقلك في ألف شيء آخر الآن؟ لقد جئت إلى هنا لخمس عشرة دقيقة ولم تطلب مني حتى أن أخلع برقعي. لكن فات الأوان، لا تتجاسر على طلب مني ذلك الآن! لم يخطر لك أبدًا كم يكون مزعجًا برقع سميك في هذا الحر! حسنًا، أفترض بأني أستحقه، ما الذي بحق الأرض جعلني آتي إلى هنا؟ سمعتك تطلب من الخادمة أن تستعمل هذه الغرفة لبرهة- «فقط برهة»، قلت. وهذا لا يمكن أن يعني إلا أنك أملت أن تتخلص مني سريعًا. أنا لا أؤنبك، لكن هذا يجعلني بائسة بشكل رهيب. ليساعدني الله! لم لا أنساك؟ أعرف أنك مجنون، عيناك عينا مجنون. كما قيل لي، ويمكنني أن أرى هذا بنفسي. لكني لا أستطيع أن أنساك مع ذلك. قال الطبيب نيسين إنك مجنون، والله يعلم أنها لا بد أن تكون الحقيقة إذا كان بوسعك أن تدفن نفسك في حفرة مثل هذه وتسمي نفسك مهندسًا زراعيًا. فقط لا يمكنني أن أتجاوز ذلك! وأنت

---

(1) من المرجح أنه يشير إلى قلعة اكورشوس Akershus.

لا تزال ترتدي ذلك الخاتم الحديدي وتمشي في تلك البذلة الصفراء الفاقعة-ما من أحد آخر يود أن يموت وهو يرتديها!»

«هل قال الطبيب نيسين إنني مجنون حقًا؟» سأل.

«لم يخف الطبيب نيسين شيئًا حول الموضوع. هل تود أن تعلم من قال ذلك أيضًا؟».

توقف قصير.

كان صامتًا لبرهة. ومن ثم رفع بصره وقال: «كامًا، قولي لي بصراحة هل يمكنني أن أساعدك ببعض المال؟ يمكنني أن أفعل ببساطة كما تعلمين».

«لا!» صرخت. «أبدًا! ما الذي يجعلك تظن بأنك تستطيع أن تقذف الإهانة تلو الإهانة في وجهي!».

توقف قصير.

«لا أرى أي فائدة من جلوسنا هنا نتقاذف العبارات اللاذعة،» قال.

قاطعته منتحبة، و يبدو أنها فقدت السيطرة على مشاعرها.

«من هو اللاذع؟ أنا؟ لقد تغيرت في هذه الأشهر القليلة الأخيرة بما لا يقاس. أتيت إلى هنا فقط لـ.... لم أعد أتوقع منك أن تبادلني مشاعري بعد الآن، وأنت تعلم بأني لن أستجدي حبك أبدًا. لكني أملت في أنك على الأقل ستكون لطيفًا. يا إلهي، كم أنا بائسة! كان عليَّ أن أخلعك من قلبي، لكن لا أستطيع. بدلًا من ذلك، أتبعك لأرمي نفسي عند قدميك. هل تتذكر ذلك اليوم على طريق درامين، لقد لكمت كلبًا على خطمه لأنه يقفز عليَّ؟ اللائمة تقع عليَّ، لقد صرخت لأني ظننت أنه كان سيعض، لكنه فقط أراد أن يلعب. بعد أن ضربته، بدلًا من أن يركض بعيدًا، تمدد عند قدمينا. ومن ثم بكيت على الكلب

ودللته-رأيت دموعك، مع أنك حاولت أن تخفيها-لكن الآن لا يوجد منها شيء، وعلى الرغم من ذلك... لا أعني المقارنة. أنت لا تظن بأني سأقارن نفسي بالكلب، أليس كذلك؟ الله وحده يعلم إلى أي تفكير يقودك غرورك الذي لا يصدق. أنا أعرف ذلك التعبير على وجهك. رأيت تلك الابتسامة، نعم، أنت تضحك عليَّ! أنا فقط عليَّ أن أقول لك مباشرة-لا، سامحني-هذا فقط من شدة يأسي. أنت تنظر إلى امرأة محطمة. لقد بلغت الحضيض. أعطني يدك! ألا يمكنك أن تسامحني على حماقتي الصغيرة تلك؟ لو أنك فقط تتوقف عن التأمل، قد تعرف بأنها لا تعني شيئًا. كان عليَّ أن أنزل إليك ذلك المساء. أنت واصلت الإيماء، ومع ذلك لم آت-يا إلهي، كم أندم على ذلك! لكنه لم يكن هناك، مع أنك كنت مقتنعًا بأنه موجود. كان هناك، لكنه كان قد غادر. أعترف بذلك وأتوسل غفرانك. كان عليّ أن أبعده، أعرف، أعترف بذلك، أعترف بكل شيء، ولم يكن عليَّ.. لكن لا أفهم، لم أعد أفهم أي شيء...»

توقف قصير.

لم يكسر الصمت سوى نحيب كامًّا وقرقعة أدوات المائدة في غرفة الطعام. واصلت البكاء والتربيت على عينيها بمنديل من تحت برقعها.

«إنه بائس جدًا،» قالت،» وضعيف أيضًا. يضرب بقبضته على الطاولة بين الحين والآخر ويقول اذهبي إلى الجحيم. يصرخ في وجهي، يقول لي إنّني أدمره، إنّني دنيئة. لكنه سرعان ما يصبح شقيًا وعاجزًا عن هجري والانفصال النهائي عني. إنه جبان-ماذا يمكنني أن أفعل؟ أؤجل تركه من يوم إلى آخر، مع أنها حالة مستحيلة. لكن لا تتجرأ على الشعور بالأسف عليَّ، لا أريد أيًا من شفقتك المحتقرة. بأية حال، إنه أفضل من معظم الرجال، وجعلني أكثر سعادة من أي

شخص آخر -منك أيضًا. وأريدك أن تعلم أيضًا بأني أحبه، لم آتِ إلى هنا لأشتكي. عندما أعود إلى البيت، إليه، سوف أركع على ركبتي وأتوسل مسامحته على ما قلته عنه للتو-لذا ساعدني، سأفعل!».

«أرجوك كامًّا كوني متزنة. دعيني أساعدك! أعرف مدى حاجتك إليه. ألن تسمحي لي بأن أفعل شيئًا؟ إنها قسوة منك أن ترفضيني عندما أريد أن أفعل ولدي النقود».

بقوله هذا أخرج محفظته.

«ألم تسمعني عندما قلت لا؟» صرخت.

«لكن ماذا تريدين إذن؟» قال مغتاظًا.

نهضت وتوقفت عن البكاء، بدت نادمة على انفجارها.

«اسمع سيمونسن-اسمح لي أن اسميك بذلك الاسم مرة ثانية. لا تغضب، لكني أود أن أطلب منك شيئًا: ما الذي تملّكك لتأتي وتعيش في مكان مثل هذا؟ ومن ثم أنت تتساءل عن السبب الذي يدعو الناس للظن بأنك مجنون؟ لا بد من أنك تعرف الريف جيدًا لتتذكر موقع هذه المدينة. إنها بلدة ليست على شيء من الأهمية، وأنت لا تزال تنتحل شخصية وتصدم الناس هنا بأفكارك المجنونة. ألا يمكنك أن تفكّر في شيء أفضل؟ حسنًا، لا شأن لي بذلك-أنا قلت ذلك فقط من... لكن ماذا تظن أن عليَّ أن أفعل بثديي؟ إنني أشعر بأنه على وشك أن ينفجر. ألا تظن أن عليَّ أن أرى الطبيب ثانية؟ لكن كيف بحق الله يمكنني أن أذهب إلى طبيب وأنا لا أملك فلسًا؟».

«لكني سأكون سعيدًا جدًا بإعطائك المال. يمكنك أن تعيديه لي يومًا ما إذا أردت».

«لا يهم حقيقة إذا ذهبت إلى الطبيب أم لا،» واصلت بعناد طفل. «من سيحزن عليَّ لو مت؟»

ثم بدا فجأة أنها فكرت في الأمر، غيرت موقفها وقالت: «بعد إعادة النظر، لم عليَّ أن أرفض مالك؟ طالما أني قبلته من قبل، لمَ لا الآن؟ أنا لست شديدة الثراء كي أستطيع تحمّل... رفضتك مرة بعد أخرى، وعرفت بأني قد أفعل، عندما كنت مستاءة. أنت عولت على ذلك-نعم، لقد فعلت! أنت لا تريد أن تقاسمني نقودك، على الرغم من أنك تملك الكثير في هذه اللحظة كما يبدو-ألا تظنّ بأني لحظت ذلك؟ وحتى لو عرضت مجددًا مساعدتي، فأنت تفعل لتذلني، لتشمت بأني لا أستطيع أن أرفض العرض. لكن لا يمكن أن رفضه، عليَّ أن أقبل نقودك بتذلل. أتمنى من الله لو لم يكن عليَّ مناشدتك! لكن لا بد من أن تصدقني، ليس هذا هو السبب الذي دعاني للمجيء إلى هنا اليوم. لا يمكنك أن تكون تافهًا لتفكر في مثل هذا الأمر. لكن كم يمكنك أن تقدم، سيمونسن؟ رجاء لا تمانع سؤالي، آمل أنك لا ترفض سؤالي وعليك أن تصدق أني صافية النية...».

«كم تحتاجين؟»

«كم أحتاج؟ يا ربي، لن أفوت المركب، هل سأفوته؟ أحتاج الكثير... ربما بضع مئات من الكرونات لكن...»

«اسمعي. ليس عليك أن تشعري بالإهانة إذا ما أعطيتك هذا المال. إذا ما أردته، يمكنك أن تأخذيه. يمكنك أن تقدمي لي خدمة كبيرة لو تجرأت فقط على سؤالك...»

«إذا تجرأت على سؤالي!» هتفت مبتهجة على هذه الفرصة لتحفظ شرفها. «يا له من سؤال! ماذا تريد مني أن أفعل سيمونسن؟ أنت تعلم بأني سأفعل أي شيء من أجلك أيها الأغلى!».

«لا يزال أمامك خمس وأربعون دقيقة على مغادرة المركب...»

«ما الذي تريد مني أن أفعل؟»

«أود أن تزوري سيدة وتقومي ببعض الأمور من أجلي».

«سيدة؟»

«هي تسكن في منزل مؤلف من طبقة واحدة عند رصيف الميناء. لا يوجد ستائر على النوافذ، لكن هناك عادة زهور بيضاء على عتبة النافذة. اسم السيدة مارتا جودي-الآنسة جودي».

«لكن أليست هي السيدة ستينرسن؟».

«لا، أنت مخطئة. الآنسة جودي هي سيدة في الأربعين من عمرها. لكن لديها كرسي قديم وضعت في بالي الحصول عليه، وعليك أن تساعديني. الآن خذي نقودك وسأشرح لك كل شيء».

بدأ الظلام يحل. كان نزلاء الفندق يخرجون من غرفة الطعام عندما كان نيجل يعطيها تفاصيل إضافية عن الكرسي القديم. عليها أن تكون شديدة اللباقة. لم يكن عليها أن تفصح عن سبب تواجدها هناك تحت أي ظرف. كانت كامًّا تواقة إلى الذهاب، من الواضح أن هذه المهمة السرية أثارتها. ضحكت وظلت تسأل إذا ما كان عليها أن تتخفى-على الأقل عليها أن تضع نظارات. ألم تكن لديها يومًا قبّعة حمراء؟ يمكنها أن ترتدي تلك....

«لا، لا أريد أي تمويه. كل ما عليك فعله هو أن تعرضي سعرًا أعلى للكرسي. يمكنك أن تصلي إلى رقم مئتي كرون-لنقل مئتين وعشرين. ولا تقلقي لن تلتزمي به-لن تحصلي عليه».

«يا إلهي، هذا مبلغ كبير من المال! لمَ لن أحصل عليه مقابل مئتين وعشرين كرون؟».

«لأنه ملك لي الآن».

«لكن لنفترض أنها قبلت عرضي؟».

«لن تفعل. اذهبي ودعينا نشاهد الآن ماذا في وسعك فعله».

كانت خجلة من مظهرها، وقبل أن تغادر سألته مجددًا عن مشط وأظهرت قلقًا بشأن فستانها المجعد. «لكني لم أرتح لقضائك وقتًا طويلًا مع السيدة ستينرسن تلك،» قالت بشكل عابث. «أنا فقط لن أطيق ذلك. سوف يحطم قلبي». ورمقت النقود سريعًا لتتأكد من أنها كانت في مأمن.

«يا له من لطف أن تعطيني كل هذا المال!» هتفت.

رمت برقعها بتهور وقبلته على فمه. لكن عقلها كان منصبًا على مهمتها الغامضة في الذهاب إلى مارتا جودي، «كيف سأعلمك بأن الأمور سارت على ما يرام؟» أرادت أن تعرف.

«يمكنني أن أطلب من القبطان أن يطلق الصفارة أربع أو خمس مرات-ألن يكون هذا حسنًا؟ أنت ترى بأني لست حمقاء في آخر الأمر! يمكنك الاعتماد عليَّ. هذا أقل ما يمكنني فعله من أجلك... صدقني عندما أقول إنّني لم آت إلى هنا من أجل المال! حسنًا، شكرًا لك مجددًا. إلى اللقاء!».

قامت ثانية بحركة سريعة لتتأكد من أن النقود قد دست في مأمن.

وبعد نصف ساعة سمع نيجل الباخرة تصفر خمس صافرات.

الفصل الثالث عشر

مر يومان.

بقي نيجل في الفندق، يتجوّل بغير هدى، قلقًا ومتألمًا على نحو بيّن. غدت عيناه خلال هذين اليومين جامدتين وخاملتين. لم يبادر أحدًا بالكلام حتى نزلاء الفندق.

اعتاد أن يظل في الخارج حتى ساعات الصباح الأولى، وذات ليلة عاد بمنديل معقود حول يده. قال إنه تعثر بآلة رفع الصيد عند رصيف الميناء معللًا إصابته بجرحين.

أمطرت صباح يوم الخميس، ما جعله أكثر اكتئابًا. لكن بعد أن قرأ الصحف ضاحكًا على نقاش عاصف في مجلس النواب الفرنسي، قفز فجأة من السرير وفرقع أصابعه. أي جحيم يرغمه على الجلوس والاستغراق في التفكير؟

العالم شاسع، العالم غني، ومبهج، وجميل.

فليسقط الحزن!

طلب سارة قبل أن ينهي ارتداء ملابسه وأعلمها عن حضور بعض الأشخاص لزيارته ذلك المساء، ستة أو سبعة ظرفاء من شأنهم أن يشيعوا قليلًا من البهجة مثل الطبيب ستينرسن، وهانسن المحامي، ومدير المدرسة، وآخرين.

جلس في الحال وبدأ بكتابة الدعوات. قبل القزم الدعوة، رينيرت

كان أيضًا مدعوًا لكنّه لم يأت. اجتمعوا عند الساعة الخامسة في غرفة نيجل. حل الظلام وكان المطر لا يزال ينهمر،والمصباح مُضاءً والستائر مسدلة.

ثم بدأ الاحتفال: كان حدثًا صاخبًا وكثير الشغب منح للبلدة الصغيرة موضوعًا للثرثرة طوال أيام.

عندما وصل القزم، تقدم نيجل نحوه وطلب منه الصفح عن تفوهه بكل ذلك الهراء في آخر لقاء جمعهما. صافح القزم بحرارة وقدَّمه لأوين الطالب، الوحيد الذي لا يعرفه ضمن المجموعة. همس القزم بكلمات الشكر على البنطال الجديد. الآن كل ما يرتديه كان جديدًا!

«أنت ما زلت في حاجة إلى صدار!»

«لكني لا أحتاج إلى صدار! أنا لست من النبلاء في النهاية، أؤكد لك أني لا أستعمل صدارًا!»

كسرت نظارة الطبيب ستينرسن فقد كان يضع نظارة أنفية، لا تكف عن السقوط .

«هذا عصر الانعتاق، لا شك في ذلك،» قال ستينرسن. «قارن فقط الانتخابات التي مارسناها للتو مع الانتخابات الأخيرة».

كان الجميع يمعنون في تناول الخمر. كان هولتان مدير المدرسة يتحدث حديثًا متحفظًا، ولطالما كان هذا أمارة تشير إلى ظَرفه. بدأ هانسن، الذي كان بيّنًا تناوله للخمر قبل قدومه، في مجادلة الطبيب كالعادة وأوغل في بذاءته.

لم يكن هانسن الاشتراكي-الاشتراكي التقدمي إذا جاز القول- راضيًا عن الانتخابات. هل بوسع أحد أن يخبره ما التحرري فيها إلى هذا الحد؟ فليذهب إلى الجحيم كل هذا الإعتاق! ألم يهاجم رجل مثل

جلادستون بارنيل المسكين على أسس أخلاقية، وحكم عليه بمعايير برجوازية سخيفة؟ إلى الجحيم بكل ما هو فاسد!

«لكنك تتحدث مثل أحمق لعين!» صرخ الطبيب. «هل أنت ضد النظام في البرلمان؟ إذا شعر الناخبون بانعدام الأخلاق في البرلمانات، كم منهم سيدلي بصوته؟» عليك أن تخدع الناس وتتملقهم بالتلويح المستمر بالمعايير الأخلاقية وكل ذلك. كان الطبيب ستينرسن يحسن الظن ببارنيل، لكن إذا كان معارضًا شديدًا لجلادستون، عليه أن يعلم ما ينتظره-عذرًا من المضيف السيد نيجل الذي ليس في وسعه أن يسامح جلادستون على كونه رجلًا شريفًا.

«بالمناسبة، يا سيد نيجل، يبدو أنك لا تكنُّ احترامًا كبيرًا لتولستوي أيضًا؟ ذكرت الآنسة كيلاند أن لديك بعض التحفظات عليه».

كان نيجل يتحدث إلى أوين، التفت سريعًا وقال: «لا أتذكر أني تحدثت والآنسة كيلاند عن تولستوي. أعرف أنه روائي عظيم، لكن فلسفته ساذجة، أقل ما يقال...» تابع بعد برهة: «أظن أن علينا التحدث بصراحة الليلة. ما من سيدات هنا، وهذا مسكن عازب في النهاية. هل توافقون؟ أنا في مزاج لجدال طويل! أود الانخراط في عراك جيد..».

«لمَ لا تبدأ،» قال الطبيب بنبرة تنم عن الاستياء.

«تولستوي أحمق».

«ليعبر كل واحد عن رأيه،» قال هولتان. كان قد بلغ لتوه حالة من السُّكر سقطت بموجبها جميع الروادع. «القمع ممنوع، أيها الطبيب، أو عليك الخروج. لا بد من أن يفصح كلّ واحد عن رأيه. ستوكر[1]، على سبيل المثال، ابن زنا-ويمكنني إثبات ذلك!».

(1) أدولف ستوكر كاهن لوثري مؤسس الحزب المسيحي الاشتراكي

ضحك الجميع، ومرت فترة قبل أن يعودوا إلى الحديث عن تولستوي. كان كاتبًا عظيمًا وقوة روحية عظيمة.

احتدم نيجل فجأة: «هو ليس مفكّرًا عظيمًا! إنه من أنصاف الموهوبين، وأفكاره ليست أكثر عمقًا من التعاليم المبهجة لجيش الخلاص. روسي لا يحمل رتبته ولقبه، ولا يملك روبلاته المليون، أقصى ما يمكنه هو أن يحرز شهرة من تعليمٍ بعض الفلاحين إصلاح أحذيتهم. لكن لننسَ كل ذلك ونمرح قليلاً. في صحتك يا سيد جروجارد!».

كان نيجل شديد الاضطراب، يتوجه إلى القزم من حين لآخر ويتبادل وإياه شرب الأنخاب. أشار مرارًا إلى استطراده في لقائهما السابق وطلب مغفرة القزم.

«بالنسبة إليّ، لا شيء مما قد تقولونه يمكن أن يصعقني،» قال الطبيب، مشيرًا إلى نفسه بتكلف.

«أحيانًا أكون خلافيًا نوعًا ما،» قال نيجل مجيبًا، «وأنا في هذا المزاج الليلة. ربما بسبب بعض النكسات التي واجهتها أول أمس، والطقس الذي يثير كآبتي إلى حد بعيد أيضًا. أنا واثق من أنك تفهم يا دكتور ستينرسن، وأنك ستغفر لي. بالعودة إلى تولستوي، أرى أن فكره ليس أعظم من-لنقل-من فكر الجنرال بوث[1]. كلاهما واعظان، ليسا مفكرين بل واعظان. يتعاملان مع الحالة الراهنة، يبسّطان الأفكار المقبولة سلفًا، يختزلانها إلى أدنى الصفات المشتركة، ومن ثم يجلسان ويراقبان ترسخها. لكن إذا كنت مقدمًا على البيع، لا بد من أن تجني ربحًا، ومشاريع تولستوي تنمي عن خسارة صاعقة. تراهن صديقان ذات مرة، راهن الأول الثاني على اثني عشر شلنًا بأنه يستطيع أن

---

(1) وليم بوث: مبشر لندني. مؤسس الحركة التي تحولت فيما بعد إلى جيش الخلاص.

يصيب بندقة في يد الآخر من على بعد عشرين خطوة دون أن يمسها. حسنًا، أطلق النار وأخطأ الهدف مفجرًا اليد بكاملها أشلاءً، لكنه فعل ذلك بأسلوب. تأوه صديقه المصاب وهو على وشك الإغماء قائلًا: «لقد خسرت الرهان-أعطني اثني عشر شلنًا. أعطني اثني عشر شلنًا.»! يا إلهي، كيف يعمل تولستوي على محو رذائل الإنسانية السعيدة ويجعل العالم زاخرًا بحب الله والجنس البشري! إن الأمر يملؤني بالعار. ربما يبدو على شيء من الوقاحة القول إن مهندسًا زراعيًا يخجل من كونت، لكن هذا هو الحال. ربما كان الأمر مختلفًا لو كان تولستوي شابًا يقاوم الغواية أو لو كانت لديه معركة يقاتل فيها ويحاول أن يكسبها مبشرًا بالعفة والعيش الطاهر. لكن مصادره جفت، لم يبق لديه مزيدٌ من الشفقة ليكافح بها. قد تقول: لكن هذا لا صلة له بفلسفته. لكن له كل الصلة! أوه، انتظر فقط حتى يجعلك التقدم في العمر قاسي القلب وراضيًا عن نفسك! حينها اذهب إلى الشاب وقل: «اترك كل تلك الزخارف الظاهرية.» يتفكر الشاب، يمعن في التفكير، ويتوصل إلى نتيجة مفادها أن هذا حقًا ما يعظ به الإنجيل. لكنه لا «يترك»، ويستمر بارتكاب المعاصي بسعادة طوال أربعين عامًا. عندما تمضي الأربعون سنة ويهرم الشاب، يسرج فرسه الناصعة البياض ويمتطيها رافعًا رايته الصليبية عاليًا بيده النحيلة، مبشرًا شباب العالم برسالة الدين عن التوبة. إنها لملهاة تكرر نفسها بلا نهاية. لقد اكتفيت من تولستوي. أنا مسرور من أن الفتى الكبير لا يزال قادرًا على تقديم الكثير بسخاء. هو بالتأكيد سيكافأ في النهاية بالذهاب إلى بارئه! لكن، في النهاية هو يفعل فقط ما فعله كثير من العجائز قبله، وما سيواصل الكثيرون فعله بعد رحيله. الأمر بهذه البساطة».

«كلمة أخرى،» قال الطبيب، «وبعدها سننهي النقاش. لا تنسَ أن

تولستوي كان صديقًا مخلصًا للكائنات البشرية المعوزة والفقيرة. أما من قيمة لهذا؟ أرني أرستقراطيًا في هذه البلاد رعى المعسرين كما فعل هو! لا يمكنني ألا أشعر بأن من يدعي وجوب اعتبار تولستوي أحمقَ لكون تعاليمه غير متبعة، هو شخصٌ متعجرف.»

«برافو، دكتور!» قال هولتان مزمجرًا بوجه متورد. «برافو! لكن كان عليك أن تفصح عن رأيك بحدة أكبر قليلًا. يحق للجميع أن يدلي بدلوه. لكنك متكبر، نيجل. يمكنني أن أثبت ذلك!».

«في صحتكم!» قال نيجل. «ينبغي ألا ننسى سبب وجودنا هنا. هل تقصد القول أيها الطبيب، أن الرجل يستحق الثقة لمنحه عشر روبلات في حين بقي بحوزته -دون مبالغة-مليون روبل؟ لا يمكنني أن أتماشى معك في هذا أو مع أي شخص آخر، من هذه الناحية. لا بد من أن لدي تصورًا للأمور يختلف عن تصوركم. في حياتي، لا يمكنني أن أفهم لماذا ينبغي أن يحمد أي شخص على أعماله الخيرية، على الأقل رجل ثري».

«أوافقك الرأي،» قال هانسن بنزق. «أنا اشتراكي وهذا بالضبط ما أشعر به».

التفت الطبيب إلى نيجل وهتف مبديًا الضيق: «هل لي أن أسألك إذا كنت تملك حقًا الوقائع والأسماء بشأن المبلغ الذي يتصدق به تولستوي على مدى عام؟ لا بد من أن يكون هناك حد لمغالاة المرء، حتى في حفلة سمر!».

«كان موقف تولستوي التالي،» أجاب نيجل، «سوف أقدم مبلغًا محددًا ولن أتجاوزه.» لهذا ألقى باللائمة على زوجته عندما تجاوز المبلغ الحد الذي وضعه لنفسه. حسنًا، لندع ذلك. لكن الفكرة هي: هل تعطي كرونًا لشخص من طيبة قلبك، أو لأن عليك أن تفعل ما

يمليه عليك ضميرك ألا وهو القيام بعمل صالح؟ هذا يبدو لي تفكيرًا مبسطًا للغاية. هناك واهبون مكرهون. لماذا. لأن ذلك يرضي غرورهم، يمنحهم متعة نفسية حقة. إنهم لا يفعلون ذلك على نحو واضح أو مدروس، بل يفعلون بهدوء وبعيدًا عن الأنظار. قد يكرهون أن يهبوا علانية لأن هذا قد يسلبهم قدرًا كبيرًا من المتعة. لا، يجب أن يتم الأمر بسرية، بحركة سريعة من يد مرتجفة، مصحوبة بعاطفة وشعور برضى داخلي هم أنفسهم لا يفهمونه. فجأة يشعرون بدافع لإنفاق شيء. إنه يظهر بإحساس غريب في الصدر، توق غريب يستحوذ عليهم فجأة ويجعل عيونهم تدمع. ليس عطاؤهم نابعًا عن اللطف بل عن الإلزام-من أجل سلامهم العقلي. هذا ما يدفع بعض الناس. أنت تتحدث عن الكرماء بهذه الدرجة من الإعجاب. كما قلت، لا بد من أن أكون مختلفًا عنكم -لكني لا أعجب بهم ولو قليلًا. ليلعنني الله إذا ما كان هناك إنسان واحد يفضل العطاء على الأخذ! هل لي أن أسأل إذا ما كان هناك إنسان على الأرض لن يفضل تخفيف المعاناة على التسبب بها؟ لنتخذ منك مثالًا أيها الطبيب: سمعتك تقول إنك نقدت خمسة كرونات للرجل الذي جذف بك. لمَ أعطيته خمسة كرونات؟ بالتأكيد لم تفعل ذلك مرضاةً لله: أنا واثق من أن الفكرة لم تخطر في بالك أبدًا. ربما لم يكن الرجل فقيرًا أيضًا، لكن مع ذلك فعلت. في تلك اللحظة انصعت ببساطة إلى دافع لإنفاق شيء، الذي تمثل في ذلك الوقت بمنحك المتعة لشخص آخر. في رأيي، من المقزز إثارة مثل هذه الجلبة حول الإحسان. أنت تسير في الشارع ذات يوم -الطقس، نوعية الناس الذين تلتقيهم، كل شيء يسهم في وضعك في حالة عقلية معينة. فجأة ترى وجهًا، وجه طفل، أو شحاذ. لنقل وجه الشحاذ- إنه يهزك. يستحوذ شعور غريب عليك وتقف جامدًا في مكانك، مس

ذلك الوجه في داخلك بقعة نادرة وحساسة. أنت تستدرج الشحاذ إلى مدخل وتدس في يده ورقة نقدية بقيمة عشر كرونات. «إذا تفوهت بكلمة واحدة عن هذا لأي شخص سأقتلك،» تهمس وتوشك أن تصر بأسنانك وتبكي من عاطفة مكبوتة. في النهاية، لا يمكنك أن تطيق أن يراك أحد وأنت تقدم على فعل أمر من هذا النوع! وقد تتكرر هذه الحالة يومًا بعد آخر إلى أن تجد نفسك في مأزق وليس في جيبك فلس واحد. ما قلته، لا ينطبق عليَّ، لكني أعرف رجلًا -في واقع الأمر، اثنان- هما متبرعان مكرهان. ما من أحد يمنحٍ لأنه مضطر إلى ذلك وهذا باستثناء البخلاء والمقترين، إنهم فعلًا يقدمون التضحيات عندما يتخلون عن شيء ما، لا شك في ذلك. يستحق هؤلاء الناس الكثير من الثناء على الأورا الذي يهبوه على مضض، عندما رجل مثلك، مثله، أو مثلي، ممن ينصاعون للعاطفة عندما يهبون كرونًا كما أظن. قل لتولستوي على لساني بأني لا أهتم قيد أنملة لاستعراض سخائه المثير للاشمئزاز، ليس قبل أن يهب كل ما يملك، وليس حينئذٍ أيضًا. لكن سامحني إذا ما جرحت مشاعر أحد. دخن سيجارًا آخر، يا سيد جروجارد. نخبك أيها الطبيب!».

توقف قصير.

«كم عدد الناس الذين سوف تتمكن من هدايتهم أثناء مسار حياتك حسب رأيك؟» سأل الطبيب.

«برافو!» صرخ مدير المدرسة. «هولتان يهنئك!».

قال نيجل مجيبًا على سؤال ستينرسن: «لا أحد. إذا كان عليَّ أن أعيش على هداية الناس، سأموت قريبًا. لكن ما لا يمكنني فهمه هو ألاّ يفكّر أحدٌ مثل تفكيري كما يبدو. علاوة على ذلك لا بد أن أحلّق خارج السرب. لكن لا يمكن أن أكون على خطأ كلي، حسبي أني لا

يمكنني الإيمان بذلك».

«لكن لم يسبق لي أن سمعتك تقول أمرًا ايجابيًا واحدًا عن أي شخص أو أي شيء،» قال الطبيب. «سيكون مثيرًا للاهتمام معرفة إذا ما كان يوجد شخص يلقى استحسانك».

«دعني أشرح، يمكنني أن أفعل ببضع كلمات. ما عنَيتَه حقيقة كان: هو لا يحترم أحدًا، إنه منتحل مختال، ما من أحد يمكن أن ينال رضاه. هذا ليس صحيحًا! ذكائي ليس أكثر من ذكاء عادي، لكن يمكنني أن أسمي مئات الشخصيات من أنصاف المواهب ممن يُعتقد أنهم عظماء يقودون العالم. يتردد صدى أسمائهم في مسمعي. لكن قد أفضل تسمية اثنين، أربعة، أو ستة قادة روحيين عظماء حقًا، أنصاف آلهة، أفكارهم وقيمهم بالية، ممن حققوا شهرة دائمة. ثم سأشير إلى بعض الذين لم يبلغوا الشهرة يومًا، عباقرة نادرون واستثنائيون عاشوا حياة قصيرة وماتوا مجهولين. لدي قائمة طويلة منهم، لكني واثق من أني لا أستطيع أن أدرج تولستوي فيها».

«رجلي العزيز،» قال الطبيب بازدراء وهز كتفه تعبيرًا عن اللا مبالاة ونفاد الصبر، وكانت رغبته في وضع حد للمحادثة جلية، «هل تظن أن رجلًا مثل تولستوي يمكنه أن يحظى باستحسان عالمي لو لم يكن إنسانًا على نبالة روحية عظيمة؟ الاستماع إليك ممتع لكنك تنطق بكلام فارغ. في واقع الأمر تشدقك مثير للغثيان!».

«برافو دكتور!» صرخ هولتان ثانية. «لا تدع مضيفنا يغالي كثيرًا...».

«السيد هولتان يذكرني بأني لست مضيفًا جيدًا جدًا،» قال نيجل ضاحكًا. «لكني أعد بأن أفعل أفضل ما في وسعي. يا سيد أوين كأسك فارغ. لمَ لا تشرب؟».

كان الشاب جالسًا باعتدال في كرسيه وصامتًا، يستمع إلى المحادثة، من الواضح أنه مأخوذ بكل كلمة. كانت عيناه يقظتين ومفتوحتين على اتساعهما، كان يصغي باهتمام بالغ مستغرقًا كليًا في تبادل الآراء. كان يتردد بأنه-مثل طلاب آخرين-يعمل على تأليف رواية خلال عطلة الصيف.

جاءت سارة معلنة عن جهوز العشاء. تقدم هانسن، الذي كان مسترخيًا في كرسيه، فجأة نحوها وتفحصها بحدة. عندما غادرت الغرفة قفز ولحق بها وهي تهبط الدرج والتهمها بعينيه هاتفًا:

«سارة، أنت بهجة حقة!». ثم عاد وجلس في كرسيه، كئيبًا كالسابق. كان في هذه الأثناء ثملًا بالفعل.

عندما التفت الطبيب ستينرسن نحوه أخيرًا وطعن في اشتراكيته، لم يكن قادرًا على الدفاع عن أفكاره. يا له من اشتراكي ممتاز! لقد كان مبتزًا، وسيطًا قذرًا بين القوة والعجز-وكيلًا يقتات على بؤس الآخرين ويأخذ أموالهم مقابل حقوق ممتازة كانت لهم من البداية! وبلغت به الوقاحة أن يسمي نفسه اشتراكيًا!

«لكن في المبدأ أنا أؤمن بالاشتراكية،» اعترض هانسن بعنف.

«المبدأ!» هتف الطبيب ساخرًا. وهم يهبطون إلى غرفة الطعام، استمر بإبداء الملاحظات الخبيثة الواحدة تلو الأخرى، مستنكرًا قدرات هانسن كمحام، وشن هجومًا على الاشتراكية. كان الطبيب ليبراليًا متحمسًا، لم يتفق مع العقائد الاشتراكية. ماهي الفلسفة الأساسية للاشتراكية بأية حال؟ إلى الجحيم بكل السفسطة! كان الطبيب يتحدث عندئذ في موضوعه الأثير: الاشتراكية هي النقمة من الطبقات الدنيا. فقط انظر إليها كحركة سياسية، جماهير من بكم وصُمّ يهرولون خلف قائدهم، بألسنة مُدلاّة. هل كان في وسعهم أن

يروا أبعد من أرنبة أنفهم؟ لا يفكر الناس قط. وإلا لكانوا انضموا إلى الحزب الليبرالي وحققوا ما هو مفيد وعملي، شيء واقعي بدلًا من الثرثرة هنا وهناك في أحلام يقظة مبهمة طوال عمرهم! كان الأمر في عمومه مهزلة!

«اختر أيًا من القادة الاشتراكيين! أي نوع من الناس هم؟ نماذج رثة هزيلة يجلسون على مقاعد خشبية في عليّاتهم، يكتبون مقالات عن سبل إصلاح العالم! ما من أحد بوسعه التشكيك في نزاهتهم- من يستطيع انتقاد كارل ماركس في هذا؟ لكن ها هو ذا-هذا الرفيق ماركس-يحاول تدوين الفقر القائم بالكامل! نظريًا بلا شك. لقد حلل بذكاء كل مستوى من مستويات الفقر، كل درجة من درجات البؤس، دماغه حافل بكل عذابات الجنس البشري. يغمس قلمه في الحبر ويكتب بكل حماسة الصفحة المتقدة تلو الأخرى، يملأ صفحات عريضة بالأرقام، يأخذ من الأغنياء ويعطي للفقراء، يعيد توزيع ثروات العالم، يطيح باقتصاد العالم، يقذف بالملايين للفقراء، الذين يرفعون أبصارهم ذاهلين. لا شيء سوى العلم والنظرية! وعندئذ يتضح أنه في سذاجته بدأ بفرضية خاطئة، تحديدًا، أن جميع البشر متساوون. يا لها من كذبة كبرى! بدلًا من القيام بشيء عملي وداعم للحزب الليبرالي وبرنامجه الإصلاحي لإرساء قاعدة ديمقراطية العمل. انفعل الطبيب وتحدث بنبرة محمومة وجاء بالكثير من الآراء الشخصية والصور البلاغية. ازداد صخبه أكثر فأكثر عند الطاولة، كان هناك الكثير من الشمبانيا، وصار الجو مشحونًا بالانفعال. شارك القزم الذي كان جالسًا بالقرب من نيجل صامتًا حتى ذلك الحين، ببعض التعليقات المقحمة الصاخبة. جلس هولتان مدير المدرسة متوترًا كمدك بندقية في كرسيه يدخن لأنه أوقع البيض على نفسه، وهو ما جعله غير قادر

على الحركة. لكن عندما جاءت سارة لمساعدته في تنظيف الفوضى استغل الفرصة لاختطافها والإمساك بها بين ذراعيه ما تسبب بلغط حول الطاولة.

في حمأة الهرج والمرج، طلب نيجل أن تحمل الشمبانيا إلى غرفته وبعد ذلك مباشرة نهض الجميع. مشى هولتان وهانسن ذراعًا بذراع يغنيان مبتهجين بأعلى صوت، واستأنف الدكتور ستينرسن نقده اللاذع لمبادئ الاشتراكية. لكن في الطريق إلى الطابق الأعلى ضرب عدستي نظارته الأنفية مُجدّدًا للمرة العاشرة تقريبًا وهذه المرة كسرتا. وضع الإطار في جيبه، بالكاد استطاع أن يرى بقية الأمسية. وذلك جعله أكثر نزقًا، ثمّ جلس بالقرب من نيجل. وقال ساخرًا: «هل أنا على صواب في استنتاج أنك رجل دين؟».

لقد قصد ذلك بجدية وكان ينتظر الجواب.

أضاف بعد صمت قصير أنه منذ لقائهما الأول يوم جنازة كارلسن كان لديه انطباع أن نيجل كان رجل دين.

«لكني كنت أدافع عن الروح الدينية في الإنسان» أجاب نيجل، «ليست المسيحية على وجه التحديد في واقع الأمر، ليست المسيحية على الإطلاق. كنت أتحدث عن الحياة الروحية عمومًا. قلتَ إنّ على جميع اللاهوتيين أن يعدموا شنقًا وسألتك عن السبب وقلت إنّ أمرهم انتهى. لم أتمكن من الاتفاق معك، الدين حقيقة. يصرخ المسلم: «اللّٰه أكبر» ويموت في سبيل معتقداته، حتى في أيامنا هذه يركع النرويجي في المذبح ويتناول دم المسيح. ثمة أماكن يؤمن أهلها بأنهم يستطيعون نيل الخلاص من خلال الجلاجل! لكن ما يهم حقيقة ليس ما تؤمن به بل مدى إيمانك واقتناعك بما تؤمن...».

«هذا النوع من الحديث يهينني!» هتف الطبيب مروعًا. «أسأل

مرة أخرى نفسي فيما إذا لم تكن محافظًا مقنَّعًا أو شيئًا آخر. أنت تقدم الرأي العارف بعد الآخر عن اللاهوتيين وكتب الدين. بوسع أي عدد من المفكرين دحض تلك الأسطورة، ومع ذلك أنت لا تزال متعلقًا بأن لحكاية دم المسيح معنى في عصرنا. لا يمكنني أن أتبع سلسلة أفكارك».

فكّر نيجل لبرهة وقال: «إن الأمر بغاية البساطة: ما الذي نجنيه -اعذرني إذا كنت أكرر ما قلته- ما الذي نجنيه من البراغماتية التي تسلب الشعرية من حياتنا، الأحلام، التصوف-هل هذه كلها أباطيل؟ ما هي الحقيقة؟ هل يمكنك أن تخبرني بذلك؟ لا يمكننا أن نناضل إلاّ باستعمال رموز، لنغيّرها فيما نبدل وجهات نظرنا. بالمناسبة، لا تدعنا نهمل مشاريبنا».

نهض الطبيب وذرع الغرفة بخطوات كبيرة. بدت طيات السجادة قرب الباب تغيظه وجثا على ركبتيه لتسويتها.

«هانسن، يمكنك أيضًا أن تعيرني نظارتك طالما أنك جالس هناك نائمًا بأية حال،» قال بغضب مبطن.

لكن هانسن لن يتخلى عن نظارته، والتفت الطبيب ستينرسن مبتعدًا عنه باشمئزاز شديد. جلس بالقرب من نيجل ثانية.

«في رأيك إنه كثير من اللغو وكلمات فارغة من المعنى، ربما أنت على حق، في النهاية لنأخذ هانسن هنا، آسف لجعلك أضحوكة، هانسن محام واشتراكي. أنت لا تبتهج بأي شكل عندما يختلف مواطنان ويجرّ كلّ منهما الآخر إلى المحكمة؟ بالتأكيد لا! تحاول أن تتوصل إلى تسوية ودية، وبالتأكيد لن تكسب بنسًا من ذلك! ستدخل يوم الأحد القادم اتحاد العمال وتلقي محاضرة عن الدولة الاشتراكية على عاملين وفتى الجزار. نعم، وفقًا لك، الجميع مكافأ وفقًا لقدرته

على الإنتاج، كل شيء منظم على نحو جميل، وكل واحد سيحصل على حصته العادلة. لكن حينها ينهض فتى الجزار، وساعدني، إذا لم يكن أكثر ذكاءً منكم جميعًا. يقول: «يمكنني أن أستهلك عين ما يستهلكه أكثر التجار غنى، لكن عندما يتعلق الأمر بالإنتاج، أنا مجرد فتى جزار فقير، لأن هذه هي موهبتي الوحيدة.» أتصور أن ذلك لا يؤثّر فيك، أنت أيها الأحمق؟... اشخر، هذا كل ما تجيد فعله... فقط واصل الشخير..» كان الطبيب في ذلك الوقت ثملًا تمامًا، وقد صار لسانه ثقيلاً وعيناه دامعتين. وبعد فترة من التفكير التفت إلى نيجل وواصل بكآبة. «أنا لم أعن أن اللاهوتيين فقط هم من عليهم أن يقتلوا أنفسهم. اللعنة، هذا ما علينا جميعًا فعله، اخرج من العالم وإلى الجحيم بكل شيء!».

قرع نيجل كأسه بكأس القزم. صرخ الطبيب غاضبًا لأن ملاحظاته لم تلق صدى: «ألم تسمع ما قلته؟ علينا جميعًا أن نتخلص من أنفسنا حتى أنت!» كانت عينا الطبيب محتقنتين بالدماء وهو يفوه بهذه الكلمات. «نعم» قال نيجل، «فكرت كثيرًا في ذلك لكن لا أملك الجرأة.»

توقف قصير.

«أنا بعيد عن القول إنني قد أملك الشجاعة لكن إذا كان عليَّ يومًا ما أن أفعل، سيكون مسدسي جاهزًا أحمله معي دومًا، فقط للضرورة».

سحب قارورة من جيب صداره ورفعها عاليًا. كان مكتوبًا عليها «سُم» ومملوءة حتى منتصفها فقط.

«حمض البروسيك النقي-الماء الأنقى!» قال. «لكن لن أمتلك الشجاعة يومًا، لم أستطع التخلص منه. هل يكفي هذا أيها الطبيب؟ لقد جربت نصفه على حيوان ونجح تمامًا. بعض تشنجات، وبعض

الاختلاجات في الخطم، لهاث مرتين أو ثلاثة وهذا كل شيء».

التقط الطبيب ستينرسن القارورة، هزها وقال: «إنها كافية بل أكثر. أنا حقيقة ينبغي أن آخذها منك، لكن طالما لا تملك الشجاعة...».

«لا، لا أملك الشجاعة..».

توقف قصير.

أعاد نيجل القارورة إلى جيب صداره. كان الطبيب على شفا الانهيار، ويرتشف من كأسه بعينين كابيتين وعديمتي الحياة ويبصق على الأرض. فجأة صرخ بمدير المدرسة: «إلى أين وصلت في مرافعتك يا هولتان؟ أمازال في مقدورك التحدث عن الأفكار المترابطة لأني لم أعد أستطيع. ليلة سعيدة!»

استيقظ مدير المدرسة، تمطط وتوجه إلى النافذة، ووقف عندها ينظر إلى الخارج. عندما انتهت المحادثة استغل الفرصة ليتسلل. زحف بمحاذاة الجدار تمامًا، فتح الباب، واختفى قبل أن يلحظ أي شخص. هذه كانت طريقة هولتان في المغادرة.

نهض القزم أيضًا وتحرك بنيّة المغادرة، لكن عندما كان يُطلب منه البقاء وقتا آخر، يجلس مجددًا. كان هانسن المحامي يبدو نائمًا، الثلاثة الذين كانوا لا يزالون رصناء هم أوين، القزم، ونيجل-ثم بدأ بالتحدث عن الأدب. أصغى الطبيب بعينين نصف مغلقتين دون أن يتفوه بكلمة، وبعد لحظات غطّ في النوم هو الآخر.

قرأ أوين الكثير وكان معجبًا بموباسان.

هم بالتأكيد يجب أن يوافقوه الرأي بأنّه تغلغل في أرواح النساء ولم يكن له ندٌّ كشاعر للحب. أية عبقرية في أداء المشهد وأي تبصر في قلب الإنسان! عندئذٍ احتدم نيجل، وفاقدًا كل سيطرة خبط بقبضتيه على الطاولة، صرخ، وهاجم الكاتب تلو الآخر ولم يسلم من حنقه

إلا القلة القليلة. بدا غضبه نابعًا من الصميم، كان يتنفس بصعوبة وظهر الزبد حول فمه.

«شعراء! أوه نعم! يقال إنهم تغلغلوا في أعماق القلب البشري. من كان هؤلاء المتغطرسون ممّن لديهم الدهاء الكافي كي يحرزوا هذا القدر من التأثير في الحياة المعاصرة؟ لقد كانوا طفحًا جلديًا وجربًا على المجتمع، بثورًا متقيحة يجب مراقبتها باستمرار وتعهدها بالعناية لئلا تنفجر. نعم، كان لا بد من إثارة ضجة كبيرة حول الشعراء-لا سيما الأكثر حماقة، الأغبياء الأكثر بلادة. إذا لم تفعل، سيتدفقون ويقطِّبون في كل اتجاه! يا الله يا لها من مهزلة! وسأكون راغبًا في المراهنة على أنه لو كان هناك شاعر أو مغنٍّ ملهم حقًا من الأعماق، قد يكون مصنفًا بدرجة أقل من ذلك الموباسان الهرم الفظ. رجل كتب قدرًا كبيرًا عن الحب وأصدر كتبًا تعد بالدزينات ينال التقدير! لكن نجمًا صغيرًا براقًا، ألفريد دي موسيه، الذي من خلال فرصة عمله لا يخلق شيئًا إلاّ كان فنًا أصيلًا، شاعر ليس الحب بالنسبة إليه مجرد تزاوج مبتذل بل صوتٌ حسّاس صب من الربيع، شاعر ملهم جدًا حتى أن كل كلمة من كلماته تبعث بشرر. ربما ليس لدى هذا الشاعر نصف المتبعين الكثر الذين لموباسان نصف الموهوب بفظاظته التي لا تصدق ونظمه-منشار التخريم-الخائر».

لم يستطع نيجل التوقف. استغل الفرصة أيضًا لمهاجمة فيكتور هوجو ولتقويض أعظم كتاب العالم.

هل كان مسموحًا له أن يذكر فقط مثالًا واحدًا عما يسمى اللغو الفارغ لشاعر عظيم؟

«اسمع: «ليت سكينك كانت ماضية مثل لائك الأخيرة!» ماذا تظن بذلك؟ ألا يبدو عظيمًا تمامًا؟ ما رأيك يا سيد جروجارد؟»

رمق نيجل القزم بنظرة ثاقبة وحدق إليه بتركيز وهو يكرر هذا البيت الأجوف. لم يجب القزم. عيناه الزرقاوان مفتوحتان باتساع تعبيرًا عن هلع وشيك، وفي تشوشه تجرع جرعة كبيرة من كأسه.

«لقد ذكرتم إبسن،» واصل نيجل على نفس الحال من الهياج، مع أن أحدًا لم يذكر الاسم. في رأي نيجل كان هناك شاعر واحد في النرويج، ولم يكن إبسن! إبسن كان معروفًا كفيلسوف لكن ألم تكن تلك هي الفكرة للتمييز بين التفكير الشائع والفلسفة؟ كان الناس دومًا يتحدثون عن شهرة إبسن، كانت شجاعته دومًا تجذبكم. لكن ألم يكن هناك فرق بين الشجاعة النظرية والشجاعة الممتحنة؟ بين الرغبة الشهوانية والإيثارية لإصلاح الثوران الداخلي وتسويته؟ واحد هو مصدر الإلهام، والآخر فقط يتلاعب بمشاعرنا كما في المسرح. الكاتب النرويجي الذي لم يمنح لنفسه خيلاء واستخدم القلم ببراعة كما لو أنه رمح ليس كاتبًا نرويجيًا صادقًا. النرويجي الحقيقي لا بد من أن تكون عنده قضايا وبواعث ليتفوق على نفسه إزاءها إذا ما أراد أن يُعتقد بامتلاكه الجرأة والشجاعة. كان الأمر مسليًا للغاية إذا ما اهتم المرء بالنظر إليه بتجرد. أحدثت القضايا والبواعث جعجعة كبيرة وتلاعبت كواحدة من معارك نابليون، لكن عنصر الخطر لم يكن أعظم مما في مبارزة فرنسية! ها ها! لا، رجل أراد أن ينتفض لا يمكن أن يكون مؤلفًا تافهًا مع ميل أدبي للألمان، كان عليه أن يكون كائنًا حيًا، عالقًا في طاحونة الحياة. روح إبسن الثورية لن تستقدم بالتأكيد رجلًا على جليد رقيق! كان ذلك العمل كله حول القذيفة البحرية[1] تفاهة بيروقراطية مقارنة بفعل قوي. حسنًا، بما أن كل شيء قيل ونفد، ربما لم يكن الواحد أكثر سوءًا من الآخر: نبدو أننا

---

(1) «القذيفة البحرية تحت السفينة...» من قصيدة لإبسن.

نوقر العمل الذي يليق أكثر بالنساء جالسين نؤلف كتبًا للناس. كان كل شيء فارغًا تمامًا وأجوف، لكن فيه على الأقل ما لاستطرادات تولستوي الوقحة الفلسفية من قيمة. إلى الجحيم بها كلها!

«كلها؟»

«تقريبًا. لدينا شاعر واحد-بيورنسون في أفضل حالاته-لكنه الوحيد...».

لكن ألم تكن أكثر اعتراضاته على تولستوي لتنطبق أيضًا على بيورنسون؟ ألم يكن هو أيضًا واعظًا أخلاقيًا؟ ألم يكن من أنصاف المواهب أجوف محترفًا، وكل ما بقي؟

«لا!» صرخ نيجل بصوت مرتفع. دافع عن بيورنسون بكلمات وإيماءات عنيفة. لا يمكن إجراء مقارنة بين بيورنسون[1] وتولستوي: هذا سيكون منافيًا للتفكير المنطقي العقلاني لمهندس زراعي، إلى جانب أن المرء يرد على مقارنة مؤذية مثل تلك بكل ما لديه من غرائز. في المقام الأول، بيورنسون على الأقل في مصاف تولستوي. لم يكن نيجل يكن احترامًا للكتاب التافهين العاديين، الذين يدعون عباقرة-يعلم الله بأنه لا يفعل. رفع تولستوي إلى مصافهم، في حين تجاوزهم بيورنسون. هذا لا يعني أن تولستوي لم يكتب كتبًا أفضل من كثير من كتب بيورنسون، لكن ما يثبت هذا؟ يمكن أن يؤلف الكتب الجيدة أيضًا قباطنة بحر دانماركيون، رسامون نرويجيون، نساء انجليزيات. ثانيًا، كان بيورنسون إنسانًا، شخصًا عظيمًا، ليس مجرد صورة عامة.

«يتنقل حول العالم على مرأى الجميع ومسمعهم، ويحتاج إلى متسع من الحرية. هو لا يجلس مثل أبي الهول أو حكيم غامض، مثل تولستوي في سُهبه أو إبسن في مقهاه. روح بيورنسون تشبه غابة في

(1) بيورنستيرن بيورنسون: (1832-1910) كاتب نرويجي حصل على جائزة نوبل عام 1903.

عاصفة. إنه مقاتل يقاتل في كل مكان، ويحطم سمعته مع زبائن المقهى الكبير. إنه رجل بأبعاد عظيمة، ذو حضور قوي، قائد مولود. يمكنه أن يقف على منصة وبإيماءة من يده يوقف أولى إشارات الهتاف من الجمهور. عقله يعجّ بالأفكار الجديدة ويغلي بها. سواء يكسب على نحو رائع أو يفشل على نحو سيّئ، روحه و شخصيته جزء لا يتجزأ من.. بيورنسون هو شاعرنا الوحيد بروح، بشرارة قدسية. يبدأ إلهامه بشكل غير ملحوظ مثل حفيف نسيم في حقل ذرة في يوم صيفي، وعندما ينتهي، لا تسمع شيئًا، لا شيء سوى صوته. تجمع روحه الزخم إلى أن تندفع عبقريته الحقيقية قدمًا. شعر إبسن تافه بالمقارنة مع شعر بيورنسون. يعتمد شعر إبسن على إيجاد الإيقاع المثالي، معظم مسرحياته هي لب خشبي في هيئة مسرحية. أي شيطان حل بالناس؟ أوه حسنًا، لنهمل الموضوع. كأسكم، جميعًا».

كانت الساعة الثانية، والقزم يتثاءب. كان متعبًا بعد يوم عمل شاق، منهكًا وسئمًا من أحاديث نيجل اللانهائية. نهض ثانية للمغادرة. لكن بعد أن قال وداعًا وذهب باتجاه الباب حدث شيء ما منعه ثانية من المغادرة، حادث ثانوي كانت له نتائج كبيرة. استيقظ الطبيب، قام بحركة مفاجئة من ذراعه، ولأنه يعاني من حسر البصر ضرب عدة كؤوس، تبلل نيجل الذي كان جالسًا بالقرب منه بالشمبانيا، قفز ضاحكًا ينفض ملابسه المبللة وصرخ مهللًا بابتهاج: «هوراه!».

اقترب القزم في الحال للمساعدة مقدمًا خدماته، وهرع إلى نيجل بالمناشف والمناديل ليجفف سترته المبللة، لو يخلعها فقط لبرهة، ستكون جافة خلال وقت قصير. لكن نيجل لن يخلعها. أيقظت الضجة هانسن الذي بدأ أيضًا بالهتاف مع أنه لم يكن يعرف ما الذي يجري. سأل القزم ثانية إذا كان بوسعه أن يأخذ الصدار لبرهة لكن لم يكن

من نيجل سوى أن هز رأسه. فجأة نظر مباشرة إلى القزم، بدا أن شيئًا يجري في عقله لأنه نهض في الحال وخلع صداره ورماه إلى القزم.

«هاك!» صرخ. «جففها وبعدها يمكنك الاحتفاظ بها، أوه، نعم أنا أصر على أن تأخذ الصدار، رجاء لا تثر ضجة، أنت على الرحب يا صديقي.» ولما استمر القزم بالرفض حشر نيجل الصدار تحت ذراعه، فتح الباب ودفعه بلطف.

غادر القزم.

حدث كل شيء بسرعة كبيرة حتى أن الوحيد الذي شهد على الحادثة كان أوين إذ كان جالسًا أقرب ما يكون إلى الباب.

هانسن، الذي أصبح طائشًا تمامًا وفقد كل رادع، اقترح أن يكسروا ما تبقى من الكؤوس. لم يعترض نيجل وبدأ الرجال الأربعة بتسلية أنفسهم برمي الكأس تلو الآخر على الجدار. ثم شربوا من القناني مباشرة، يصخبون ويرقصون مثل بحارة ثملين.

دقت الساعة الرابعة ولم تنته نوبة الشرب بعد. في هذه الأثناء كان الطبيب ثملًا للغاية. فيما هو يغادر، التفت أوين وقال لنيجل: «ما قلته عن تولستوي أيضًا ينطبق على بيورنسون. أنت لست متسقًا مع حججك..».

«هاها!» ضحك الطبيب بهمجية. «يريد اتساقًا في هذا الوقت من الليل... أ مازلتَ قادرًا على قول «موسوعيون» أيها الشاب-أو «ربط ذهني»؟ تعال، دعني أوصلك إلى البيت. هاها، في هذا الوقت من الليل!».

كان المطر قد توقف. ولم تشرق الشمس بعد، لكن لم تكن هناك رياح، وبدا أنه قد يكون يومًا بهيجًا.

الفصل الرابع عشر

في وقت باكر من صباح اليوم التالي ظهر القزم في الفندق ثانية. دخل غرفة نيجل على رؤوس أصابعه ووضع على الطاولة ساعته، وبعض الأوراق، وأرومة قلم، وقارورة السم الصغيرة. كان على وشك المغادرة عندما استيقظ نيجل، وتوجب على القزم أن يظلّ ليشرح سبب وجوده هناك.

«وجدت تلك الأشياء في جيب صدرتك،» قال.

«في جيب صدرتي؟ اللعنة، نعم، لقد نسيت أمرهم! كم الساعة؟»

«إنها الثامنة. لكن ساعتك توقفت ولم أرغب في تعبئتها.»

«آمل أنك لم تشرب حمض البروسيك؟»

ابتسم القزم وهز رأسه. «لا،» قال.

«ولم تتذوقه أيضًا؟ يجب أن تكون الزجاجة ممتلئة حتى منتصفها. أرني!»

أراه القزم القارورة، وكانت بالفعل ممتلئة حتى منتصفها.

«ممتاز، وتقول إن الساعة هي الثامنة؟ إذن حان وقت النهوض. بالمناسبة، يا جروجارد، هل يمكنك أن تستعير لي كمانًا من أحدهم؟ أرغب في محاولة تعلم العزف عليه-لا، ليس هذا ما أعنيه. ما أريد أن أفعله حقيقة هو شراء آلة كمان لأعطيها لصديق-لا أريدها لنفسي. لذا بالفعل عليك أن تحصل لي على كمان بطريقة ما».

قال القزم إنه سيبذل قصارى جهده.

«شكرًا جزيلًا. مر بي عندما تحب. تعرف أين تجدني. إلى اللقاء».

بعد ساعة كان نيجل في غابة بيت الكاهن. كانت الأرض لا تزال رطبة من مطر الليلة السابقة، ولم تسبغ الشمس الكثير من الدفء. جلس على حجر، عيناه معلقتان على الطريق. لمح آثار أقدام مألوفة في الحصى الرطب. كان واثقًا من أنها كانت آثار أقدام داجني ومن أنها رحلت إلى البلدة. انتظر طويلًا، لكن لم يظهر لها أثر، فنهض من على الحجر وقرر الذهاب للقائها. كان على حق في النهاية! قبل أن يخرج من الغابة التقى بها. كانت تحمل كتاب «جيرترود كولبيورنسن» لمؤلفه سكرام[1].

تحدثا لفترة عن الكتاب. ثم قالت بعفوية:

«مات كلبنا. لا يبدو الأمر ممكنًا قط!»

«مات حقًا؟» كان كل ما قاله نيجل.

«منذ عدة أيام. وجدناه متصلبًا كحجر بارد. لا يمكنني تخيل حدوث ذلك».

«لطالما شعرت بأن الكلب كان مخلوقًا مقرفًا. أنا آسف، لكنه كان واحدًا من تلك الكلاب الكبيرة ذات الأنوف المسطحة التي تبدو وجوهها بشرية على نحو مرعب. عندما ينظر إليك، يتدلى لغداه كما لو أنه يحمل مواجع العالم. أنا سعيد لموته».

«كيف يمكنك أنت تقول مثل هذا الكلام؟».

لكنه قاطعها، بدا عصبيًا ومتلهفًا ليغير الموضوع بأسرع ما يمكن. انطلق في حديث طويل عن رجل عرفه ذات يوم، كان واحدًا من أكثر

---

(1) إريك سكرام: (1847-1923) كاتب دانماركي.

الشخصيات مرحًا في العالم. «الرجل تلعثم قليلًا ولم يحاول إخفاء ذلك، بل على العكس، بدا أنه يبالغ ليسترعي الانتباه لعلته. كان لديه أغرب المفاهيم عن النساء. روى قصة عن المكسيك بأكثر الطرق إضحاكًا. يبدو أنّ البرد شديدًا في أحد فصول الشتاء حتى أن مقاييس الحرارة لم تتوقف عن التصدّع، ولزم الجميع البيوت. لكن يومًا ما كان عليه الذهاب إلى البلدة المجاورة. كان يعبر منطقة مهجورة تقريبًا، تتناثر فيها الأكواخ هنا وهناك، تجلد الريح اللاذعة وجهه. وفيما هو يكافح في البرد الجليدي، خرجت امرأة نصف عارية مندفعة من أحد الأكواخ وركضت نحوه تصرخ: «أنفك متجمد! اعتن بنفسك، ستصاب بلسعة الصقيع!» رأت المرأة الغريب يمشي وأنفه أحمر تمامًا وهرعت تاركة أعمالها المنزلية لتحذره! أليس هذا شيئًا؟ وهناك وقفت في الريح القارسة بذراعين عاريتين وابيضّ خدها الأيمن متحولًا إلى لطخة كبيرة من شدة البرد! هل يمكنك أن تصدقي ذلك! وأيضًا على الرغم من أنه شهد تلك التجربة ومناسبات كثيرة أخرى من تضحيات أنثوية، كان هذا اللجلاج يتحول إلى كارهٍ للنساء. «المرأة غريبة، مخلوق جشع،» كان يقول، دون أن يشرح السببَ الذي جعله يعتقد بأنها غريبة أو جشعة. «الأمور التي تتخيلها المرأة لا تعقل،» أضاف. وهكذا أخبرني قصة أخرى: «كان لدي صديق وقع في حب سيدة شابة اسمها كلارا. لقد بذل قصارى جهده لينال محبتها، لكن بغير طائل. لم تكن كلارا تكن له أي مشاعر، مع أنه كان وسيمًا وله سمعة طيبة. كانت لكلارا أخت، لها حدبة وقبيحة جدًا-كانت بكل تأكيد بشعة. ذات يوم طلب صديقي يدها، الله يعلم فقط ما دعاه لفعل ذلك. ربما كان لديه دافع خفي، أو ربما أحبها على الرغم من قبحها. وماذا تظنين أن كلارا قد فعلت؟ أنشبت الأنثى فيها مخالبها. صرخت، وتصرفت على

نحو مروع. «أنا من أرادني طوال الوقت،» صرخت. «لكن لن يجعلني أي شيء في العالم أقبل عرضه.» وهل تظنين أنه كان مسموحًا له أن يحظى بالأخت التي وقع في حبها؟ آه، هنا تكمن المشكلة. لن تدع كلارا أختها تحصل عليه أيضًا. لقد أراد كلارا بالتأكيد، لكن لأنها رفضته لم يتمكن من الحصول على أختها ذات الحدبة أيضًا على الرغم من أنّه الوحيد الّذي تقدّم لخطبتها. وهكذا لم يحظ صديقي بأي من الفتاتين.» هذه كانت واحدة من القصص الكثيرة التي حدثني بها المتلعثم. حديثه المعتل جعلها أكثر إضحاكًا. لقد كان مخلوقًا مثيرًا للفضول. هل أبعث فيك الملل؟»

«لا،» قالت داجني.

«كان بالتأكيد شخصية غريبة. كان بخيلًا ولصًا كبيرًا جدًا حتى أنه قد يزيل السيور من حجرة قطار ويأخذها إلى بيته، حيث قد يجد لها استعمالًا. لم يقف في طريقه شيء. في واقع الأمر، أظن أنه ألقي القبض عليه فيما مضى بالجرم المشهود. ومع ذلك عندما يكون في مزاج معين، لم يستطع أن يغفل التفكير في المال. مرة بدأ يفكر في تنظيم رحلة في قطار. لم تكن لديه صحبة، لكنه استأجر أربعًا وعشرين عربة، وأرسلها الواحدة تلو الأخرى. ثلاثة وعشرون منها كانت فارغة، وجلس وحيدًا في الرابعة والعشرين الأخيرة، ينظر إلى أسفل نحو السابلة مبتهجًا بالإحساس الذي كان يخلقه».

عكف نيجل من موضوع إلى آخر، لكن داجني لم تكن تصغي إلا لمامًا. أخيرًا توقف عن الكلام وصمت. اللعنة، لمَ كان دومًا يجعل من نفسه أضحوكةً، تاركًا لسانه يفلت منه؟! ليتشدق على الشابة-التي أحبها-عن لسعة الصقيع وأربع وعشرين عربة! ومن ثم تذكر أنه ذات مرة جعل من نفسه أضحوكة عندما روى قصة حمقاء عن أسكيمو

وورقة نشاف. تورد خداه خجلًا. قام بحركة مفاجئة وتوقف عن المشي تقريبًا. «لماذا بحق الجحيم كان عليه أن يروي بهذا الشكل؟ يا إلهي، كان خجلًا من نفسه! هذه الاندفاعات المفاجئة من الاستطراد أهانته، جعلته سخيفًا، أعادته أسابيع وشهورًا. ماذا قد يكون ظنها به؟!

«متى موعد السوق الخيرية؟» سأل.

«لماذا تبذل كل هذا الجهد في الحديث؟» أجابت مبتسمة. «لمَ أنت شديد التوتر؟».

لم تكن كلماتها متوقعة حتى أنه نظر إليها بذهول لبرهة من الوقت. قال بصوت هادئ وقلب خافق: «يا آنسة كيلاند، في آخر لقاء لنا وعدت بأني قد أتحدث عن أي شيء فيما عدا الموضوع الذي منعتني من التطرق إليه. أنا أحاول أن أحافظ على وعدي وحتى الآن تمكنت من ذلك».

«نعم علينا أن نحفظ عهودنا، ليس علينا أن نحنث بكلمتنا.» بدت أنها تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث إليه.

«قبل أن أراك، صممت أن أحاول، عرفت بأني سألتقيك».

«كيف يمكنك أن تعرف ذلك؟».

«رأيت آثار خطواتك على الطريق».

نظرت إليه سريعًا ولم تقل شيئًا.

بعد برهة قالت: «يدك معصوبة. هل آذيت نفسك؟».

«نعم عضني كلبك.»

توقفا كلاهما وتبادلا النظرات. قلب كفيه وصرخ خارجًا عن طوره: «لقد ذهبت إلى تلك الغابة كل ليلة. كل مساء قبل أن آوي إلى السرير، أتيت إلى هنا لأحدق في نافذتك. سامحيني، لكنها ليست

جريمة! لقد منعتني، لكني لم أتمكن من منع نفسي. عضني الكلب، قتلته دفاعًا عن النفس. لقد سممته لأنه دومًا ينبح عندما آتي لأتمنى لك ليلة سعيدة عند نافذتك».

«إذن أنت من قتل الكلب!» هتفت.

«نعم».

توقف قصير.

وقفا هناك يحدقان الواحد في الآخر. كان يتنفس بصعوبة. «وأنا قادر على فعل ما هو أسوأ كي ألفت انتباهك،» قال. «ليس لديك فكرة كم عانيت، إلى أية درجة أفكاري ممتلئة بك ليل نهار. لا يمكنك أن تفهمي. أتحدث إلى الناس، أضحك، وأقيم حفلات رائعة أيضًا، الليلة الماضية كنت أقيم حفلة استمرت حتى الرابعة صباحًا. وانتهينا بتكسير الكؤوس. لكن حتى وأنا أشرب وأعربد، أنت دومًا في أفكاري، وهذا يكاد يُفقدني عقلي. أنا أتجاهل كل مشاغلي، ولا أعرف كيف سينتهي الأمر. أرجوك تحمليني لدقيقتين، هناك شيء عليَّ أن أطلعك عليه. لكن لا تخافي-أنا لا أحاول أن أخيفك أو أستدرجك، أنا فقط عليَّ أن أتحدث إليك-ينبغي عليَّ ذلك!».

«لكن أظن أنك كنت ستكف عن هذه الحماقة» قالت بحماسة. «لقد وعدت».

«نعم، أظن أني فعلت، أنا لست متأكدًا مما وعدت به، لكن ربما كان يبدو لي سهلًا. لكنه صعب جدًا، لكن أعدك بأني سأمتلك زمام نفسي. لكن كيف يمكنني ذلك؟ قولي لي! علميني كيف! هل تعلمين أنه ذات يوم كدت أندفع إلى بيت الكاهن! كنت مستعدًا للدخول تمامًا حتى لو كان لديك زوار. صارعت الرغبة بكل ما لدي من قوة، صدقيني. وطوال الوقت كنت أقول أمورًا غير لطيفة بحقك، محاولًا أن أفك سحرك عليَّ

بالافتراء عليك. أنا لم أفعل ذلك رغبة في الانتقام، لا بد من أن تري أنني على وشك التحطم. فعلت ذلك لأدعم نفسي على أمل أن أعزز بعض احترام للذات ولا أريق ماء وجهي كليًا. هذا كان دافعي، لكني لست واثقًا من أنني نجحت. لقد حاولت أيضًا مغادرة البلدة، بدأت بحزم حقائبي لكني لم أستطع إنهاء ذلك، ولم أغادر. كيف يمكنني الرحيل! قد يكون مرجحًا أن أطاردك إن لم تكوني قريبة. وحتى لو لم أجدك أبدًا، قد أذهب باحثًا عنك، على أمل أن أجدك في النهاية. لكن عندما يصبح البحث عقيمًا، سأفقد تدريجيًا كل أمل، وحينها سأكون ممتنًا كثيرًا ببساطة للقاء شخص كان قريبًا منك-امرأة صديقة لك ضحكت معها، لمست يدها. كيف يمكن لي أن أغادر؟ وأيضًا نحن في فصل الصيف، الغابة مكاني الذي أعبده والطيور تعرفني. إنها تحييني كل صباح، تبختر رؤوسها وتنظر إلي، وتبدأ بالتغريد. لن أنسى يومًا منظر الأعلام ترفرف على شرفك مساء وصولي. لقد ترك فيّ أثرًا عميقًا، شعرت كما لو أني أيضًا مرحب بي، ومشيت حول السفينة منبهرًا، أنظر إلى الأعلام قبل ذهابي إلى الشاطئ. لن أنسى أبدًا ذلك المساء! لكني عشت هنا كثيرًا من اللحظات السعيدة. كل يوم أسير مثلك على نفس الطرقات، وأحيانًا أكون محظوظًا فأرى آثار خطواتك، كما حدث اليوم. حينئذ-كما فعلت اليوم-أنتظر عودتك. أختفي خلف صخرة في الغابة وأنتظرك. لقد رأيتك مرتين منذ آخر لقاء لنا، ومرة كان عليَّ الانتظار ست ساعات قبل أن تعودي. استلقيت خلف الصخرة طوال الوقت ولم أنهض مرة لأني كنت خائفًا من أنك قد تأتين وترينني. يعلم الله ما الذي أخرك ذلك اليوم».

«كنت في بيت أندرسن،» أضافت سريعًا.

«ربما. لكن عندما مررت أخيرًا، رأيتك. لم تكوني بمفردك،

حييتك من خلف الصخرة همسًا. يعلم الله ما ومض في عقلك في تلك اللحظة-ربما كان تخاطرًا-لكنك التفت ورمقت صخرتي».

«أوه، أنت تبدو مروعًا كما لو أني كنت أنطق بخبر موتك!».

«لكنك فعلت للتو. أعرف ذلك جيدًا جدًا. عيناك أصبحتا باردتين كالجليد».

«كان لا بد من نهاية لهذا يا سيد نيجل. لو تفكر في الأمر، ستدرك أنك لا تتصرف بطريقة مناسبة تجاه خطيبي. ضع نفسك في مكانه-هذا إذا لم نقل شيئًا عن الألم والإحراج الذي تتسبب لي بهما. ماذا تريد مني؟! للمرة الأخيرة، أحب خطيبي، وليس لدي نية بفسخ الخطوبة. آمل أن يكون الأمر واضحًا. لكن رجاءً يكفي انفجارات من هذا النوع. لا يمكنني أن أسير معك إلا إذا احترمت مشاعري. أنا أعني ذلك».

لقد كانت منزعجة للغاية، ارتجفت شفتاها وكانت محاولتها لكبح دموعها جلية. عندما لم يجب نيجل قالت: «يمكنك مرافقتي في الطريق إلى البيت لو تحب-أعني إذا كنت لن تتسبّب في البؤس لكلينا. أود أن تروي لي قصة. أنا أستمتع بسماع حديثك».

«بالتأكيد!» كاد يصرخ مبتهجًا لأنها سمحت له أن يواصل الكلام. «أي شيء، طالما يمكنني البقاء معك! عندما تكونين غاضبة جدًا وترمقينني بتلك النظرات الباردة تجعلين دمي يتجمد في عروقي».

كانت محادثتهما متقطعة إلى حين، سارا الهوينى ولم يقطعا إلا مسافة قصيرة.

«يا لها من رائحة رائعة!» قال هاتفًا. «يمكنك أن تري العشب والزهور تنبت بعد المطر. هل تحبين الأشجار؟ قد يبدو غريبًا، لكني أشعر كما لو أن علاقة سرية تربطني بكل شجرة في الغابة. إنه تقريبًا

كما لو أني كنت جزءًا منها ذات يوم. عندما أنظر من حولي، يبدو أن فيضًا من الذكرى يموج بداخلي. لنتوقف للحظة. اسمعي! كم مبتهجة هي الطيور وهي تحيي الشمس! إنها منتشية جدًا حتى أنها تكاد تحلق في وجوهنا بجنون».

تابعا السير.

«لا أزال أجد نفسي أفكر في الصورة الجميلة التي رسمتها للمركب والشراع الأزرق الحريري الهلالي الشكل» قالت. «كانت جميلة للغاية، وعندما تبدو السماء بعيدة جدًا، أتخيل نفسي أعوم نحو الأعلى أصيد بصنارة فضية».

كان مبتهجًا لأنها لا تزال تتذكر ما تخيله عشية منتصف الصيف. متأثرًا بعمق أجاب والدموع في عينيه: «نعم، وقد تكونين جالسة في المركب».

عندما أوشكا على الوصول إلى منتصف الطريق نحو الغابة، نظرت بانتباه جانبًا وسألته عن مدة بقائه في البلدة. ندمت في الحال على سؤالها وحاولت أن تعيد صياغته لكنها ارتاحت عندما ابتسم وتهرب منه. كانت ممتنة لسرعة بديهته، بالتأكيد لا بد من أنه لحظ إحراجها.

«أريد أن أبقى هنا بالقرب منك،» قال. «سأبقى حتى تنتهي أموالي–لكن هذا لن يطول كثيرًا جدًا.» أضاف.

ابتسمت له وقالت: «أنت تقول إن الأمر لن يطول كثيرًا؟ لكن سمعت بأنك غني!».

ارتسم الغموض على ملامحه مجددًا وهو يجيب: «أنا غني؟ نعم، يبدو أن هناك قصة تروى في البلدة عن امتلاكي للمال ولعقار قيم إلى حد ما. لكن هذه ليست الحقيقة. لا أملك أي عقارات تذكر، سوى قطعة أرض صغيرة أملكها مناصفة مع أختي. لكنها خسارة كلية

بسبب الديون والرهون. هذه هي الحقيقة».

كان ضحكها خفيضًا غير مصدقة. «حسنًا، من عادتك أن تقول الحقيقة عن نفسك، أليس كذلك؟» قالت.

«لا تصدّقيني؟ دعيني أخبرك بالوقائع، بالرغم من أنها محرجة جدًا. ربما تكونين قد سمعت بأني يوم وصولي إلى هنا مشيت خمسة أميال إلى البلدة المجاورة. أرسلت من هناك إلى نفسي ثلاث برقيات تشير إلى قدر كبير من المال وملكية في فنلندة. ثم تركت البرقيات مفتوحة على الطاولة في غرفتي ليراها الجميع. هل تصدقينني الآن؟ الآن هل ترين كيف بدأت الشائعة عن امتلاكي للمال؟».

«مسل بالتأكيد، ها أنت تقلل من قيمة نفسك ثانية».

«ثانية، يا آنسة كيلاند؟ أقسم بكل ما هو مقدس بأني أخبرك الحقيقة!».

توقف قصير.

«لكن لمَ فعلت ذلك؟ لمَ أرسلت تلك البرقيات إلى نفسك؟»

«إنها قصة طويلة. لكن لنختصرها، أردت أن أخلق انطباعًا- أجعل من نفسي شخصًا هامًا. هذا هو السبب».

«أنت تكذب الآن!».

«أقسم لك بأني لا أفعل».

توقف قصير.

«أنت رجل غريب. الله وحده يعلم ما تنتظر أن تحقق من ذلك. حينًا تكون جريئًا بما يكفي لتتحدث بشغف عن الحب ثم عندما أحاول أن أتناقش معك، تتحول وتلعب دور المدّعي، الكاذب، المخادع. لمَ لا تكف عن ذلك؟ لن يؤثر فيّ أيّ موقف. كما ترى، أنا إنسانة عادية، كل

شطحات الخيال هذه مهدرة عليَّ».

بدا فجأة أنها مستاءة.

«كنت أحاول أن أتذاكى. طالما أنّ كلّ شيء مهدور بكل حال، لمَ عليَّ أن أبذل أي جهد؟».

«لكن لمَ تصر على قول كل هذه الأمور الرهيبة عن نفسك؟» صرخت بعنف.

أجاب بتؤدة وبسيطرة كاملة على نفسه: «لأحدث انطباعًا فيك يا آنسة كيلاند».

توقفا ثانية وحدق الواحد في الآخر. تابع: «سبق أن كنت لطيفة ذات مرة حتى أنك استمعت إليَّ عندما تحدثت عن مقاصدي. سألت عن السبب الذي يجعلني أعترف بما يسيء إلى صورتي، اعترافات يمكنني بسهولة أن أحتفظ بها لنفسي؟ جوابي هو أن هذا جزء من المخطط-أفعل ذلك عمدًا. أنا آمل أن صراحتي الكلية ستحدث لديك انطباعًا بالرغم من أنك تشيرين إلى عكس ذلك. بأية حال، ربما ستشعرين ببعض احترام لصدقي البالغ. ربما أنا مخطئ، لكن لا يمكنني التصرف بخلاف ذلك. حتى لو استطعت، أنت لست في متناولي وليس لدي ما أخسره. أنا أستغل الفرصة الأخيرة اليائسة. أقدم لك حججًا قوية ضدي وأعزز تصميمك على إبعادي. لمَ أفعل ذلك؟ لأن روحي الرثة لن تجعلني أتشفع لحالي وأنتفع بهذه الوسائل الرخيصة. لا أستطيع فعل ذلك. لكن ربما تشعرين بأني أحاول أن أحقق بوسائل ماكرة ومنحرفة شيئًا يكسبه الآخرون بجرأتهم وصراحتهم؟ لا، أنا لن أنزعج بالدفاع عن نفسي. سمَّه خوفًا لو تودين. لمَ لا؟ هذه هي الكلمة المناسبة. لأعبر عنه بشكل أكثر دقة، إنه نوع وضيع من الاحتيال. لا بأس، لا أنكر ذلك. أنا دجال. لكننا جميعا

دجالون إلى حد ما، طالما أن هذا هو الواقع، شكل ما من الاحتيال ليس أسوأ من الآخر. أنا أشعر أني في مزاج للكلام-أود أن أتحدث بصراحة للحظة. بإعادة النظر، لا، يا إلهي، كم أنا مشمئز من كل شيء! لو أنّ هناك فقط سبيلاً للخلاص! على فكرة، هل خطر في بال أحد أن هناك مشكلة ما في زواج ستينرسن؟ أنا لا أقول بأن هناك أي خطب في تلك العائلة المحترمة، كما تعرفين، لكن فقط أتساءل إذا ما خطرت الفكرة لأحد. هناك فقط هما الاثنان، ما من أطفال، ما من مشاكل كبرى، لكن هناك ربما شخص ثالث متورط من يعلم؟ ربما شاب أصبح صديقًا حميمًا-أنا أتحدث عن رينيرت، النائب. من نحن لنحكم؟ هناك ربما أخطاء من الجانبين. ربما الطبيب واع لذلك لكنه عاجز عن فعل أي شيء إزاءه. بأية حال، لقد شرب كمية كبيرة الليلة الماضية وكان مشمئزًا من كل شيء وكل شخص حتى أنه وصف حمض البروسيك للجنس البشري برمته مرسلًا كل شيء إلى الجحيم! رجل مسكين! لكنه ليس الوحيد الذي يغالي في النفاق، حتى لو احتسبت نفسي-أنا نيجل-لأني غارق في ذلك. وماذا عن القزم-رجل لطيف وحقيقي، شهيد! إنه روح طيبة، لكنني أعتني به-أنا أراقبه. أقول لك، عيني عليه! تبدين متفاجئة. هل أصدمك؟ لم أعنِ ذلك. دعيني أؤكد لك، لا يمكن للقزم أن يكون فاسدًا. إنه رجل شريف تمامًا. ثم لماذا لا أدعه يبتعد عن مرمى نظري؟ لمَ عليَّ أن أتجسس عليه من زاوية في الساعة الثانية صباحًا عندما يأتي إلى البيت من نزهة بريئة؟ ولمَ أبقي عينيّ مفتوحتين عليه وهو يحمل أكياس الفحم، محييًا الناس في الشارع؟ ما من جواب بأية حال. لقد حدث أنه أثار اهتمامي، هذا كل شيء. يعجبني، وفي نفس الوقت هو يمثل الحقيقة والاستقامة وسط كل هذا الزيف. لهذا ذكرته، وأنا واثق من أنك تفهمين ما أعنيه. لكن

لأعد إلى نفسي-لا، لا أرغب في العودة إلى نفسي، كل شيء عدا ذلك!».

كانت هذه الملاحظة الأخيرة مفعمة بالتفجع جدًا حتى أن قلبها رق له. فجأة ساورها وعي بأن هذا إنسان معذب محطم. لكن عندما حاول مباشرة أن يخفف رد الفعل الذي أثارته صيحته فيها بضحك قاس مفاجئ دون أي سبب، مكررًا أن الحياة ليست سوى سخرية جوفاء، سرعان ما تلاشت شفقتها.

«لقد قلت بعض الملاحظات عن السيدة ستينرسن التي لم تكن سيئة وحسب بل غليظة للغاية فضلًا عن ذلك،» قالت بغضب. «ومن ثم أنت تحاول أن تمنح لنفسك أهمية على حساب أعرج مسكين كالقزم. لقد كان أمرًا وضيعًا وسافلًا أن تفعل.» مشت وخب السير معها. لم يُجب لكنّه أبقى عينيه خفيضتين. أكتافه ترتعش، ورأت دموعًا تنهمر على خديه ما أثار ذهولها. ليخفي عاطفته التفت وصفر لطائر.

ساروا بضع دقائق، لم يقل أحدهما شيئًا. ثانية كانت ممتلئة بالشفقة وندمت على اندفاعها. ربما ما قاله صحيح -أنى لها أن تعرف؟ ألم يكن ممكنًا أن هذا الرجل قد رأى خلال هذه الأسابيع القليلة ما لم تره خلال سنوات طوال؟

واصلا السير بصمت. استعاد رباطة جأشه وكان يعبث بمنديله. خلال دقائق سيكونان على مرأى بيت الكاهن.

كسرت الصمت قائلة: «هل تؤلمك يدك كثيرًا؟ أرني».

توقفت. كان من الصعب أن يعرف فيما إذا أرادت أن تبدي قلقها أو أنها ضعفت لبرهة، لكن كلماتها كانت صادقة، ورقيقة للغاية.

فقَدَ في هذا الوقت السيطرة على مشاعره. توقفت على مسافة قريبة منه كثيرًا، ورأسها منحن على يده فاشتم عطر شعرها وعنقها، غلبته لهفته.

دون أن ينبسا بكلمة. لفها بذراع واحدة، ضغطها مقربًا إياها منه، وعندما قاومت، ضمها بشدة إليه بكلتا ذراعيه، رافعًا إياها عن الأرض. شعر بأن ارتخاء ظهرها يزداد إذ تستسلم لعناقه. لم تبتعد لكنّها رفعت بصرها بعينين ضبابيتين. تمتم كلمات مغازلة وقال إنه سيحبها حتى مماته. قد منح رجل حياته لها سابقًا وهو سيفعل الأمر نفسه بإيماءة، بكلمة واحدة منها. أحبها حد الذهول! وهو لا يزال يحتضنها بشدة، همس برقة: «أحبك، أحبك!».

استسلمت. استقر رأسها على ذراعه اليسرى وهو يقبّلها بشغف، بين كلمات الحب. شعر بأنها تتشبث به، وعيناها مغلقتان وهو يقبلها.

«لاقني غدًا عند الشجرة-تتذكرينها-شجرة الحور. لاقني! أحبك، داجني. هل ستأتين؟ تعالي متى استطعت-تعالي في الساعة السابعة».

لم تجب لكن قالت بهدوء: «دعني أذهب الآن».

حررت نفسها ببطء من حضنه. وقفت برهة هناك تنظر من حولها، ذاهلة ومشوشة.

ثم بدأت شفتاها بالارتجاف. توجهت إلى حجر على جانب الطريق وانهارت عليه منتحبة. انحنى عليها يتحدث بصوت منخفض. بعد دقيقة تقريبًا، قفزت بوجه شاحب من شدة الغضب، وضغطت قبضتيها المطبقتين على صدرها، وصرخت: «أنت فاسد تمامًا. يا إلهي، يا لك من مخلوق دنيء -ولو أني واثقة من أن هذا ليس رأيك! كيف استطعت-أوه، كيف استطعت؟!».

وبدأت بالبكاء مجددًا.

حاول أن يهدئها ثانية لكن دون جدوى. وقفا هناك نصف ساعة

على جانب الطريق دون حراك.

«بعدما حدث تجرؤ على أن تطلب مني أن ألاقيك ثانية؟ أبدًا! لا أريد أبدًا أن تقع عيني عليك ثانية! أنت سافل!».

استعطفها، جثا على ركبتيه وقبل فستانها، لكن لم يكن منها سوى أن كررت قولها بأنه سافل، وكم كان سلوكه شائنًا. ما الذي فعله لها! أمرته أن يغادر ومنعته من ملاحقتها خطوة أخرى.

وبدأت تسير نحو بيت الكاهن.

مع ذلك حاول أن يتبعها لكنها أوقفته بإيماءة من يدها وصرخت: «لا تقترب مني!».

وقف هناك يراقبها إلى أن سارت ما يقارب عشرين خطوة، ثم أطبق قبضتيه وركض خلفها وأجبرها على التوقف.

«أنا لا أريد أن أؤذيك،» قال. «لكن ارحميني! أنا أرغب في قتل نفسي الآن هنا، في الحال، فقط لأخلصك من حضوري. كل ما عليك فعله هو أن تنطقي بالكلمة. وقد أكرر هذا غدًا إذا ما التقيتك. لكن باسم الإنسانية، عليك أن تمنحيني فرصة. اسمعيني، باسم العدالة لديك هذه السلطة عليَّ، حتى أني مثل العجينة بين يديك. ودخولك حياتي ليس خطئي بالكامل. آمل من الله ألا تتعذبي كما أتعذب الآن».

بقوله ذلك التفت وابتعد.

كانت الأكتاف العريضة على جسده القصير القوي ترتعش وهو يختفي في الطريق. نظر مباشرة في عيون من التقاهم، ولم يتعرف إلى أحد. لم يستعد رباطة جأشه إلا بعد أن سار في البلدة ووصل إلى الفندق.

الفصل الخامس عشر

في الأيام الثلاثة التالية لم يُر نيجل في البلدة. أقفل باب غرفته في الفندق وغادر على متن باخرة. لم يعرف أحد بوجهته، إلا أنه كان في مكان ما شمالًا. ربما في عطلة قصيرة.

عاد ذات صباح باكر شاحبًا ومتعبًا. لم يذهب مباشرة إلى الفندق بل ذرع رصيف الميناء جيئة وذهابًا بتمهل، ثم سلك الطريق الجديد على طول الزقاق البحري، حيث كان الدخان آخذًا بالتصاعد من مدخنة الطاحونة.

سار متمهلًا، في محاولة واضحة لإنفاق بعض الوقت. عندما نشطت الحياة في البلدة، توجه نحو مكتب البريد في ساحة السوق. عيناه تتأملان السابلة بحذر، وعندما وقع بصره على تنورة مارتا جودي الخضراء، توجه نحوها في الحال.

ربما لم تتذكره؟ اسمه نيجل-من قدم عرضًا لشراء الكرسي.

هل بيع؟

لا، لم تبعه.

هذه أخبار جيدة. ولم يأت أحد آخر ليعرض سعرًا يفوق عرضه؟ ألم يحضر زائرون من جامعي الأثاث العتيق؟

«نعم جاء أحدهم، لكن...».

«كان لديك زبون؟ سيدة، تقولين؟ النساء الملعونات، يحشرن

أنوفهن دومًا في كل شيء! ربما سمعت هذه المرأة شائعة عن قطعة نادرة وشعرت في الحال بوجوب الحصول عليها. هكذا تفعل النساء! بكم كان يقدر عرضها؟ إلى أي حد رفعت السعر؟ لكن تذكري، لن أتخلى عن عرضي بشأن ذلك الكرسي مهما كان من أمر!».

كان من الواضح أنه شديد الانزعاج فما كان من مارتا سوى أن أجابت سريعًا: «إنه لك، بالتأكيد».

«إذن هل يمكنني أن أزورك هذا المساء حتى نستطيع ترتيب كل شيء؟».

«نعم، لكن أليس من الأفضل لو أرسلت الكرسي إلى الفندق؟».

«مستحيل. شيء مثل ذلك يجب التعامل معه بأيد خبيرة. في واقع الحال، لا أفضل أن يراه أحد. سأعود حوالي الساعة الثامنة. على فكرة، أرجوك لا تحاولي أن تنفضي الغبار عنه أو تنظفيه-ولأجل السماء لا تفكري باستعمال الماء!».

عاد نيجل إل الفندق ودون أن يخلع ثيابه استلقى ونام حتى المساء.

عندما أنهى تناول وجبة العشاء، نزل إلى كوخ مارتا جودي عند رصيف الميناء. كانت الساعة آنئذ الثامنة. قرع الباب ودخل.

كانت الغرفة منظفة حديثًا والأرض خالية من البقع والنوافذ تتلألأ. كانت مارتا ترتدي أيضًا قلادة. من الواضح أن مجيئه كان منتظرًا.

بعد الترحاب وتبادل حديث مختصر، جلس وبدأ يتحدث في الأمر. هي لن تستسلم لكن أصرت بعناد أكبر من أي وقت سابق على تقديم الكرسي هدية. أخيرًا ثار وهدد برمي خمسمئة كرون في وجهها والفرار بالكرسي. طلب منها ذلك خابطًا بقبضته على الطاولة، نعتها بالمعتوهة وقال إنه لم يلتقِ يومًا بمثلها.

أشار وعيناه مثبتتان عليها: «أتعلمين، يجعلني عنادك حقيقة أعيد النظر في هذا الكرسي. أتساءل إذا كان السعر الذي اتفقنا عليه سعرًا عادلًا في آخر الأمر؟ في عملي أتعامل مع شتى صنوف البشر وعلى المرء أن يكون شديد الحذر. إذا كنت قد حصلت على الكرسي بطريقة غير شريفة لن أمسه. لكن إذا أسأت فهم إحجامك عن بيعه، أرجوك سامحيني».

ناشدها أن تخبره الحقيقة. تحدثت مدافعة عن نفسها ذاهلة وخائفة ومهانة بشكوكه. اشترى جدها الكرسي وكان ملكًا للعائلة لمئات السنين لم يكن هناك ما تخفيه وغرغرت عيناها بالدموع أثناء تحدثها.

أراد أن يسوي المسألة نهائيًا، قال، مخرجًا محفظته.

تقدمت نحوه خطوة كما لو بنية إيقافه، لكنه وضع ورقتين نقديتين على الطاولة وأغلق المحفظة على عجل. «الآن تم كل شيء.» قال.

«أرجوك لا تعطني أكثر من خمسين كرونًا»، توسلت وفي تشوشها مست شعره بإيماءة متشفعه. لم يبد أنها تعي ما كانت تفعله وواصلت ملاطفة شعره، تستجديه أن يرسو على خمسين كرونًا. المرأة الحمقاء لا تزال الدموع في عينيها.

نظر إليها بجدية. كانت النار تلتهب في عيني هذه العانس شيباء الشعر المفلسة الأربعينية، لكن مع ذلك كان هناك شيء فيها جعله يفكر براهبة. مسه جمالها الغريب الطريف، وللحظة هو أيضًا كان مشوشًا. أمسك بيدها وقال: «يا لك من مخلوق غريب!» ومع ذلك في اللحظة التالية نهض فجأة متفلتًا من يدها. «آمل ألا تعارضي أن آخذ الكرسي معي الآن،» قال واضعًا يديه عليه.

كان واضحًا أنها لم تعد خائفة منه. وقد لحظت أن يديه متسختان من لمسهما للكرسي، سحبت منديلًا من جيبها وأعطته إياه ليمسحهما.

كان المال لا يزال ملقى على الطاولة.

«بالمناسبة،» قال «ألا تظني أنه سيكون من الحكمة عدم ذكر صفقتنا الصغيرة؟ ليس من داع أن تعرف البلدة بشأنه، أليس صحيحًا؟».

«نعم،» قالت بهدوء.

«أظن أن عليك أن ترفعي المال في الحال،» قال. «لكن أولًا من الأفضل أن تعلقي شيئًا أمام النافذة-خذي تلك التنورة».

«لكن هذا سيجعل الغرفة في ظلام حالك، أليس كذلك؟» ومع ذلك علقت بمساعدته التنورة أمام النافذة.

«كان علينا أن نفعل هذا في الحال،» قال. «لا يجب أن يراني أحد هنا».

لم تجب لكن التقطت المال من على الطاولة. أمسكت بيده وتحركت شفتاها، لكنها لم تفه بكلمة. قال ارتجالًا ممسكًا بيدها: «اعذريني على السؤال، لكن هل لديك مشكلة في الحصول على قوت يومك؟ أقصد، دون بعض المساعدة-أو ربما تتلقين مساعدة من نوع ما؟».

«نعم.»

«سامحيني على السؤال، لكن خطر لي للتو أنه لو شاع أنك تملكين بعض المال قد يتوقف كسبك. لهذا من الضروري أن تحافظي على سرية صفقتنا الصغيرة. تتفقين معي، صحيح؟ أنا رجل عملي وآمل أنك ستأخذين بنصيحتي، لا تخبري أحدًا عن هذا. حين أفكر في الأمر، أجد أنه من الأفضل أن أعطيك بعض الأوراق النقدية الأصغر قيمة فلا يكون عليك أن تصرفي العملة».

فكر بحذر بكل خطوة. جلس ثانية وبدأ بعد أوراق نقدية أصغر قيمة. عدها بتهاون، جمعها معًا وناولها إياها.

«الآن خبئي هذه بعناية،» قال.

التفتت عنه، فكت صدارها ودست النقود بداخله.

عندما تم الأمر، لم تهم بالنهوض لكن استمرت في الجلوس هناك. بعد لحظة قال عرَضًا: «بالمناسبة هل تعرفين القزم؟».

لحظ أنها توردت.

«حدث أن التقيت به عدة مرات،» أشار نيجل. «أنا مولع به تمامًا. يبدو أنه رجل ممتاز. لقد طلبت منه للتو أن يجد لي كمانًا. أنا واثق من أنه سيتدبر الأمر جيدًا، ألا تظنين؟ لكن ربما لا تعرفينه؟».

«بلى، أعرفه».

«بالتأكيد. الآن أتذكر قوله لي بأنه اشترى بعض الزهور منك من أجل الجنازة–جنازة كارلسن. ربما تعرفينه جيدًا؟ ما ظنك به؟ هل تظنين بأنه سيتمكن من أن يجد لي ذلك الكمان؟ عندما يتوجب على المرء أن يتعامل مع أناس كثر كما أفعل لا بد من أن يحتاط. فقدت مرة مبلغًا من المال لأني وثقت برجل ثقة عمياء ولم أتكبد عناء معرفة شيء عنه، حدث هذا في هامبورغ».

وعمد نيجل إلى إخبار القصة عن الرجل الذي تسبب بخسارته للمال.

وقفت مارتا قبالته منحنية على الطاولة. بدت متوترة وأخيرًا قالت مندفعة: «لا تتحدث عنه!».

«عمَّن؟».

«عن يوهانس القزم».

«هل اسمه يوهانس في الحقيقة؟».

«نعم يوهانس».

لم يقل نيجل شيئًا، لكن التعبير المرتسم على وجهه دل على أن هذه المعلومة الصغيرة أجفلته، إلى درجة أنّه جلس هناك عاجزًا عن الكلام ثم قال: «وكيف توصلت لمناداته باسم يوهانس، وليس جروجارد أو القزم؟».

أخفضت بصرها محرجة وتمتمت: «كلّ منّا يعرف الآخر منذ الطفولة».

توقف قصير.

ثم قال بغير تكلف وبنبرة مازحة: «هل تعلمين، لدي شعور بأن القزم يحبك في قرارة نفسه. هكذا أرى الأمر. لا بد من أن أقول إنني لست متفاجئًا، ولو أني أفكر أنها جرأة كبيرة منه. ألا توافقين؟ في المقام الأول، هو لم يعد شابًا، وإلى جانب أنه مشوه بعض الشيء. لكن الله يعلم، النساء مخلوقات غريبات! إذا ما تشبث شيء بأوهامهن فهُنّ قادرات على أن يرمين بأنفسهن باندفاع بهيج. هن هكذا. رأيت قليلا من هذا مرة عام 1886 عندما تزوجت فتاة أعرفها الفتى الذي يعمل ساعيًا عند والدها- وهو أمر جدير بالذكر! كان متمرنًا في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره. وجهُه ناعمٌ كوجه فتاة، وسيمٌ وعلى قدر كبير من السحر لا يمكن نكرانه. حسنًا، رمت بنفسها على هذا الولد وسافرا معًا. بعد ستة أشهر عادت وحيدة، مخذولة من الحب. محزن، أليس كذلك؟ كانت في الشهور القليلة التالية سئمة حتى الموت. إذ أنها كانت امرأة متزوجة، خارج التداول. ثم ذات يوم قررت أن تستكشف، بدأت تصاحب طلابًا وبائعين وانتهى الأمر وقد أطلق عليها لقب «La Glu [1]»، كان محزنًا. لكن مرة ثانية فاجأت

---

(1) وهو عنوان رواية من تأليف Jean Richepin ويعني «الغراء» فبطلة الرواية كان لها تأثير قاتل على الرجال.

الجميع. بعد أن عاشت هذه الحياة المتوحشة لسنتين، فجأة بدأت تؤلف روايات، كانت تعتبر عمومًا موهوبة تمامًا. سنتاها مع الطلاب والباعة منحتاها خبرة ونضجًا كان ممكنًا أن تنقلهما في رواياتها- وكتبت روايات جيدة جدًا! تحولت لتصبح امرأة لافتة! حسنًا، هكذا أنتنَّ النساء. تضحكين، لكن لا يمكن إنكار ذلك! الساعي ذو السبعة عشر عامًا يمكن أن يفقدكن جميعًا عقولكن! أنا واثق من أن القزم لم يكن عليه أن يعيش الحياة وحيدًا أيضًا، إذا ما بذل جهدًا وحسّن من هيئته. فيه شيء غامض يجعله قادرا على التأثير في أيّ رجل، بما في ذلك أنا أيضًا. إن له قلبًا نقيًا، وليس من أثر للخداع فيه. أنت تعرفينه جيدًا بشكل حميم وتعرفين أني على حق، أليس كذلك؟ لكن ماذا عن عمه تاجر الفحم؟ لديّ شعور بأنه عجوز وضيع ماكر، شخصية غير مرغوبة. من الواضح أن القزم هو من يسيّر العمل وأسأل نفسي لمَ لا يدير عملًا لحسابه. بأية حال القزم قادر تمامًا على إعالة أسرة... تهزين رأسك؟».

«لا، لا أهزه».

«حسنًا، أفهم أنك بدأت تشعرين بالملل والانزعاج من كل هذا الحديث عن رجل لا يهمك، أنا لا ألومك. بالمناسبة، لا تغضبي، أنا فقط أفكر فيك، لكن عليك أن تقفلي بابك ليلًا. تبدين شديدة الهلع! أرجوك لا تخافي ولاسيما مني. أنا أردت فقط تنبيهك الآن للمال الذي تملكين. لم أسمع يومًا أي حديث يشير إلى أن هذه البلدة ليست آمنة، لكن يجب على المرء أن يكون شديد الحذر. الظلام حالك هنا عند الساعة الثانية صباحًا، وأحيانًا أسمع الضوضاء الأكثر غرابة من نافذتي. آمل أنك لست غاضبة مني لأني أقدم نصيحة صغيرة؟ أنا مسرور لأني تمكنتُ أخيرًا من حثك على التخلي عن الكرسي. حسنًا،

وداعًا عزيزتي،» قال ممسكًا يدها. «بعد إعادة النظر من الأفضل أن تقولي إني أعطيتك بضع كرونات ثمنًا للكرسي لكن لا تضيفي أكثر، تذكري، يمكنني الاعتماد عليك، صحيح؟».

«نعم،» قالت.

عندما أصبح في الخارج، ضحك في سره ثم قهقه كما لو أنه نجح في تنفيذ مهمة عسيرة. «يا إلهي، كم هي سعيدة الآن!» قال لنفسه، من الواضح أنه يستطيب الفكرة. «لن تكون قادرة على النوم بسبب كل ذلك المال!».

عندما عاد إلى الفندق، كان القزم في انتظاره. جاء من التمرين وبحوزته حزمة من الملصقات تحت إبطه. نعم، سوف تكون اللوحة المسرحية ناجحة بالتأكيد. إنها مؤلفة من عدة مشاهد تاريخية وقد تضاء بألوان مختلفة. هو-القزم-كان له دور ثانوي. متى موعد افتتاح السوق الخيرية؟

يوم الخميس في التاسع عشر من تموز عيد ميلاد الملكة. ذلك المساء كان القزم ذاهبًا لوضع الملصقات في كل مكان. وكان مسموحًا لهم بوضع واحد عند بوابة المقبرة أيضًا. لكن سبب قدومه كان للحديث عن الكمان. لم يستطع إيجاد كمان في أي مكان. الكمان الوحيد الجيد في البلدة لم يكن للبيع. إنه يعود إلى عازف الأرغن، الذي يحتاج إليه من أجل السوق الخيرية، كان سيعزف بعض المختارات. حسنًا، لم يستطع أن يقدم العون.

كان القزم يقف هناك، ممسكًا بقبعته، على وشك المغادرة، عندما قال نيجل: «ما رأيك بمشروب؟ حظيت بضربة حظ وأنا في مزاج جيد جدًا هذا المساء. اقتنيت بعد معاناة كبيرة كرسيًا، ما من جامع في هذا الريف يمكنه الحصول على مثله. ألق بنظرة عليه! هل تقدر الثروة

عندما تراها؟ إنه هولندي-الحرفية فريدة. ولن أبيعه مقابل أيّ ثمن! أودّ أن أحتفل بشرب كأس بصحبتك. هل أطلب؟ لا؟ لكن يمكنك أن تلصق تلك الملصقات غدًا! لا يمكنني التوقف عن التفكير في مقدار الحظّ الذي حالفني اليوم. ربما لا تعلم بأني من هواة الجمع بشكل ما وبأني هنا لأرى ما بوسعي إيجاده. هل أخبرتك عن أجراسي الصغيرة؟ حسنًا، أراك لا تعرف شيئًا عني. أنا مهندس زراعي، بالتأكيد، لكن لدي اهتمامات أخرى أيضًا. جمعت حتى الآن مئتين وسبعة وستين جرسًا. بدأت منذ عشر سنوات ويسعدني الإقرار الآن بأنّي أملك مجموعة رائعة جدًا. وهل تعلم كيف عثرت على هذا الكرسي؟ لقد كانت مصادفة بحتة. ذات يوم عندما كنت أمشي في الشارع صدف أن عبرت بمنزل صغير تحت عند أرصفة الميناء، وأنا أعبر نظرت إلى النافذة دون قصد. ما رأيته أوقفني عن متابعة سيري، كان الكرسي هناك وفي الحال أدركت قيمته. قرعت الباب وفتحته سيدة شيباء الشعر في خريف العمر -ما كان اسمها؟ لقد نسيت. حسنًا، لا يهم. ربما لا تعرفها. الآنسة جودي، هذا هو اسمها كما أظن-مارتا جودي، أو اسم آخر يشبهه... بأية حال، لم ترغب في التخلي عن الكرسي. لكني عملت على إقناعها حتى حصلت منها على وعد بأن تسمح لي بالحصول عليه، وقد ذهبت اليوم لأتفحصه. تخيل أني حصلت عليه مجانًا، لقد أعطتني إياه! بالتأكيد وضعت عدة كرونات على الطاولة كي لا يساورها أي ندم، لكن الكرسي يستحق المئات. أرجوك لا تقل هذا لأي كان، لا أريد أن تسوء سمعتي هنا-وليس عندي ما ألوم نفسي عليه. لم تدرك السيدة قيمة القطعة، وبما أني خبير وشارٍ لم أشعر بأنه يتوجب عليَّ أن أهتم لمصالحها. على المرء أن يستعمل عقله وأن يخاطر في كل فرصة-المسن يكافح من أجل البقاء، كما تعلم... لكن بالتأكيد

لا يمكنك أن ترفض أن تشرب كأسًا معي، الآن وقد علمت بالقصة؟».

أصر القزم على المغادرة.

«أنا آسف،» قال نيجل. «كنت أتطلع إلى الحديث معك. أنت الرجل الوحيد هنا الذي أهتم له -الوحيد الحري برعايتي- الذي أوليه اهتمامي، قلت، ها ها. واسمك يوهانس؟ يا صديقي العزيز، لقد عرفته منذ البداية، مع أن أحدًا لم يخبرني حتى الليلة. لكن لا تخف مني. للأسف، يبدو أني دومًا أخيف الناس. بدوت هلعًا لتوك، مع محاولتك إخفاء ذلك».

وصل القزم إلى الباب. من الواضح أنه أراد أن ينهي المحادثة ويخرج بأسرع ما يمكن. كانت الأمور تزداد إزعاجًا في هذا الوقت.

«هل اليوم السادس من تموز؟» سأل نيجل فجأة.

«لماذا؟ نعم،» قال القزم. «إنه السادس من تموز.» وضع يده الآن على مقبض الباب.

تقدم نيجل نحوه بتؤدة حتى كادا يتلامسان، محدقًا مباشرة في عينيه، يداه خلف ظهره. همس دون أن يأتي بنأمة: «وأين كنت في السادس من حزيران؟».

كان القزم مندهشًا. ملأته تانك العينان المحدقتان وتلك الهمسة الغامضة بالرعب، فتح الباب بسرعة غير قادر على استيعاب السؤال الملح عن تاريخ شهر سابق وتعثر خارجًا إلى الرواق. وهو يحاول أن يستجمع نفسه ويجد الدرج، ناداه نيجل من الباب: «لقد كانت زلة. رجاء انس الأمر. سأشرح في وقت آخر!».

لكن القزم لم ير ولم يسمع. مع إنهاء نيجل لكلامه، وصل إلى الأسفل. لا ينظر يمينًا ولا يسارًا، انطلق إلى الشارع، عبر ساحة

السوق، نحو المضخّة الكبيرة، حيث انعطف عند أوّل مفترق طرق واختفى. بعد ساعة، عند العاشرة، أشعل نيجل سيجارًا وخرج.

كانت البلدة لا تزال تعج بالحياة. والناس يتجولون على الطريق المؤدي إلى بيت الكاهن، صدحت الشوارع بضحك الأطفال وهم يلعبون. في هذه الأمسية الصيفية الممتعة، كان الرجال والنساء جالسين على عتبات منازلهم يثرثرون بأصوات مكتومة. بين الحين والآخر قد ينادي شخص ما جارًا في الجانب الآخر من الشارع فيرد عليه بمرح.

تمشى نيجل نحو رصيف الميناء. رأى القزم يعلق الملصقات على جدران مكتب البريد، المصرف، المدرسة، والسجن. كم كان ينفّذ عمله بحذر وبعناية! كان منهمكًا في عمله ولم يبد مهتمًا للوقت، مع أنه كان قد تأخر ولا بد من أنه يشعر بالتعب. حياه نيجل وهو يمر به دون أن يتوقف. عندما كاد يصل إلى الرصيف أوقفه شخص ما: كانت مارتا جودي، وهتفت لاهثة:

«اعذرني لكنك أعطيتني كثيرًا من المال».

«مساء الخير،» قال مجيبًا. «هل أنت أيضًا تتنزهين؟».

«لا، كنت في البلدة، كنت أنتظرك عند باب الفندق. لقد أعطيتني الكثير من النقود».

«هل ستبدئين بذلك ثانية؟».

«لكنك أخطأت» صرخت برعب. «كان هناك أكثر من مئتي كرون بأوراق نقدية صغيرة».

«إذن كان هناك ما يزيد عن مئتي كرون؟ حسنًا، في تلك الحالة يمكنك أن تعيديها إلي».

بدأت بفك صدارها لكن حينها تفحصت نفسها ونظرت من حولها مشوشة. اعتذرت ثانية، كان هناك الكثير من الناس، ربما لن تستطيع إخراج النقود هنا فهي مخبأة جيدًا.

«لا»، قال بسرعة. «يمكنني القدوم والحصول عليها.» وسارا معا عائدين إلى منزلها. في الطريق التقيا بعدة أشخاص نظروا إليهما بفضول.

عندما دخل نيجل إلى غرفتها، تقدم وجلس بمحاذاة النافذة حيث جلس في المرة السابقة، كانت التنورة لا تزال معلقة هناك. لم يقل شيئًا عندما كانت مارتا تخرج النقود. لما ناولته ورقة العشر كرونات البالية والباهتة التي كانت لا تزال دافئة من حرارة صدرها، والتي لم يسمح لها شرفها بأن تحتفظ بها لليلة، طلب منها أن تحتفظ بالمال.

لكنها بدت الآن كما كانت سابقًا تشك في نواياه ورمقته بنظرة مربكة قائلة: «لا أفهمك...».

نهض فجأة.

«لكني أفهمك تمامًا،» قال. «لهذا أنا أتوجه إلى الباب. هل هذا يطمئنك؟».

«نعم-لا أرجوك، لا تقف عند الباب،» قالت وهي تمد ذراعيها نحوه. هذه العانس الوحيدة كانت خائفة جدًا من إهانة أي شخص.

«أود أن أطلب منك خدمة،» قال نيجل وهو لا يزال واقفًا. «ستمنحينني بهجة عظيمة إذا ما... قد أجد وسيلة لمجازاتك-أي أود منك المجيء إلى السوق الخيرية مساء يوم الخميس. هلا أتيت؟ ستتسلين-سيكون هناك الكثير من الناس، الأضواء، الموسيقى، وبالتأكيد اللوحة المسرحية. أرجوك تعالي فلن تندمي. لمَ تضحكين؟ يا إلهي، يا لنصاعة أسنانك!».

«أنا لا أخرج،» قالت. «ما الذي يجعلك تظن بأني قد أذهب إلى هناك-ولمَ عليَّ أن أفعل؟ لمَ تريدني أن أذهب؟» تحدث معها حديثًا صريحًا ومباشرًا. كان يفكر في ذلك منذ وقت طويل. خطرت له الفكرة منذ أسبوعين، لكنه لم يتذكرها حتى هذا الوقت. كان عليها فقط أن تحضر وتختلط بالحشد، يود منها أن تأتي. هو لن يتحدث معها، إذا لم تكن راغبة في ذلك، لا يريد أن يحرجها-ليس هذا في نيته. لكن رؤيتها بمظهر شاب مع أناس آخرين وسماع ضحكها، سيبعثان السرور في نفسه. عليها القدوم ببساطة! نظر إليها عن كثب. شعرأبيض بياض الثلج، وعينيان قاتمتان! كانت يد تتحسس أزرار فستانها. يد رقيقة بأصابع طويلة-ليست شديدة البياض، ربما لم تكن نظيفة تمامًا، لكنها تركت أثرًا طاهرًا بغرابة. برز على طول المعصم وريدان زرقاوان بعض الشيء.

نعم، قالت، قد يكون ذلك ممتعًا. لكن ليس عندها ملابس، لا تملك فستانًا لترتديه في مناسبة مثل تلك.

قاطعها سريعًا. كان لا يزال على يوم الخميس-موعد افتتاح السوق-ثلاثة أيام. هذا وقت كاف لها. ألن يكون الأمر مسوّى حينها؟ استسلمت تدريجيًا.

ليس على المرء أن يعزل نفسه كليًا، قال. لم يكن ليكسب شيئًا بذلك. علاوة على أن الأمر سيكون مخجلًا بما لها من عينين وأسنان جميلة. كانت تلك الأوراق النقدية على الطاولة من أجل الفستان-لا داعيَ للهراء الآن! عدا عن أن الأمر برمته كان فكرته، وكانت تفعل ذلك لتبعث في نفسه السرور.

تمنى لها ليلة سعيدة بسرعة، فلن يكون لديها أبسط سبب لتشعر بالانزعاج. لكنها مدت يدها لتشكره على دعوتها إلى السوق الخيرية

بينما كانت تودعه عند الباب. لم يحدث لها منذ سنوات أمر مثل هذا.
لم تكن معتادة على الخروج، لكنه سيرى أنها ستتصرف بطريقة جيدة جدًا. يا لها من طفلة، تعرض السلوك الحسن مع أنه لم يطلب منها ذلك!

الفصل السادس عشر

الخميس. أمطرت قليلًا، لكن على الرغم من ذلك افتتحت السوق الخيرية بحضور جمهور غفير وجوقة موسيقية. خرجت البلدة بأجمعها، وجاء الناس من الريف للمشاركة في هذا الحدث الاستثنائي.

كانت القاعة مزدحمة عند وصول يوهان نيجل في الساعة التاسعة. وجد مكانًا بالقرب من الباب حيث وقف بضع دقائق يصغي إلى خطبة. كان شاحبًا، وكالعادة يرتدي بذلته الصفراء، وقد نزع الضمادة عن يده، بعد أن شارف الجرح على الالتئام.

كان الطبيب ستينرسن وزوجته يقفان على المنصّة، إلى يمينهما يقف القزم ومشاركون آخرون في اللّوحة المسرحيّة. لكنّ داجني لم تظهر. سرعان ما دفعت حرارة المصابيح وازدحام الناس بنيجل إلى مغادرة القاعة. التقى عند الباب بالنائب رينيرت وانحنى له محييًا، لكن تحيته لم تكن تزيد عن إيماءة من رأسه. ظل واقفًا عند المدخل.

ثم حدث أن رأى شيئًا استحوذ على انتباهه كليًا وأثار فضوله. كان إلى يساره باب مفتوح يفضي إلى حجرة المعاطف، وبفضل ضوء المصباح رأى داجني كيلاند بوضوح واقفة هناك تلمس معطفه الذي سبق أن علقه على مشجب. لم يكن الخطأ واردًا. ما من شخص في البلدة لديه معطف شبيه به. كان بالتأكيد معطفه، إلى جانب أنه تذكّر

بالضبط المكان الذي علّقه فيه. لم يكن من سبب يدعوها إلى الوقوف هناك، وبدا أنها تبحث عن شيء وكان من الواضح أنها تستغل الفرصة لتمرر يديها على معطفه. استدار سريعًا كي لا يضبطها متلبسة.

أزعجه الحادث. عمَّ كانت تبحث ولماذا كانت مهتمة بمعطفه؟ ظل يفكر في الأمر، لم يتمكن من تناسيه. من يعلم، ربما كانت فقط تتأكد من وجود مسدس في جيبه. ربما ظنت أنه مجنون إلى حد الإقدام على فعل أي شيء. لكن ربما وضعت رسالة في جيبه؟ بدأ بالفعل يحلم بهذه الاستحالة السعيدة. لا، ربما كانت تبحث عن عباءتها، ولم تكن إلا مصادفة. كيف يمكن أن يسمح لنفسه بالانغماس في مثل هذه الأوهام! لكن بعد بضع دقائق، رأى داجني تسلك طريقها عبر القاعة، تسلل وذهب يبحث في جيوب معطفه، كان قلبه يخفق. ما من رسالة، لا شيء سوى قفازاته ومنديله.

فجأة كان هناك جولة من التصفيق تصدر عن القاعة.

أنهى رئيس البلدية خطابه الافتتاحي للتو. كان الحضور ينتشرون في الممرات، غرف المعاطف، في كل مكان يمكنهم فيه التقاط أنفاسهم. ثم استقروا حول الطاولات الموضوعة على امتداد الجدار وطلبوا المرطبات. انتشرت العديد من فتيات البلدة في المكان يرتدين زي النادلات، والمناديل على أذرعهن، مع الصواني والكؤوس.

راح نيجل يبحث عن داجني لكنه لم يجدها في أي مكان. حيا الآنسة أندرسن التي كانت أيضًا ترتدي مئزرًا أبيض اللون، طلب نبيذًا لكنها أحضرت له الشمبانيا.

نظر إليها باستغراب.

«لكنك لم تشرب يومًا شيئًا آخر،» قالت مبتسمة.

أعادت له هذه الملاحظة الجسورة نوعًا ما حيويته. طلب منها

الانضمام إليه فجلست، بالرغم من شدة انشغالها. كان ممتنًا لقبولها، أطرى على جمال فستانها، وكان مسحورًا بالمشبك المزركش القديم الذي كانت تضعه. كانت فتاة حسناء، بدا وجهها الطويل الأرستقراطي بأنفه البارز المنحوت بلطف هشًا للغاية، ولم يكن من ميوعة في وجهها، ما من تغيير في التعبير. تحدثت بهدوء وبتحفظ. يشعر المرء بارتياح في حضورها. كانت امرأة وسيدة.

عندما نهضت قال: «هناك شخص ما قادم إلى هنا هذا المساء وأود أن أفعل شيئًا من أجله. اسمها الآنسة جودي، مارتا جودي- ربما تعرفينها. أود أن تحسني معاملتها. إنها وحيدة للغاية-حدثني القزم عنها. هل هناك مشكلة لو طلبت منها الانضمام إلينا؟ أقصد بالتأكيد، إذا لم يكن لديك اعتراض».

«لا، على الإطلاق،» أجابت الآنسة أندرسن. «سيكون من دواعي سروري الذهاب والبحث عنها. أعرف أين تجلس».

«ستعودين أيضًا، صحيح؟».

«نعم، شكرًا لك».

فيما كان نيجل ينتظر، دخل كلٌّ من رينيرت، وهولتان، وداجني. كانت داجني في مثل شحوبه، على الرغم من حرارة الجو. ترتدي فستانًا أصفر بأكمام قصيرة، وتطوق عنقها سلسلة ذهبية ثقيلة لم تكن لائقة. توقفت للحظة في العتبة وعبثت بجديلتها بيد واحدة خلف ظهرها.

توجه نيجل إليها. طالبًا منها بلهفة وإلحاح أن تسامحه على ما بدا منه يوم الجمعة السابق. لن يحدث مجددًا أبدًا، لن يبدر عنه ما يدعوها لأن تسامحه على أي شيء. كان صوته مكبوتًا، وبعد أن قال هذه الكلمات، توقف.

أصغت إليه بانتباه وظلّت تحدّق فيه وهو يتحدث، وعندما انتهى قالت: «أنا لست واثقة من معرفتي بما تتحدث عنه، لقد نسيت الأمر، أريد أن أنساه».

ثم ابتعدت بلا مبالاة تامة.

قد يسمع المرء دوي الأصوات المختلط، قرقعة الأواني الصينية والكؤوس، فرقعة الفلين، الضحك، الصراخ، صدحت من القاعة أصداء فرقة البلدة النحاسية التي عزفت بشكل سيئ جدًا.

جاءت الآنسة أندرسن ومارتا برفقة القزم. جلسوا نحو خمس عشرة دقيقة إلى طاولة نيجل. وقامت الآنسة أندرسن بتقديم القهوة.

أخيرًا تلقت الكثير من الطلبات فاختفت كليًا.

ثم بدأ البرنامج: غنى رباعي، ألقى أوين واحدة من قصائده بصوت جهوري، عزفت سيدتان على البيانو، وقدم عازف الأرغن عزفه المنفرد الأول على الكمان.

كانت داجني لا تزال جالسة هناك مع رينيرت وهولتان.

ثم جاء شخص إلى القزم. كان ينبغي عليه القيام ببعض الأمور، لزم المزيد من الكؤوس والأكواب والمزيد من الشطائر. كانوا قد استهانوا باجتماع لبلدة صغيرة مثل هذه.

عندما وجدت مارتا نفسها وحيدة مع نيجل، نهضت أيضًا للمغادرة. لم تستطع البقاء، لاسيما أنها لحظت إيماءات السيد رينيرت التي أثارت ضحك الآنسة كيلاند. كان من الأفضل أن تغادر. لكن نيجل أقنعها بشرب كأس آخر. فستانها الجديد مفصل بطريقة جيدة جدًا لكنه لم يلائمها. جعل هذه المرأة الغريبة تبدو أكبر سنًا وتعارض بفظاظة مع شعرها الأبيض. لكن عينيها كانتا متقدتين، وعندما ضحكت أصبح وجهها المعبّر مفعمًا بالحياة تمامًا.

«هل تستمتعين بوقتك؟» سأل.

«نعم شكرًا لك. أنا أستمتع بالأمسية أيما استمتاع».

ركز كل انتباهه عليها، مختارًا ما قد يثير اهتمامها من مواضيع للمحادثة. روى لها قصة جعلتها تنفجر بالضحك، قصة اقتنائه لأجراسه الصغيرة الثمينة. كانت قطعة قديمة لا تقدر بثمن، تحفة، منقوشًا عليها اسم بقرة-أويستين، أخيرًا بدا أنه يشير إلى أنه كان ثورًا...

ضحكت وغادرها الخجل. كانت لاهية عما يحيط بها وهزت رأسها وضحكت مثل طفلة على نكاته السيئة. كانت مشرقة بالتأكيد.

«أتعرفين، أظن أن القزم شعر بالغيرة،» قال.

«لا،» قالت مرتبكة.

«لدي ذلك الانطباع. لكني أفضل أن أجلس هنا وحيدًا معك. أحب أن أسمعك تضحكين».

أخفضت بصرها ولم تجب.

واصلا الحديث. كان جالسًا في موقع يخوّل له النظر إلى طاولة داجني.

مرت بضع دقائق. عادت الآنسة أندرسن، ثرثرت لوقت قصير، وارتشفت رشفة من كأسها، وغادرت مجددًا.

فجأة غادرت داجني طاولتها وتوجهت نحو نيجل.

«تبدو أنك تمضي وقتًا طيبًا،» قالت برجفة خفيفة تخالج صوتها. «مرحبًا مارتا. علام تضحكان أنتما الاثنان؟».

«أوه! على كل شيء وأي شيء،» أجاب نيجل. «أنا أتحدث باستمرار ولقد أضحكت الآنسة جودي عدة مرات. هلا قدمنا لك كأسًا؟».

جلست داجني.

صدرت جولة من التصفيق عن القاعة منحت مارتا عذرًا للنهوض كي ترى ما الذي يجري. ابتعدت شيئًا فشيئًا إلى أن نادتهما أخيرًا:

«إنه ساحر! هذا ما يجب أن أراه!» وابتعدت عن مرمى بصرهما.

توقف قصير.

«لقد غادرتِ صحبتك،» قال نيجل، وكان سيكمل لكن داجني قاطعته في الحال: «وصحبتك غادرتك».

«أوه، ستعود. أليس هناك أمر غريب في الآنسة جودي؟ هي سعيدة الليلة مثل طفلة».

لم تجب داجني لكنها سألت: «هل كنت مسافرًا؟»

«نعم».

توقف قصير.

«هل تستمتع في هذه الأمسية؟».

«أنا لا أعرف حتى ما الذي يجري،» أجاب. «ليس هذا سبب مجيئي بالضبط».

«إذن ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

«لأراك ثانية، بالطبع. لكن فقط من بعيد دون كلام...».

«أوه. ولهذا السبب جلبت معك سيدة؟»

لم يفهم ما عنته ونظر إليها لبرهة طويلة.

«هل تقصدين الآنسة جودي؟ لا أعرف كيف أجيبك على ذلك. لقد سمعت الكثير عنها. هي دومًا وحيدة، لا تخرج أبدًا. حياتها فارغة. لم أجلبها إلى هنا، فقط أردت أن أبدي لها القليل من الاهتمام كي لا تشعر بالملل، هذا كل شيء. أتت بها الآنسة أندرسن. يا إلهي، كم

تعذبت تلك المرأة! لقد شاب شعرها بالكامل».

«ليس من الممكن أن تظن-أقصد هل يُخيّل إليك بأنّي أشعر بالغيرة؟ لا يمكن أن تسيء الفهم! أتذكر القصة التي رويتها عن مجنون قاد أربعًا وعشرين عربة. قلت إنه يتلعثم، ووقع في حب فتاة اسمها كلارا. أوه، أتذكر ذلك جيدًا جدًا. وبالرغم من أن كلارا لم تكن تشعر تجاهه بشيء، لم تستطع تقبل فكرة أن أختها الحدباء ستحصل عليه. لا أعرف لمَ قلت لي ذلك، لا بد من أنك كنت تملك سببًا، لكن هذا لا يمت إليَّ بصلة. أنت بالتأكيد لم تنجح في إثارة غيرتي إذا كان هذا ما تصبو إليه الليلة. لا أنت ولا متلعثمك!».

«يا إلهي! لا يمكن أن تقصدي ما تقولينه».

«بلى، أفعل» هتفت.

«هل تظنين بأني سأفعل شيئًا من هذا القبيل إذا ما أردت أن أثير غيرتك؟ أن أدعو امرأة في الأربعين من عمرها لمرافقتي، وأسمح لها بالمغادرة، أهملها حال ظهورك في المشهد. لا بد من أنك تظنينني أحمق تمامًا!».

«لا أعرف ما تكون. كل ما أعرفه بأنك فرضت نفسك عليَّ وتسببت لي بالساعات الأكثر بؤسًا في حياتي، وبأني لم أعد أفهم نفسي. لا أعرف فيما إذا كنت أحمقَ أم مجنونًا، لكني لن أزعج نفسي بمعرفة هذا. لا أهتم لما تكون!».

«أنا أدرك ذلك كليًا،» قال.

«ولم عليَّ أن أهتم؟» قالت ساخطة من تواضعه. «لماذا بحق الأرض يجب أن تكون على شيء من الأهمية بالنسبة إليَّ؟ لقد تصرفت بشكل سيئ معي، وبعد ذلك، يمكنك بالكاد أن تتوقع مني أن أهتم لما يحدث لك. لكنك تزعج نفسك بأن تروي لي قصة مليئة

بالأوهام والتلميحات. أنا مقتنعة من أن لديك سببًا لتحكي لي عن كلارا وأختها-نعم، لديك! لكن لماذا تجور عليَّ؟ لا أقصد الآن-أنا من أتيت إليك-لكن لمَ لا تدعني وشأني؟ ربما ستبرر الحادثة بأني توقفت لأتحدث لدقيقة كإشارة على أني قلقة ومنزعجة».

«عزيزتي آنسة كيلاند، ليس لدي أي أوهام».

«لا؟ لكن لم يكن لدي الوسيلة يومًا لأعرف فيما إذا كنت تروي الحقيقة. أشك فيك شكًا عميقًا وأؤمن بأنك قادر على فعل أي شيء. يجوز أن أكون متحاملة عليك الآن، لكنني أشعر بأن لدي الحق بالانتقام-أنت تستحق ما حدث لك. أنا مشمئزة حتى الموت من كل تلميحاتك وخططك..».

لم يقل شيئًا لكن جلس هناك يُدير كأسه.

عندما كررت أنها لا تصدق كلمة خرجت من فمه، كان جوابه الوحيد: «أنا أستحق ذلك».

«في واقع الأمر، لا أصدق أي شيء بشأنك،» تابعت. «أنا شككت حتى في أن أكتافك الكبيرة العريضة قد تكون محشوة. أعترف بأني ذهبت منذ بعض الوقت إلى غرفة المعاطف لأتأكد من أكتاف معطفك. لكن مع أني كنت مخطئة ما زلت أشكّ في كل شيء يتعلق بك. أنا واثقة من أنك قادر على أن تطيل قامتك بضعة إنشات، على سبيل المثال، بما أن في وسعك حتمًا استعمال العلو الإضافي. يا إلهي! من يمكنه تصديقك! من أنت بأية حال ولم أتيت إلى هنا؟ حتى أنك تستعمل اسمًا مستعارًا-سيمونسن هو اسمك الحقيقي -فقط سيمونسن! سمعته في الفندق. زارتك سيدة دعتك سيمونسن قبل أن تتمكن من إيقافها. ذلك أيضًا رخيص وفاحش بما لا يصدق. يقولون في البلدة إنك أعطيت سيجارًا لأولاد صغار وأنك تجترح الحماقة تلو الأخرى

في الشوارع. لقد سمعت بأنك توددت إلى خادمة في حضور عدد من الناس. لكن بالرغم من ذلك، بلغت بك الوقاحة لتأتي وتحدثني عن الحب وأن تواصل مطاردتي! صفاقتك لا تصدق-هذا هو ما يجرحني ويهينني على نحو رهيب».

توقفت. ارتجفت شفتاها، فاضحةً تأثّرها.

كل كلمة خرجت مباشرة من القلب-كل كلمة أصابت مباشرة مرماها.

بعد برهة من الصمت أجاب: «نعم، أعلم. لقد تسببتُ لك بالكثير من الكرب. لكن من نافل القول إنك إذا ما راقبت بانتباه رجلًا طوال شهر وكان لديك من الاهتمام ما يجعلك تتذكرين كل ما يقوله ويفعله، يمكنك دومًا أن تجدي ما تلومينه عليه. ربما لست عادلة كثيرًا في حكمك عليَّ، لكن هذا ليس مهمًا. هذه بلدة صغيرة. أنا واضح إلى حد ما، وأينما ذهبت يتعرف الناس إليَّ ويراقبون كل حركة من حركاتي. عدا عن كوني غريبًا قليلًا».

«بالتأكيد،» أجابته متهكمة» خلقت حدثًا مثيرًا بسبب صغر البلدة. في بلدة أكبر لن تكون الوحيد الذي يجذب الانتباه».

بالرغم من هذه الملاحظة الجليدية، لم يستطع أن يمنع نفسه من إبداء الإعجاب بها. كان على وشك أن يعترف بذلك مطريًا عليها، لكنه غير رأيه. كانت شديدة الانزعاج، غاضبة جدًا منه، وكانت تحط من قدره. هذا كان ألمًا حقيقيًا. كيف يبدو لها في الواقع-ربما مجرد شخص تافه غريب في بلدة صغيرة، رجل لفت الانتباه ببساطة لأنه كان غريبًا ويرتدي بذلة صفراء اللون.

قال بشيء من المرارة: «لكن ألا يقولون أيضًا إنّني كتبت نظمًا بذيئًا على قبر مينا ميك؟ ألم يره أحد؟ أنا أؤكد لك أنّها حقيقة.

وحقيقة أيضًا أني ذهبت إلى صيدلية البلدة للحصول على دواء لمرض مكروه، كتبت اسمه على قصاصة ورقية، لكني لم أتمكن من الحصول على الدواء لأني لا أملك الوصفة. وبالمناسبة، ألم يخبرك القزم بأني عرضت عليه مرة مئتي كرون ليتبنى طفلي؟ يمكن للقزم أن يشهد على ذلك. أنا واثق من أن في وسعي إيجاد أشياء أخرى كثيرة...».

«هذا ليس ضروريًا، لقد سمعت بما فيه الكفاية،» قالت بازدراء.

وبنظرة باردة من عينيها ذكرت البرقيات الزائفة، المبلغ الكبير من المال الذي كان قد أورثه لنفسه، وحقيبة الكمان التي كان يجرها مع أنه لا يملك كمانًا ولا يتقن العزف. قذفت بالواقعة تلو الأخرى في وجهه، تظاهره، خداعه، مكره، ادعاءه، والوسام الذي -باعتراف منه-لم يحصل عليه بشرف. كانت عديمة الرحمة ولم تبق على شيء. فجأة كان لكل تفصيل شأن كبير عندها، وقالت له ذلك ولو أنها أولًا صدقت أن كل هذه الأعمال الكريهة كانت محض خيال، كانت الآن مقتنعة بأنه اختلقها فعلًا. هو بالتأكيد شخصية تافهة وخاملة! «وبالرغم من أنك تعرف ما أنت،» واصلت، «لا تزال تحاول أن تباغتني، تزعجني، وحتى تستدرجني. لا تشعر بالعار، ليس لديك شعور بأي شيء سوى بنفسك. كل ما تفعله هو الشرح، والشرح...».

قوطعت من قبل الطبيب ستينرسن الذي خرج من القاعة، كان باديًا عليه شدة الانهماك في مسؤولياته. كان واحدًا من رعاة السوق الخيرية وكان يعمل بجد عليها.

«مساء الخير يا سيد نيجل!» صرخ. «بالتأكيد كان انفجارًا ما كنا فيه الليلة الماضية! حان الوقت أيتها الآنسة كيلاند، كي تستعدي للوحة،» قال واختفى.

كانت هناك فقرة موسيقية أخرى والحشد يكبر بلا هوادة.

انحنت داجني للأمام نظرت من الباب واستدارت نحو نيجل. قالت: «مارتا عائدة».

توقف قصير.

«ألم تسمع ما قلت؟».

«نعم،» أجاب بذهول. لم يرفع بصره بل واصل تدوير كأسه دون أن يشرب منه. كان رأسه منحنيًا بشدة ويكاد يمس الطاولة.

«هيا،» قالت بسخرية. «الآن إنهم يعزفون مجددًا. لنستمع لهذا النوع من الموسيقى، على المرء أن يكون بعيدًا في غرفة مجاورة، لنقل، ممسكًا بيد من يحبه-أليس ذلك ما قلته مرة؟ أظن أنه يشبه كثيرًا فالس لانر، والآن عندما تأتي مارتا...».

فجأة بدت نادمة على ملاحظاتها الخبيثة. تاهت إلى الصمت، تغيرت ملامحها وتململت بعصبية في كرسيها. كان لا يزال جالسًا هناك مطرق الرأس.

رأت صدره يجيش، كان تنفسه قصيرًا وغير منتظم. التقطت كأسها، نهضت، وهمت بقول شيء، بضع كلمات تصالحية لتنهي المحادثة. بدأت بالقول: «عليَّ الذهاب الآن».

رمقها، نهض، ورفع كأسه. شربا بصمت. بذل جهدًا ليمنع يده من الاهتزاز، استطاعت أن تراه يكافح ليبدو متماسكًا. فجأة، قال هذا الرجل، الذي ظنت أنها حطمته ودمرته باحتقارها ارتجالًا:

«يا آنسة كيلاند، لا أتصور أنني سأراك ثانية، لكن عندما تكتبين لخطيبك، هلا ذكرته بالقمصان التي وعد بها القزم منذ سنتين؟ رجاء سامحيني على التدخل في أمر لا يعنيني، أنا فقط أفعل هذا من أجل القزم. هلا عذرت تعجرفي، لكن أخبريه أنهما كانا قميصين صوفيين وحينها قد يتذكر».

عرتها الدهشة لبرهة من الوقت. حدّقت إليه بفم فاغر غير قادرة على التفوه بكلمة-حتى أنها نسيت أن تضع كأسها-ووقفت هناك طوال دقيقة كما لو أنها متجمدة.

لكن بعدئذٍ استعادت رباطة جأشها ونظرت إليه بغضب شديد وتنامى السخطُ بداخلها-نظرة قصدت منها أن تسحقه بها-والتفتت مبتعدة. عندما وصلت الى الباب، هبدت بكأسها على أقرب طاولة وعادت إلى القاعة.

بدا أنها نسيت أمر رينيرت وهولتان، اللذين كانا لا يزالان جالسين إلى نفس الطاولة ينتظرانها.

جلس نيجل ثانية. أكتافه تهتز ورفع يديه عدة مرات إلى رأسه في إيماءة متألمة. كان ينحني على الطاولة منهارًا كما يبدو، لكن عندما عادت مارتا قفز وبنظرة امتنان سحب كرسيًا من أجلها.

«كم أنت لطيفة بعودتك!» هتف. «اجلسي هنا. أريد أن أتحدث إليك على انفراد وأخبرك-لو تحبين-جميع أنواع القصص. أعدك بأن أسري عنك إذا ما جلست. أرجوك! يمكنك المغادرة متى شئت، وستدعينني أوصلك إلى البيت، أليس كذلك؟ أنت تثقين بي، أليس صحيحًا؟ ستشربين كأسًا صغيرًا من النبيذ معي الآن، ألن تفعلي؟ سأخبرك قصة ستجعلك تضحكين مجددًا. أنا مسرور للغاية بعودتك. يا إلهي! كم رائع سماعك تضحكين-أنت التي بغاية الجدية دومًا! لم يكن هناك أي شيء مثير للاهتمام يحدث في القاعة، صحيح؟ لنبق هنا إلى حين. الجو حار جدًا هناك. اجلسي».

ترددت مارتا لبرهة، لكنها جلست.

بدأ بعدها نيجل بالتحدث بلا انقطاعٍ، محافظًا على دفق ثابت من قصص وطرف مسلية. ثرثر متطرقًا إلى كل موضوع ممكن،

متحدثًا بسرعة محمومة وعارمة، مرعوبًا من فكرة أنها قد تغادر إذا ما توقف. جعله الجهد الذي بذله يتورد، أصبح مشوشًا وربت على رأسه بعجز، محاولًا أن يلتقط خيط قصته. فكرت مارتا أن هذا جزء من التسلية وضحكت مثل طفلة. كانت أبعد ما يكون عن الملل. قفز قلبها العانس فرحًا، تحررت من الموانع، حتى أنها شاركت في الحديث. كان هناك وهج دافئ يحيط بها، وكم كانت ساذجة!

عندما ذكر أن الحياة كانت بؤسًا لا يُسبر له غور، ألا توافقينني الرأي؟ هذه المرأة التي عاشت لسنوات في فقر وسندت نفسها ببيع البيض في السوق أجابت بأن الحياة لم تكن سيئة، غالبًا ما كانت جيدة تمامًا! غالبًا ما كانت الحياة جيدة، قالت!

«ربما تكونين على حق،» قال. «حسنًا، علينا أن نلقي بنظرة على اللوحة المسرحية. لنقف هنا في العتبة فيمكننا أن نجلس ثانية إذا أحببت. هل يمكنك أن تري من هناك؟ إذا لم تتمكني سوف أرفعك».

ضحكت وهزت رأسها مؤنبة.

وحالما رأى داجني على الخشبة أصبح كئيبًا. ركز تحديقه عليها ولم ير سواها. تبع اتجاه عينيها متفحصًا إياها بشدة من رأسها حتى أخمص قدميها، راقب بنهم ملامح وجهها ولحظ أن الوردة المثبتة على صدرها تتحرك بلطف مع تنفسها. كانت تقف بعيدًا في المؤخرة بين مجموعة المشاركين لكن كان يمكن التعرف عليها بسهولة بالرغم من زينتها المتقنة. لعبت الآنسة أندرسن دور الملكة وجلست في وسط الخشبة. كانت هذه اللوحة مضاءة إضاءة حمراء اللون وتم تصميم حركة الممثلين بعناية كبيرة من قبل الطبيب ستينرسن.

«إنها جميلة!» همست مارتا.

«ما هي؟» سأل.

«هناك على الخشبة. ألا يمكنك أنت ترى من حيث وقوفك؟ إلام تنظر؟».

«نعم إنها جميلة».

وليبعد انتباهها عن البقعة الوحيدة التي كانت عيناه مركزتين عليها بدأ يسألها عن المؤدين لكن بالكاد سمع أجوبتها. ظلا واقفين هناك حتى خفت الضوء الأحمر وأسدلت الستارة.

كان هناك فاصل من بضع دقائق بين اللوحات الخمس. حل منتصف الليل في هذا الوقت وكان نيجل ومارتا يشاهدان اللوحة الأخيرة. عندما انتهت بدأت الفرقة من جديد، عادا إلى طاولتهما واستأنفا محادثتهما. ازداد ارتياحها باطراد ولم تعد تفكر في المغادرة. جاءت سيدتان شابتان تبيعان بطاقات لإجراء قرعة على الدمى، كراس هزازة، مطرزات، وطقم شاي، وساعة، كان الهرج والمرج عامًا، أصبح الحشد صاخبًا وحيويًا، دوت القاعة والغرف المجاورة بأصوات الثرثرة مثل قاعة البورصة. كان وقت الإغلاق في الساعة الثانية. جلست الآنسة أندرسن مجددًا إلى طاولة نيجل، كانت بالتأكيد منهكة. نعم، شكرًا لك، ستود أن تشرب كاسًا-نصف كأس. أليس عليها أن تذهب وتبحث عن داجني؟

عادت مع داجني التي كان يرافقها القزم.

في تلك اللحظة كانت طاولة قد انقلبت بالقرب منهم وتبعثرت الفناجين والكؤوس على الأرض. صرخت داجني صرخة صغيرة وأمسكت بذراع مارتا بعصبية. في اللحظة التالية كانت تضحك على نفسها وتعتذر. لكن كان من الواضح أنها منفعلة، كان وجهها متوردًا. ضحكت ضحكات صغيرة صاخبة وكان في عينيها بريق محموم. كانت جاهزة للمغادرة ونظرت إلى ساعتها لكنها كانت تنتظر هولتان

مرافقها المعتاد. كان هولتان بأية حال لا يزال جالسًا إلى الطاولة مع رينيرت. لم يتزحزح من كرسيه لما يزيد عن ساعة وكان في الواقع ثملًا تمامًا.

«أنا واثقة من أن السيد نيجل سيوصلك إلى البيت يا داجني،» قالت الآنسة أندرسن.

انفجرت داجني بالضحك ونظرت الآنسة أندرسن إليها نظرة مروعة.

«لا، أنا لم أعد أجرؤ على السير مع السيد نيجل. لا يعلم المرء أبدًا ما قد يقدم على فعله. هذا سر بيننا، لكنه طلب مني بالفعل أن ألقاه خفية! صدقًا-تحت شجرة-شجرة حور كبيرة في بقعة محددة في الغابة. لا، السيد نيجل غير متنبأ به. سألني الآن بكل جدية فعلًا عن قميصين كان خطيبي قد وعد بهما مرة جروجارد. لا يعرف جروجارد شيئًا عن ذلك، هل تعرف يا جروجارد؟ كل شيء غريب جدًا!».

لا تزال تضحك، نهضت سريعًا، توجهت نحو هولتان وقالت له بضع كلمات. من الواضح أنها كانت تحاول أن تستحثه على المغادرة.

كان القزم محرجًا. حاول أن يشرح أمر القمصان، وازداد تشوشه تصاعديًا، واستسلم. نظر بقلق من شخص إلى آخر عند الطاولة. حتى مارتا بدت مرتبكة ومحرجة. همس لها نيجل بضع كلمات مطمئنة وبدأ بملء الكؤوس. غيرت الآنسة أندرسن الموضوع سريعًا وبدأت تتحدث عن السوق-يا له من مردود، على الرغم من الطقس! لا بد من أنها حصدت الكثير من المال، ما سيغطي التكاليف وأكثر...

«من كانت السيدة الجذابة التي عزفت على القيثارة؟» أراد نيجل أن يعرف. «المرأة ذات الفم الكئيب والسهم الفضي في شعرها؟».

هي غريبة هنا في زيارة. هل كانت حقًا جذابة إلى هذا الحد؟

أعتقد أنها كذلك. واستمر في طرح الأسئلة عنها، مع أنه من الواضح أن أفكاره في مكان آخر. فيمَ كان يفكر؟ لمَ كان يقطب فجأة بغضب شديد؟ أدار كأسه ببطء.

عادت داجني إلى الطاولة. وقفت خلف كرسي الآنسة أندرسن تزرر قفازيها، سألت بصوتها الواضح والجميل: «ماذا كان في بالك عندما طلبت مني ذلك الموعد، يا سيد نيجل؟ أرجوك، قل لي!».

«داجني!» همست الآنسة أندرسن واقفة.

شعر الجميع بالارتباك. رفع نيجل بصره. لم ينم وجهه عن أي مشاعر، لكن الجميع لحظ أنه وضع كأسه وراح يقلب كفيه. كان يتنفس بصعوبة. ماذا سيفعل؟ ما الذي كان خلف تلك الابتسامة الباهتة التي تلاشت في الحال؟ أجاب بهدوء مباغتًا الجميع: «لماذا طلبت منك ملاقاتي؟ ألا تفضلين يا آنسة كيلاند حقًا ألا أشرح؟ لقد تسببت لك حتى الآن بمضايقات كثيرة، وصدقيني قد أفعل أي شيء لأتراجع عنها. لكنك تدركين تمامًا ما دعاني لأن أطلب منك ملاقاتي. لم أحاول أبدًا أن أخفيه، ولو أنه ربما كان عليَّ أن أفعل. أرجوك سامحيني لا شيء آخر يمكنني قوله...».

توقف، ولم تجب. يظهر أنها انتظرت شيئًا آخر منه. أخيرًا ظهر هولتان في الوقت المناسب ليضع حدًا لهذا المشهد المؤلم. كان وجهه متوردًا ولم يكن على كثير من الاتزان. أخذت داجني ذراعه وغادرا.

كان ارتياح الجمع الصغير جليًا. وعاد المزاج المرح، ضحكت مارتا بدون سبب البتة، صفقت بيديها بابتهاج. عندما غادرت كانت تضحك كثيرًا جدًا، توردت وتفحصت نفسها تنظر من حولها خلسه لترى إذا ما كان أحد قد لحظها. وجد نيجل تشوشها ساحرًا وعمد للعب دور المهرج ليحافظ على مزاجها العالي. لقد عزف أيضًا «نوح العجوز»

على فلينة وضعها بين أسنانه.

انضمت السيدة ستينرسن للمجموعة، موضّحة أنه ليس لديها النية للمغادرة حتى موعد الإغلاق. بقيت هناك فقرة واحدة -عدد من البهلوانات-وكان عليها ببساطة أن تشاهدها. إنّها آخر من يغادر دائمًا: كان الليل طويلًا جدًا، وأن تعود إلى البيت، إلى منزل فارغ، أمر باعث على كآبة شديدة. لمَ لا يذهبون جميعًا ويشاهدون البهلوانات؟ ودخلوا جميعًا إلى القاعة.

بعد وقت قصير من جلوسهم، تقدم رجل طويل ملتح عبر الممر المنصف يحمل حقيبة كمان. كان عازف الأرغن، أنهى فقرته في البرنامج وكان مغادرًا. توقف وانحنى واستهل محادثة مع نيجل عن الكمان. جاء القزم ليراه وعرض شراءه. لكنه لا يستطيع بيعه، كان موروثًا. لقد أحبه كما لو كان شخصًا-حتى أنه أطلق عليه اسمًا. أي شخص في وسعه أن يرى أنه ليس مجرد كمان، قال، وفتح الحقيبة بحذر. هناك كانت الآلة البنية القاتمة والدقيقة مغلفة بحرير وردي أوتارها مغطاة بعناية بالقطن. لقد كانت أعجوبة، ألم تكن؟ تلك الأحرف الثلاثة الأولى، الأحرف المرصعة بالياقوت على عنق الكمان كانت تعني جوستاف أدولف كريستنسن. بيعها مستحيل. ما الذي سيسليه في شيخوخته؟ لكن مرحب تمامًا بنيجل ليجربها ويعزف بعض الألحان عليها.

رفض نيجل.

لكن عازف الأرغن أخرج الكمان من حقيبته، وبينما كان البهلوانات يؤدون آخر شقلباتهم لموجة من التصفيق، واصل التحدث عن كمانه اللافت، الذي تم تناقله عبر ثلاثة أجيال. لقد كان خفيفًا كالريشة: «تأكد بنفسك».

أخذها نيجل وأكد أنها خفيفة كالريشة. وبينما هو يمسك بها بين

يديه بدأ يتفحصها ممررًا أصابعه على الأوتار. قال بمظهر الخبير: «إنها من نوع ميتل والدر[1]» لكن هذا كان واضحًا تمامًا لما كان الاسم منقوشًا على رقعة في بطن الآلة. لمَ كان يتصرف بهذه الطريقة؟
عندما أنهى البهلوانات فقرتهم وانتهى التصفيق نهض نيجل ودونما كلمة تناول القوس. ثم عندما كان الجميع يسيرون نحو المخرج بين الحديث والضحك الصاخب، بدأ يعزف فجأة. همدت الضجة تدريجيًا. كان مشهد الرجل ذي الأكتاف العريضة، القصير، في بذلته ذات اللون الأصفر الفاقع، واقفًا وسط القاعة أخاذًا. ما الذي كان يعزفه؟ بدا أنه لحن خليط من أغنية شعبية ألمانية، أغنية بحارة، وواحدة من رقصات برامز الهنغارية. كان عزفه مثيرًا للمشاعر لكن فيه بعض الخشونة، ملأت النغمات الحادة القاعة. أمال رأسه إلى جانب واحد واتخذ هيئة العاطفي الكئيب. الأداء المفاجئ غير المقرر وسط قاعة فارغة، حضور الرجل الغريب وحركات إصبعه المسرحية، أبهرت الجمهور، ومنحتهم شعورًا بأن ساحرًا من كان يعزف. عزف عدة دقائق وأصغوا دون همس. ثم عزف قطعة بدت مثل لحن نفير مقدس. كان يقف تمامًا ساكنًا فيما عدا ذراعه، وكان رأسه مائلًا إلى أحد الجانبين. لأن شيئًا لم يكن مرتقبًا، جعل الأمر مفاجئًا للجنة السوق أيضًا، لقد عصف بسكان البلدة والقرويين. كانوا مستغرقين، بدا عزفه أفضل مما هو عليه، ولو أنه كان عاطفيًا وغيرَ متناغم. ثم عزف بعض ضربات بدت مثل عواء يائس، نواح حزين يمزق القلب، حتى أن الدهشة اعترت الجمهور. بعد ثلاث أو أربع ضربات توقف فجأة ونزع الكمان من تحت ذقنه.

احتاج الجمهور لدقيقة كاملة حتى يبدأ بالتفاعل. ثم انفجروا

---

(1) والأصح ميتينوالدر من ميتينوالد وهي قرية في بافاريا ألمانيا.

في آن معًا بتصفيق طويل محموم. صرخ البعض «برافو!» ووقفوا على الكراسي مصفقين. تلقى عازف الأرغن كمانه بانحناءة شديدة يمسه بأصابعه ووضعه بلطف ثم صافح يد نيجل وشكره مرارًا. كانت القاعة في هياج، تقدم الطبيب ستينرسن نحو نيجل بانفعال، أمسك بذراعه وصرخ: «يا إلهي، إذن أنت تعزف، في النهاية!».

كانت الآنسة أندرسن الجالسة بقربه مرتابة ولاهثة: «لكن أخبرتنا بأنك لا تتقن العزف!».

«لكن هذا صحيح،» قال. «أقصد ليس جيدًا جدًا، حسبي أنني هاو. كان عزفي سطحيًا تمامًا -ليس عميقًا على الإطلاق- لكنه أتى بثماره، أليس كذلك؟ حسنًا، لا بد من أن تتظاهري بعرض جيد وتمنحيه كل ما لديك! لمَ لا نشرب كأسًا آخر من النبيذ؟ هلا طلبت من الآنسة جودي مشاركتنا!».

عادوا جميعًا إلى الغرفة المجاورة، لا يزالون تحت تأثير هذا الرجل الغامض الذي أحدث مثل هذا الشعور.

حتى رينيرت توقف عرَضًا وقال: «شكرًا لك لدعوتي إلى حفلتك تلك الليلة. لم أتمكن من الحضور فقد كان لدي ارتباط آخر. لكني أقدر لك ذلك!».

«لمَ بحق الأرض أنهيت أداءك بتلك الألحان المتنافرة؟» سألت الآنسة أندرسن.

«لا أعلم،» قال نيجل. «هذا ما حدث. أظن أني أردت أن ألفت الانتباه».

عاد الطبيب ستينرسن مرة أخرى ليقدم تهانيه، وأصر نيجل ثانية على أن عزفه كان سطحيًا ومفعمًا بالمؤثرات الرخيصة. غير أنهم يعلمون! كان عزفه المزدوج بالأصابع زيفًا، نغماته منخفضة-كان

يعي ذلك جيدًا، لكنه كان بلا مران تمامًا.

كان الناس يتجمعون حول الطاولة، وظلت المجموعة جالسة إلى أن بدأت الأضواء تنطفئ. كانت الساعة الثانية والنصف. انحنى نيجل على الطاولة وهمس لمارتا: «لقد قلت إن في وسعي أن أوصلك إلى البيت، أليس كذلك؟ هناك شيء أود أن أطلعك عليه».

سدد الحساب سريعًا، وتمنى ليلة سعيدة للآنسة أندرسن وتبع مارتا إلى المخرج. لم تكن ترتدي معطفًا لكن كانت تحمل مظلة، حاولت أن تخفيها لأنها كانت مليئة بالثقوب. وفيما هما يغادران لحظ نيجل أن القزم يراقبهما بوجه متألم. كان وجهه أكثر تشوهًا من المعتاد.

ذهبا مباشرة إلى منزل مارتا. نظر نيجل من حوله، لكن لم يكن هناك أحد في مرمى بصره.

«سأكون ممتنًا لو تسمحين لي بالدخول لفترة قصيرة.» قال.

«لكن الوقت متأخر جدًا،» قالت مترددة.

«تعلمين بأني أقسم أني لن أتسبب لك بأدنى سبب للقلق. لا بد من أن أتحدث إليك!».

فتحت الباب.

عندما دخلا، ذهبت مارتا لتشعل شمعة وعلقت شيئًا أمام النافذة كما حدث سابقًا. انتظر حتى انتهت وقال: «هل استمتعت بالأمسية؟».

«نعم شكرًا لك،» أجابت.

«بأية حال، ليس هذا ما رغبت في التحدث معك عنه. تعالي واجلسي أقرب قليلًا. لا ينبغي عليك أن تخافي مني. أتعديني بذلك؟ لنتفق».

أعطته يدها وأمسك بها.

«أنت لا تعتقدين بأني كاذب-وبأني سأكذب عليك-هل تفعلين؟ هناك شيء أود أن أقوله لك-هل تشكين في مصداقيتي؟».

«لا».

«سأشرح كل شيء فيما بعد. لكن إلى أي حد تثقين بي؟ أقصد كم تؤمنين بي؟ كلامي غير مفهوم، لكن من الصعب البدء. هل تصدقينني إذا ما قلت لك على سبيل المثال، إنني شديد الولع بك؟ لا بد من أن تكوني مدركة لذلك. لكن إذا تعين عليَّ أن أقول أكثر، أقصد إذا ما طلبت منك أن تكوني زوجتي. يا إلهي ما الأمر؟ لا أرجوك دعيني أمسك بيدك. سأتمكن من التعبير عن نفسي بطريقة أفضل، وأنا واثق من أنك ستفهمين. الآن حاولي أن تقبلي حقيقة أن أذنيك لا تخدعانك وأني تقدمت إليك وأني دخلت مباشرة في صلب الموضوع وأعني كل كلمة. بادئ ذي بدء، لا بد من أن تقبلي هذا الاحتمال، وتسمحي لي بالمتابعة. الآن! كم عمرك؟ لا أقصد أن أسألك عن ذلك، لكن عمري تسعة وعشرون، تجاوزت سنوات الطيش والاستهتار، ربما تكونين أكبر بأربع أو خمس أو ست سنوات لكن هذا لا...».

«أنا أكبر منك باثني عشر عامًا،» قالت.

«أكبر باثني عشر عامًا!» هتف، مسرورًا جدًا لأنها أعارته اهتمامًا ولم تهلع. «هذا رائع-في واقع الأمر-إنه مدهش! هل تظنين أن اثني عشر عامًا تشكل فرقًا؟ لا أظنك تعنين ذلك! حتى لو كنت أكبر باثني عشر عامًا ثلاث مرات-لو كنت أهتم لأمرك، وأعني هذا، ما الذي قد يهم؟ كنت أفكر في هذا لوقت طويل-حسنًا، لعدة أيام، بأية حال-وأنا أقول لك الحقيقة. أناشدك أن تصدقيني! كان هذا في بالي طوال أيام ولياليها، ولم يوافيني النوم. عيناك غامضتان، أسرتاني منذ أن وقع بصري عليك. عينان لهما وقع خاص عليَّ، يمكنهما أن تجذباني حتى

آخر الأرض. ذات مرة أغواني رجل في الغابة شطرًا طويلًا من الليل بسحر عينيه وحدهما. كان الرجل ممسوسًا. حسنًا، هذه قصة أخرى.
- لعينيك أثر غريب عليَّ. هل تتذكرين اليوم الذي كنا نقف فيه هنا وسط الغرفة تنظرين إليَّ وأنا أمر؟ لن أنسى يومًا تلك اللحظة-لم تديري رأسك، لكن تبعتني عيناك. وعندما التقيتك وحظيت بالتحدث معك، دخلت ابتسامتك قلبي من فورها. أنا لا أظن بأني التقيت بأحد يومًا يضحك مثل هذه الضحكة الصادقة والدافئة. لكنك ذاهلة تمامًا عنها، فيها يكمن السحر والفتنة. أعلم بأني أتفوه بكلام فارغ. لكني أشعر بأنه ينبغي عليَّ مواصلة الكلام وإلاّ لن تصدّقيني، حسب الفكرة أن تجعلني يائسًا. ليتك لا تجلسين هنا متصلبة، كما لو أنك على وشك النهوض والرحيل، لو ترتاحين لي فأستجمع أفكاري. أرجوك دعيني أمسك بيدك، سيهون الأمر علي فأقول ما في قلبي. ليباركك الله! أنا لا أطلب منك أكثر مما قلته للتو. ولا أخفي شيئًا. هل يصدمك ما قلته؟ أنت تظنين أنها فكرة مجنونة، لا يمكنك أن تتفهمي رغبتي في الزواج منك، إنّك ترفضين أن تصدقي بأني أقصد ما قلت، أليس هذا ما تفكرين فيه؟».

«نعم-لا، لأجل السماء توقف!».

«لكن اسمعيني! أنا واثق من أنني لا أستحق أن تظلي مرتابة بي بتكتم...».

«أنا لا أشك فيك بأي شيء،» قالت مارتا، فجأة ابتلاها الندم. «لكن هذا مستحيل».

«لماذا؟ هل هناك شخص آخر؟».

«لا، لا».

«صدقًا؟ لأنه إذا كان من شخص آخر-لنقل القزم على سبيل

المثال...».

«لا!» صرخت بشدة وشعر أنها شدت قبضتها على يده.

«لا؟ حسنًا إذن ما من مانع. دعيني أكمل. لا ينبغي عليك أن تفكري في أنني حتى الآن أتفوق عليك اجتماعيًا لأنه مستحيل على هذا الأساس. أنا مخلص تمامًا، بشتى السبل، ربما لا أرقى إلى ما يعتبر التصرف النموذجي. سمعت بنفسك ما قالته الآنسة كيلاند هذا المساء. ولا بد من أنك قد سمعت من أناس آخرين في البلدة كم تصرفت على نحو سيئ في عدة مناسبات. أحيانًا أفكر في أنهم لم يكونوا عادلين تمامًا، لكن بالمجمل هم على حق. ارتكبت الكثير من الأخطاء. وأنت بشخصيتك الجميلة ونقاء قلبك تفوقينني بما لا يقاس، وليس العكس. يمكنني أن أعد بأن أكون صالحًا لك دومًا- صدقيني، هذا لن يكون صعبًا. سيكون فرحي الأعظم أن أجعلك سعيدة... أمر آخر: ربما أنت قلقة بشأن ما قد تقوله البلدة؟ حسنًا، في المقام الأول، قد توافق البلدة على زواجك بي-في كنيسة البلدة، لو أحببت. في المقام الثاني، يبدو أن لدى الناس سلفًا ما يكفي ليتحدثوا عنه. أنا واثق من أنهم لاحظوا أننا التقينا عدة مرات وأنك منحتني هذا المساء حظوة مرافقتك إلى السوق. لذا فليس محتملًا أن يزيد هذا في الأمر سوءًا. وبحق الله ماذا يعني؟ لمَ عليك أن تهتمي بما يظنه الناس؟ هل تبكين؟ هل جرحتك بتعريضك للمزيد من الثرثرة هذه الأمسية؟».

«لا، ليس لهذا السبب».

«لمَ إذن؟»

لم تجب.

فجأة خطر له شيء وقال: «ربما قسوت عليك كثيرًا؟ لم تشربي

كثيرًا من الشمبانيا-لا أصدق بأنك شربت كأسين. ربما تظنين بأني راغب في استغلال شربك بضع رشفات من النبيذ لأضعك في مزاج أكثر تقبلًا. هل لهذا السبب تبكين؟».

«لا، أبدًا».

«إذن لماذا تبكين؟».

«لا أعرف».

«لكن لا يمكن أن تستمري بإضمار فكرة أنّ قدومي إلى هنا نابع عن دوافع خفية. ومهما كنتُ في النهاية، فأنا صادق، لا بد من أن تصدقي ذلك!».

«أصدقك، لكني لا أفهم. كل شيء يبعث على التشوش... لا يمكنك.. لا يمكن أن تعني ما قلت!».

نعم، هو يعنيه! وواصل التحدث والشرح، ممسكًا بيدها الرقيقة في يده، والمطر يضرب على ألواح النوافذ. تحدث بهدوء، محاولًا أن يماشي سلسلة أفكارها، منتهيًا إلى ثرثرة خالية من المعنى من حين لآخر. سينجح بشكل جميل! سيذهبان بعيدًا-يعلم الله إلى أين-لكن قد يختفيان وما من أحد سيستطيع إيجادهما. ألن يكون ذلك رائعًا! قد يشتريان كوخًا وقطعة أرض صغيرة في مكان ما في الغابة، وسيسميانها جنة عدن. ستكون مكانًا جميلًا-مكانهما الخاص. قد يفلح الأرض ويجعلها تثمر فاكهتها-كم سيعمل! ولكن لديه ميل إلى الاكتئاب أحيانًا، قد يحدث-قد تستحوذ عليه ذكرى من حادثة في الماضي قد تنبثق فجأة لتطارده بغير سبب واضح. لكنها ستكون صبورة معه، صحيح؟ سيعد بألاّ يقلقها أبدًا. قد يطلب فقط أن يترك وحيدًا كي يحل المسألة، أو أن يذهب إلى الغابة لفترة. ما من كلمة قاسية قد تنطق في كوخهما. وسيملآنه بأجمل الأزهار البرية، الأحجار،

والطحلب. قد تغطى الأرض بأغصان العرعر التي سيجمعها، وفي عيد الميلاد لن ينسيا أن يضعا حزمة للطيور. سيمر الوقت سريعًا وسيكونان سعيدين! قد يمضيان أيامهما في داخل كوخهما ومن حوله، ولن يفترقا أبدًا. سيتنزهان في الصيف طويلًا ويلحظان كيف تنمو الأجمات والأشجار من عام إلى آخر. ودومًا سيرحبان بالغرباء الذين يصدف أن يمروا بهما. سيكون لديهما قطيع، عدة حيوانات كبيرة ملساء سيدربانها لتأكل من يديهما. بينما هو يعزق ويفلح الأرض ستعتني بها...

«نعم،» قالت مارتا. قالت ذلك عن غير وعي وهذا ما لم يفته.

تابع. ثم بالتأكيد سيكون لدينا يوم أو اثنان في الأسبوع لصيد السمك والطرائد. قد يمشيان يدًا بيد: هي ترتدي تنورة قصيرة مربوطة وهو يرتدي سترة رياضية وحذاء ذا أسيرة. كم ستردد الغابة صدى صراخهما وغنائهما! سيكونان يدًا بيد، أليس كذلك؟

«نعم» قالت مجددًا.

شيئًا فشيئًا تركت نفسها تساق بعيدًا. فكر في كل شيء، حتى بأدق التفاصيل. قال أيضًا إنهما سيجدان مكانًا قريبًا من الماء. سيهتم بذلك، سيهتم بكل شيء، يمكنها الاعتماد عليه. كان قويًا، سيقطع الأشجار في وسط الغابة ليهيئ مكانًا لبيتهما، لديه يدان قويتان- يمكنها أن ترى بنفسها! مبتسمًا وضع يدها النحيلة التي تشبه يد طفل بالقرب من يده. سمحت له أن يمسها، وعندما لاطف خدها نظرت إليه دون حراك. ثم مقربًا فمه المغلق من أذنها، سألها إذا اعتقدت، إذا ما كانت لترغب بذلك. ثانية قالت: نعم، نعم هامسة حالمة. لكن بعد بضع لحظات عادت إلى ترددها. عند إعادة النظر لا يمكنها ذلك. كيف يمكنه أن يتوقع هذا منها، ما الذي يظنه بها؟ وأقنعها

ثانية بأنه يريدها، وبأنه قصد كل كلمة قالها، وأنه يريدها أكثر مما يرغب في أي شيء آخر. سوف يهتم بها دومًا، لكن بالتأكيد سيحتاجان إلى بعض الوقت ليقفا على أقدامهما، ليس عليها أن تقلق-سيعمل من أجلهما معًا. تحدث لساعة، وجعلها تلين شيئًا فشيئًا. تراجعت مرتين مخفية وجهها بيديها، وصرخت: «لا، لا!» لكنها استسلمت في النهاية. نظرت في عينيه وأقنعت نفسها بأنه لم يكن يسعى وراء فوز خاطف. هل يمكن أن يكون راغبًا فيها حقًا؟! استسلمت، لم يعد بمقدورها القتال. قالت له نعم أخيرًا.

شارفت الشمعة في الزجاجة على الانطفاء، وكانا لا يزالان يتحدثان ويمسكان يدًا بيد. كانت مستغرقة بالمشاعر تمامًا، نبعت الدموع من عينيها، لكنها كانت تبتسم.

لنعد إلى القزم،» قال، «أنا متأكد تمامًا من أنه كان يشعر بالغيرة في السوق الخيرية».

«حسنًا، ربما هذا صحيح،» قالت، «لكن لا يمكن فعل شيء».

«لا، هذا صحيح، لا يمكن فعل شيء إزاء ذلك. انظري مارتا، سأود كثيرًا أن أفعل شيئًا لأسعدك هذه الأمسية. أود أن أمنحك شيئًا يجعلك تلهثين من المتعة. أخبريني ما تحبين! أنت متواضعة جدًا، يا عزيزتي، لم تطلبي أي شيء! تذكري دومًا يا مارتا ما أقوله لك الآن: سأحميك، سأحاول أن أحقق كل أمنية وأهتم لأمرك بقية عمري. ستتذكرين دومًا ذلك، يا عزيزتي، أليس كذلك؟ لن تكوني يومًا قادرة على القول بأني لم أحفظ وعدي»؟

كانت الآن الساعة الرابعة.

نهضا. تقدمت خطوة باتجاهه وأحاطها بذراعيه. طوقت عنقه بذراعيها وللحظة تعانقا. خفق قلبها الخجول النقي تحت يده ولاطف

شعرها برفق. كانا واحدًا.

بادرت بالحديث: «سأبقى مستيقظة ما بقي من الليل أفكر. ربما سنرى بعضنا في الغد إذا ما أردت؟».

«إذا ما أردت! نعم، غدًا، في أي ساعة؟ ربما آتي في الثامنة؟».

«نعم، هل تود أن أرتدي هذا الفستان؟»

السؤال الساذج، شفتاها المرتجفتان، عيناها الواسعتان نظرتا نحوه، وأثّرتا فيه عميقًا.

«طفلتي العزيزة، ارتدي ما تحبين! كم أنت طيبة! لكن ليس عليك أن تبقي مستيقظة طوال الليل! قولي ليلة سعيدة، فكري فيّ ونامي. هل تخافين من أن تبقي هنا وحيدة؟».

«لا، ستتبلل الآن في طريقك إلى البيت».

كانت قلقة عليه من أن يتبلل!

«كوني سعيدة ونامي جيدًا،» قال.

كان في الخارج عندما تذكر شيئًا والتفت إليها قائلًا: «أمر آخر: أنا لست غنيًا. هل تظنين أني أملك مالًا؟».

«لا أعلم،» قالت هازة رأسها.

«لا، لا أملك المال، لكن لدي ما يكفي لشراء بيت وللاعتناء بحاجياتنا. وبعد ذلك، سأهتم بكل شيء، سأقدم ما يلزمنا -هذا ما لدي. آمل أنك لا تشعرين بالخيبة لأني لست ثريًا؟».

«لا،» قالت، وحضنت يديه في يديها مرة أخرى. عند الوداع طلب منها أن تقفل الباب، وخطا نحو الشارع.

كانت الظلمة حالكة والمطر غزيرًا، لم يتوجه مباشرة إلى الفندق بل سلك طريق الغابة الذي يؤدي إلى بيت الكاهن. مشى حوالي ربع

ساعة ولم يتمكن من رؤية شيء بسبب الظلمة الحالكة، ثم أبطأ خطوه على يسار الطريق ووصل إلى شجرة ضخمة، كانت شجرة حور، وهناك توقف.

فيما عدا حفيف الريح عبر الأشجار والمطر الغزير، كان كل شيء يرين في صمت مطبق. همس بينه وبين نفسه: داجني، داجني، توقف ثم كرر بصوت مرتفع، واقفًا أمام الشجرة. لقد آلمته بعمق هذا المساء، وصبت جام غضبها وازدرائها عليه. كانت كل كلمة خنجرًا، ومع ذلك وقف هناك ينطق باسمها. انحنى إلى جانب الشجرة وفي الظلمة المدلهمة نقش اسمها على الجذع. استغرق الأمر عدة دقائق، يتلمس طريقه بأصابعه، ينقش ويهمس إلى أن انتهى... كان قد خلع قبعته أثناء ذلك.

عندما خرج إلى الطريق ثانية، توقف مترددًا لبرهة، ثمّ انقلب على عقبيه. تلمس طريقه عائدًا إلى الشجرة، مرر أصابعه على الجذع، ووجد الأحرف. انحنى مرة أخرى مقبلًا هذا الاسم، هذه الأحرف، كما لو للمرة الأخيرة. ثمّ نهض سريعًا وغادر المكان.

كانت الساعة الخامسة ساعة وصوله إلى الفندق.

الفصل السابع عشر

في اليوم التالي، نفس المطر الغزير والظلمة، جو كئيب. بدا الماء الذي تدفق من الميازيب وسال على زجاج النوافذ بلا نهاية. انهمر ساعة بعد ساعة، وحتى الظهر كانت السماء لا تزال مكفهرة. وأشجار الحديقة الصغيرة خلف الفندق محنية ومكسورة تتطاير أوراقها مغطاة بالوحل والمياه.

أمضى نيجل النهار في غرفته، يقرأ ويذرع الأرض كعادته، لا يكف عن النظر إلى الساعة. بدا النهار طويلًا جدًا. انتظر بفارغ الصبر حلول المساء. عند الساعة الثامنة نزل إلى كوخ مارتا. لم يكن لديه علمٌ بحدوث أيّ خطب، لكنها رحبت به والدموع في عينيها وكان جليًا انزعاجها الشديد. عندما حاول التحدث إليها، تهربت متلعثمة دون أن تنظر إليه. وطلبت منه مرة بعد مرة أن يسامحها وألا يشعر بالاستياء.

عندما أمسك بيدها، ارتجفت وحاولت سحبها. لكن أخيرًا جلست قربه هادئة حتى مغادرته بعد ساعة. ما الذي حدث؟ ألح عليها بالسؤال وطلب تفسيرًا كانت عاجزة عن تقديمه. لا، لم يكن من خطب فيها، لكنها كانت تفكر كثيرًا. هل تراجعت عن وعدها؟ ربما هي لا تهتم لأمره، في النهاية؟

نعم، ربما، لكنها ناشدته أن يسامحها وطلبت منه ألا يغضب. كانت تفكر في الأمر طوال الليل وتوصلت إلى أنه مستحيل. لقد تحرت

روحها وعرفت أنها لن تتمكن من أن تحبه الحب الذي يستحق.

إذن هذا هو الأمر!

توقف قصير...

لكن ألا تظن أن في وسعها أن تحبه مع الوقت؟ لقد تطلع كثيرًا إلى هذه الفرصة ليبدأ حياة جديدة! سيكون طيبًا جدًا معها! كان من الواضح أنها متأثرة وضغطت يدها على صدرها، لكنها أخفضت بصرها ولم تقل شيئًا.

ألا تظن بأنه يستطيع أن يحملها على حبه مع الوقت، إذا ما كانا معًا دومًا؟ أجابت بـ«لا» تكاد لا تُسمع، وتدحرجت دمعتان من أهدابها الطويلة.

توقف قصير.

بدأ يرتجف ونبضت الأوردة الزرقاء في جبهته. حسنًا إذن، لا شيء يمكن فعله. عليها أن تكف عن البكاء. لقد اقتحم حياتها، وأمل أن تسامحه. كانت نواياه حسنة... تناولت يده وأمسكت بها.

روَّعه استعراض العواطف هذا وسأل عما إذا كان قد أهانها بأي شكل من الأشكال. أراد أن يتدارك الأمر لو يسعه. ربما هي لا تحب أنه.. قاطعته: «لا، لا شيء من ذلك! كل ما هنالك أن الأمر برمته مستغرب جدًا! أنا لا أعرف من تكون حتى! أعرف أنك تريد الأفضل لي. أرجوك لا تسئ الفهم..».

«من أكون؟» كرر، وهو ينظر إليها مباشرة. فجأة خطرت له فكرة أن شيئًا حال بينهما، قوة معادية بددت ثقتها به.

«هل زارك أحد اليوم؟» سأل. لم تجب.

«لا أريد أن أتطفل، هذا لا يهم حقيقة. ليس لدي الحق في أن

أطرح عليك أي سؤال».

«كنت سعيدة جدًا الليلة الماضية!» هتفت. «كم تشوقت لقدوم الصباح وقدومك! الآن أنا مشوشة تمامًا!».

«رجاء قولي لي أمرًا واحدًا فقط. ألا تصدقين بأني كنت صادقًا معك صدقًا تامًا؟ غير أنك لا تثقين بي بالرغم من كل شيء؟».

«ليس دومًا، أرجوك لا تشعر بالإهانة، لكنك غريب تمامًا هنا. لا أعرف سوى ما قلته لي. ربما أنت تعنيه الآن لكن قد تغير رأيك لاحقًا. كيف يمكن لي أن أعرف ما يدور في خلدك؟».

توقف قصير.

وضع يده تحت ذقنها، رفع رأسها برفق وقال: «وماذا قالت الآنسة كيلاند أيضًا؟».

مأخوذة كليًا، رمقته بنظرة سريعة فضحت تشوشها.

«لكني لم أقل ذلك، هل قلت؟ لم أقل ذلك!».

«لا، لا، لم تقولي،» قال غارقًا في أفكاره، عيناه شاخصتان في الفراغ. «لم تقولي إنها هي، حتى أنك لم تأتي على ذكر اسمها-ليس هناك ما تقلقين بشأنه. لكن الآنسة كيلاند كانت هنا. دخلت من ذلك الباب، وعندما نفذت ما جاءت من أجله، غادرت مجددًا بنفس الطريقة. كانت مهمتها على غاية من الأهمية حتى أنه كان عليها الخروج اليوم، في هذا الطقس... يا غاليتي مارتا، أنا أركع أمامك لأنك طيبة جدًا. كوني على ثقة بي، فقط الليلة، وسأثبت لك لاحقًا أنّ لا شيء أكثر بعدًا عن عقلي سوى خداعك. لا تتراجعي عن وعدك! هلا فكرت بذلك حتى الغد وسمحت لي برؤيتك حينها...».

«لا أعرف.»

«لا تعرفين؟ هل هذا يعني بأنّك تفضّلين أن تتخلّصي منّي نهائيًا؟».

«أفضل أن آتي إليك يومًا ما عندما-حسنًا، عندما تتزوج وتكون أنهيت الأمر-أقصد المنزل... أفضل أن آتي إليك خادمة... أفضل ذلك أكثر».

توقف قصير.

كان شكّها فيه متأصّلًا سلفًا. لم يعد قادرًا على التأثير فيها والتخفيف عنها كما في السابق. انهار قلبه عندما رأى أنه كلّما تحدث أكثر، زادت بعدًا عنه. لكن لمَ كانت تبكي؟ ما الذي كان يعذبها؟ لمَ كانت لا تزال ممسكة بيده؟ عادت أفكاره إلى القزم. سوف يختبرها، سيجبرها على أن تراه ثانية في الغد بعد أن تحظى بفرصة للتفكير في الأمر.

«سامحيني لأني أتطرق لذكر القزم مرة ثانية. لا تنزعجي الآن، لكن لدي أسبابي. أنا لن أقول ما يسيء إلى سمعته بل على العكس. تتذكرين كيف حدثتك عن خصاله الجيدة. فكرت في أنه قد يكون منافسًا ممكنًا ولهذا آتي على ذكره. حتى أني قلت إنني أظنه قادرًا على إعالة أسرة لو حظي ببعض المساعدة في البداية. لكنك أنكرت ذلك أشد الإنكار، وأقسمت بأن لا علاقة تربطك به، ومنعتني من الكلام عنه أيضًا. لكني لست مقتنعًا تمامًا أن ما قلته هو الحقيقة، أنت لم تخففي من شكوكي، وأنا أسألك ثانية إذا ما كان هناك شيء بينكما. حينها سأتراجع في الحال. تهزين رأسك. لكن لا يمكنني أن أفهم لمَ ترفضين التفكير في الموضوع حتى الغد وتعطيني جوابًا حينها. هذا فقط سيكون عادلًا في النهاية. وأنت اللطف مجسدًا!».

عند ذلك رضخت. نهضت وقد استحوذت عليها العاطفة، عيناها غارقتان بالدموع، ابتسمت ومسدت شعره كما فعلت مساء الأمس. سيسرها أن تراه في الغد، لكن عليه أن يأتي في وقت مبكر قليلًا،

الساعة الرابعة أو الخامسة، قبل حلول الظلام، حتى لا يعلق أحد. لكن عليه أن يغادر الآن-من الأفضل لو يغادر في الحال. ويمكنه أن يعود غدًا، ستكون في انتظاره.. يا له من مزيج غريب مكون من روح طفل وروح عانس! ملاحظة وحيدة، كلمة وحيدة جعلت قلبها يقفز فرحًا، جعلتها تبتسم وأثارت رقتها. أمسكت بيده إلى أن نهض للمغادرة، ورافقته إلى الباب وهي لا تزال ممسكة بيده. عند العتبة تمنى لها ليلة سعيدة بصوت مرتفع، كأنه يتحدى من قد يكون على مرمى السمع.

توقف المطر تقريبًا. ظهرت هنا وهناك بقعة سماء زرقاء بين الغيوم المنخفضة، وهطلت بعض قطرات مطر أخيرة بشكل متقطع على الأرض المخضلة بالمياه.

تنفس نيجل الصعداء. سيستعيد ثقتها الآن-ولِمَ لا؟ لم يعد إلى الفندق بل توجه إلى أرصفة الميناء، ومشى على طول الشاطئ، عبر بالمنازل عند حدود البلدة، ووصل إلى الطريق المؤدي إلى بيت الكاهن. لم يكن هناك إنسان في أي مكان.

عندما خطا بضع خطوات، انطلق فجأة شخص من جانب الطريق وبدأ يمشي باتجاهه، كانت داجني. ضفيرتها الشقراء معلقة على ظهرها فوق ممطرها. سرى فيه شعور حاد بالانتشاء وكاد يجمد في مكانه لهذا المشهد المدهش. إذن هي لم تذهب إلى السوق هذا المساء- أو ربما كانت فقط تتنزه قبل موعد اللوحة المسرحية؟ مشت ببطء شديد، حتى أنها توقفت لتنظر إلى الطيور التي كانت تستهل حركتها بين الأشجار. هل رأته؟ هل أرادت أن تختبره؟ هل كانت تمشي بتعمد أمامه لترى فيما إذا كان يملك الجرأة على الاقتراب منها؟

لم يكن عليها أن تقلق، لن يزعجها ثانية أبدًا. وفجأة شب في داخله غضب أعمى ضدّ هذه المخلوقة التي كانت تحاول مرة أخرى أن تحثه

على أن يجعل من نفسه أضحوكة، فقط لترضي نفسها بالانتقاص من قدره بعد ذلك. كانت تمامًا قادرة على إخبار الناس في السوق أنه حاول أن يلتقيها ثانية. ألم تكن لتوها عند مارتا تحاول تدمير فرصه هناك أيضًا؟ ألا يمكن أن توقف حملتها لأذيته؟ كانت خارجة لتثأر، لكنها كانت تفرط في ذلك!

كانا يمشيان بتمهل، الواحد خلف الآخر، تفصل بينهما حوالي خمسين خطوة. واصلا على هذا المنوال بضع دقائق. ثم فجأة أوقعت منديلها. رآه يرفرف من ممطرها ويقع على الأرض. هل كانت تعي أنه سقط منها؟

كان مقتنعًا بأنه اختبار من نوع ما. كانت لا تزال غاضبة وحاقدة، أرادت منه أن يلتقط المنديل ويناولها إياه لتحظى بفرصة النظر في وجهه وتشمت لرفض مارتا له. ثارت حفيظته بانفعال شديد. ضغط شفتيه بشدة معًا، وظهرت خطوط كظيمة على جبهته. هذا ما أرادته! أرادت منه أن يقف أمامها، بحيث يمكنها أن تنظر في وجهه وتضحك ضحكتها الهازئة! كان المنديل المزركش الأبيض الأنيق مرميًا هناك في منتصف الطريق، في مقدوره تناوله... مشى مشيته البطيئة نفسها، وعندما وصل إلى المنديل داس عليه وواصل السير.

استمرت اللعبة بضع دقائق أخرى. رآها تنظر فجأة إلى ساعتها. ثم التفتت على عجل وتوجهت نحوه. هل لحظت أنها فقدت منديلها؟ هو أيضًا استدار استدارة كاملة ومشى الهوينى باتجاهها. عندما وصل إلى المنديل داس عليه مجددًا، أمام عينيها تمامًا، وتقدم. أحس أنها كانت خلفه تمامًا، لكنه لم يسرع خطوه. ظلا على هذه الحال حتى وصلا إلى البلدة. لقد كان ظنه في محله، التفتت باتجاه السوق. ذهب مباشرة إلى غرفته.

فتح النافذة وانحنى على عتبتها، محطمًا ومهزومًا. كان غضبه قد تلاشى، انهار ينشج مرتعشًا، اهتز جسده بكامله. إذن هذه هي النهاية! كم ندم عليها-كم تمنى لو لم يحدث شيء من هذا! لقد رمت منديلها، غالبًا عن قصد كي تذله، لكن ما يهم؟ يمكنه أن يلتقطه، ويضعه في جيبه، ويحمله قرب قلبه بقية حياته.

لقد كان ناصع البياض وقد داس عليه في الوحل! ربما لم تكن لتأخذه منه لو أمسكه بين يديه، ربما كانت ستسمح له بالاحتفاظ به! لكن في حال تناولته، كان ليجثو على ركبتيه ويتضرع إليها أن تسمح له بأن يحتفظ به، دليلًا على إحسانها. وهل يهم حقيقة إذا ما ازدرته وسخرت منه مرة أخرى؟ نهض فجأة وقفز على الدرج وخرج إلى الشارع، ركض نحو البلدة، وخلال بضع لحظات كان على الطريق المؤدي إلى بيت الكاهن. ربما لا يزال في وسعه أن يجد المنديل! تخمينه كان في محله، لقد تركته مرميًا هناك، ولو أنه كان واثقًا من أنها رأته يدوس عليه في الأرض في المرة الثانية. كان الحظ إلى جانبه رغم كل شيء!

شكرًا لله! دسه في جيبه، قلبه يخفق بعنف، وركض عائدًا إلى الفندق، غسله بعناية وسوَّاه. كان مهترئًا بعض الشيء، لقد مزق زاوية من زواياه بكعب حذائه. لكن هذا لا يهم. كان سعيدًا جدًا لأنه وجده! عندما جلس ثانية إلى النافذة، أدرك أنه مشى عبر البلدة دون قبعة. لا بد من أنه جن-نعم، كان مجنونًا! لنفترض أنها رأته! أرادت أن تختبره، وثانية جعل من نفسه أضحوكة! عليه أن يضع نهاية عاجلة لهذا، بأفضل ما يكون! كان عليه أن يجبر نفسه على النظر إليها بهدوء، مرفوع الرأس -دون إظهار للعواطف!

قد يبذل جهدًا كبيرًا. قد يغادر البلدة ويأخذ مارتا معه. كانت

مناسبة له تمامًا، لكن سيجعل نفسه جديرًا بهاالا كان الطقس معتدلا يبعث الدفء في كلّ شيء. حملت رياح لطيفة رائحة الأرض والعشب النضر إلى نافذته، وكان لها أثر منعش عليه. غدًا قد يعود إلى مارتا ويناشدها.

لكن في الصباح التالي تحطمت جميع آماله.

الفصل الثامن عشر

وصل الطبيب ستينرسن ولم يكن نيجل قد نهض من النوم بعد. اعتذر عن مجيئه دون سابق علم، لكن هذه السوق اللعينة شغلته ليل نهار. قدم في مهمة، إذ طُلب منه إقناع نيجل بتقديم عرض ثانٍ في السوق الخيرية ذلك المساء. كان عزفه مدار الحديث في البلدة، التي أمضت في عمومها ليلة بلا نوم–ثار فضول الجميع، إنها الحقيقة! «أراك تقرأ الصحف، الوضع السياسي مربك بالتأكيد! هل قرأت عن آخر الاتفاقيات؟ جرت الانتخابات على نحو سيئ، لم يحصل السويديون على ما يستحقونه من توبيخ. تبدو أنك تتأخر في الاستيقاظ، إنها العاشرة. الطقس رائع! عليك أن تخرج للتنزه».

نعم، كان على وشك النهوض.

حسنًا، ما الذي عليه أن يقوله للجنة السوق؟

لا، نيجل لن يعزف.

لن يعزف؟ لكن هذا قد يعني الكثير بالنسبة إلى البلدة. كيف يمكنه أن يرفض إسداء صنيع صغير إلى هذا الحد؟

هو لا يستطيع، هذا كل ما يتوجب عليه قوله.

يا للعار! والجميع مهتمون بالأمر تمامًا! أصرت السيدات الليلة الماضية على عدم عودة الطبيب قبل إنهاء الترتيبات. ألحت الآنسة أندرسن كثيرًا، وانفردت به الآنسة كيلاند راجية إياه أن يلح على

نيجل حتى يعد بأنه سيفعل.

لكن ليس لدى الآنسة كيلاند فكرة عن كيفية عزفه، فهي لم تسمعه أبدًا.

مع ذلك كانت تواقة جدًا، أكثرهنَّ توقًا، لقد عرضت أن تصاحبه! قالت في النهاية: «قل له إننا جميعًا نرجو حضوره».

«هلا عزفت فقط قليلًا لتمتعنا؟».

لا يمكنه، فقط لا يمكنه.

إنها مجرد ذريعة، لقد عزف الخميس ليلًا، ألم يفعل؟

بدأ نيجل يشعر بالإرباك. ماذا لو قال إنه لا يستطيع عزف شيء سوى الألحان البائسة المختلطة التي تعلمها ليحدث تأثيرًا ذلك المساء فقط؟ عدا عن أن عزفه كان نشازًا، إلى درجة تجعله لا يطيق الاستماع إلى نفسه!

«نعم، لكن...».

«دكتور ستينرسن، لن أفعل ذلك!».

«لكن إذا لم يكن الليلة، ماذا عن ليلة الغد؟ إنه السبت، اليوم الأخير، ونحن نتوقع قدوم عدد كبير من الناس».

«لا، أرجوك اعذرني، لن أعزف غدًا أيضًا. أشعر بأني كالأبله حتى بمجرد لمسي كمانًا عندما أعزف بهذا السوء. قد أظن بأنك أكثر مني براعة في الموسيقى!».

كان لهذه المناشدة أثرها.

«نعم،» قال، «لحظت بأنك كنت تخرج قليلًا عن اللحن أحيانًا، لكن ماذا يهم في هذا؟ نحن لسنا جميعًا خبراء».

لكن كان على الطبيب أن يستسلم ويغادر.

بدأ نيجل يرتدي ثيابه. إذن كانت لداجني يد في هذا-حتى أنها عرضت أن تصاحبه! هل كان فخًا آخر؟ بعد فشل أحبولتها الليلة الماضية، كانت تحاول أن تنتقم بهذه الطريقة. ربما كان يسيء الحكم عليها في النهاية، ربما هي لا تكرهه البتة، وستكف عن مضايقته! ترجاها في قلبه أن تسامحه على سوء ظنه بها. نظر إلى الساحة، كانت السماء صافية والشمس مشرقة. بدأ يتمتم لنفسه.

وهو في طريقه إلى الطابق السفلي سلمته سارة رسالة. لم تصل عن طريق البريد، بل أتى بها مرسال. كانت الرسالة من مارتا وتتألف من بضعة أسطر ليس إلا: لا ينبغي عليه المجيء هذا المساء، وليس عليه أن يأتي أبدًا. لن تطيق رؤيته ثانية. وداعًا. أضافت في حاشية: «لن أنساك أبدًا.» كانت هذه الكلمات القليلة مفعمة بالحزن، حتى أن حروف الكتابة بدت سوداوية ومثيرة للشفقة.

جلس في كرسي منهارًا. كان قد بلغ الحضيض. حتى ذلك الباب أغلق دونه! كم غريب أن يتآمر عليه جميع الأشخاص والأشياء! لم يكن يومًا في حياته أكثر صراحة وصدقًا! وأخفق ثانية! جلس هناك ذاهلًا لعدة دقائق.

نظر فجأة إلى الساعة: كانت الحادية عشرة. قفز من كرسيه. ربما إذا ذهب في الحال يمكنه أن يلحق بمارتا قبل أن تغادر. توجه من فوره إلى كوخها، لكن عندما وصل إلى هناك كان مقفلًا، استرق النظر من النوافذ، وكانت الغرفتان فارغتين. فانقلب مندهشًا على عقبيه إلى الفندق، غير عارف بوجهته، ولم يرفع عينيه عن الأرض.

كيف أمكنها أن تفعل هذا به! كيف استطاعت! على الأقل كان في وسعها السماح له بأن يودّعها ويتمنى لها السعادة أنى كانت ذاهبة. كان ليرغب في أن يجثو على ركبتيه أمامها، كانت طيبة ونقية جدًا.

ولقد أنكرت عليه ذلك! حسنًا، الآن انتهى كل شيء.

عندما التقى بسارة في القاعة، علم أن مرسالًا أتى بالرسالة من بيت الكاهن. إذن كانت داجني وراء هذا أيضًا! لقد خططت للأمر برمته، ودرست بعناية كل تفصيل، وأسرعت بالتنفيذ.

لا، لن تسامحه أبدًا!

طوال النهار، ذرع الشوارع، والغابة، وغرفته، لم يتوقف لحظة واحدة. سار مطرق الرأس بعينين مفتوحتين غير مبصرتين.

أمضى اليوم التالي على نفس المنوال. كان يوم الأحد.

قدمت حشود الناس من الريف لحضور السوق الخيرية ومشاهدة عرض اللوحة المسرحية الأخير.

ثانية، ضُغط على نيجل كي يعزف مقطوعة واحدة فقط. جاء الطلب هذه المرة من عضو آخر من أعضاء اللجنة، القنصل أندرسن، والد فريدريكه، لكنه رفض ثانية. تجول على مدى أربعة أيام مثل رجل ملعون، منكفئ على نفسه، تكاد لا تربطه صلة بالواقع، وتستحوذ عليه كليًا فكرة وحيدة مُلحّة. نزل عدة مرات في اليوم إلى منزل مارتا ليرى ما إذا قد عادت. لكن حتى لو وجدها، ما النفع من ذلك؟ كان كل شيء ضائعًا وبائسًا.

كاد يصطدم ذات مساء بداجني. كانت تغادر متجرًا، على مقربة شديدة منه وكادت تمس مرفقه. تحركت شفتاها كأنها على وشك أن تقول شيئًا، لكن فجأة توردت ولم تنبس بكلمة. ولما كان مرتبكًا لم ينتبه إليها في البدء، وحدّق إليها للحظة قبل أن يلتفت فجأة ويبتعد. تبعته، استطاع أن يسمع صوت خطواتها فقد كانت تسرع الخطو، وأحس بأنها تسعى للحاق به. حاول أن يبتعد عنها ويختفي. كان خائفًا منها. ليس خفيًا أنها ستستغل كل فرصة كي تجعل حياته بائسة. أخيرًا هرب إلى

الفندق وانطلق مذعورًا بسرعة إلى غرفته. شكرًا لله، كان في مأمن!

هذا حدث يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر تموز.

في صباح اليوم التالي بدا أنه اتخذ قرارًا ما. خضع وجهه في الأيام القليلة الماضية لتغير تام. كان صلبًا وشاحبًا وكانت عيناه كئيبتين. غالبًا ما ينزل إلى الشارع دون أن يدرك أنه نسي قبعته. ثم يقول لنفسه وهو يشد قبضتيه: لا بد من وضع حد لهذا!

عندما نهض صباح يوم الأربعاء، كان أول ما فعله هو تفحص القارورة في جيب صداره، هزها، شمها، وأعادها مجددًا. كالعادة، بينما كان يرتدي ملابسه، تملكته سلسلة لا نهائية من الأفكار المشوشة، مجتاحة عقله المضطرب بجنون لا يهدأ. كان خائر القوى، في حالة من هياج بالغ، حتى أنه كان يصعب عليه كبح دموعه. عدد لا يحصى من الأفكار استحوذ عليه.

شكرًا لله، لا يزال يملك القارورة! كان السائل صافيًا صفاء الماء تفوح منه رائحة اللوز. ربما سيحتاجه في النهاية، وقريبًا جدًا، إذا لم يكن من حل آخر.

هذا ما سيكون-ولمَ لا؟ وأي أحلام لديه بتحقيق شيء في هذا العالم-شيء ذي معنى قد يلفت انتباه جميع اللواحم! لكن كل شيء انتهى إلى الفشل، أسقط في يده. لمَ عليه ألا يستعمل تلك القارورة-كل ما عليه فعله هو أن يبتلعها، دون أن يكشر كثيرًا! حسنًا، سيفعل عندما يحين الوقت وتدق الساعة.

وستكون الغلبة لداجني...

يا لها من قوة تسلحت بها تلك الفتاة، ولو أن شيئًا لم يكن لافتًا فيها أو استثنائيًا -إلا إذا أخذت بالحسبان ضفيرتها الطويلة ورجاحة عقلها! لقد نظر بعين العطف إلى الرجل المسكين الذي لم يستطع

العيش دونها، الرجل صاحب السكين والـ«لا» الأخيرة. لقد استسلم- ما الذي كان في وسعه أن يفعل؟ كم ستبرق عيناها المخمليتان عندما أسلك نفس الطريق! لكن أحبك لخبثك أيضًا، ليس فقط من أجل فضائلك، وعلى الرغم من أنك تعذبينني حدّ الانهيار بتكبرك. يبدو أنك لا تطيقين احتمال حقيقة امتلاكي أكثر من عين واحدة. فكان لا بدّ أن تفقئي الأخرى-خذيهما. لن تسمحي لي بأن أسير في الشارع بسلام، تضنّين عليَّ بسقف يظلّلني. لقد تدبرت أمر إبعاد مارتا عني، وأحبك مع ذلك. تعرفين ذلك، ويثير ضحكك، لكني أحبك من أجل هذا أيضًا. ضحكك الهازئ! هل يمكن طلب المزيد؟ أليس هذا كافيًا؟ يداك النحيلتان البيضاوان، صوتك، شعرك الأشقر، كل نفس من أنفاسك، روحك-أحب كل ما فيك كما لم أحب شيئًا من قبل. لا يمكنني إلا أن أحبك، إنه أمر يفوق قدرتي -ارحمني يا الله! قد تحتقرينني وتسخرين مني، لكن داجني ما الذي يهم؟ أحبك! أعرف أنه لا يهم. يمكنك فعل ما تودينه بي، وستظلين محبوبة وجميلة، أعترف عن طيب خاطر. لقد خيبت ظنك نوعًا ما. أنا فاسد تمامًا في نظرك-تظنين أني قادر على فعل أي شيء. لو كانت هناك وسائل أستطيع من خلالها أن أطيل قامتي لما ترددت. كل ما قلته أقبله من صميم قلبي، ينبع حبي من داخلي وأنت تقولينه. حتى عندما ترمقينني بنظرة مريرة أو تديرين ظهرك لي دون أن تقولي شيئًا أو حين تحاولين أن تتخطيني في الشارع لتذليني، فإنّ قلبي ما ينفكّ ينشد حبّك. أنا لا أحاول تضليلك أو تضليل نفسي، وحتى لو ضحكت مجددًا لا يهم. لا شيء بوسعه أن يغير مشاعري نحوك. لو وجدت ذات يوم ماسة سأسميها داجني، لأن وقع اسمك يهزني. أنا لا أتمنى شيئًا سوى أن أسمع اسمك إلى الأبد، منطوقًا من قبل جميع البشر والبهائم، كل جبل وكل نجمة. أتمنى

لو كنت أصمَّ لا أسمع صوتًا سوى اسمك يرن في أذني ليل نهار لبقية أيام عمري. أود أن أطرح قسمًا جديدًا يتضرع لاسمك-قسمًا سيقسم به كل إنسان على هذه البسيطة. إذا كان هذا كفر يلومني الله عليه سأقول: «أدرجه في سجل حساباتي، سأدفع روحي ثمنًا له عندما يحين الوقت، عندما تدق ساعتي...». يا لسخرية كل شيء! دربي مسدودة أنى توجهت، ولم يتغير شيء، أنا كسابق عهدي جسديًا وعقليًا. نفس الفرص متاحة لي، جهدي لم يتغير. لمَ إذن أصاب بخيبة عند كل مناسبة؟ هل هو خطئي؟ لو أعرف فقط ما الذي فعلته لأستحق هذا! في حوزتي جميع قدراتي. ليس لي عادات سيئة، ليس من رذيلة واحدة، ويقظ بطبيعتي. لم تتغير أفكاري أو مشاعري، أتحكم بحياتي كما كنت دومًا، كما لم تتغير المعايير التي أحكم بها على الناس. لقد صادقت مارتا، أعرف أنها خلاصي، إنها ملاكي المنقذ. روح نقية. في البدء خافت مني، لكننا خلصنا إلى التفاهم في انسجام تام. بدأت أتطلع إلى حياة من سعادة وسلام، وإلى عزلة لأعيش معها وحدها في كوخ قرب نبع، نتجول في الغابة-هي ترتدي تنورة قصيرة، وأنا أنتعل حذاء ذا أسيرة-الحياة التي تتوق إليها طبيعتها الحساسة واللطيفة تمامًا. ما المشكلة في ذلك؟ محمد صعد إلى الجبل. ومارتا بجانبي. تملأ أيامي بالطيبة ولياليّ بالراحة، وعين الله ترعانا. لكن الآن العالم يتحطم علينا، العالم مصعوق، يرى في أنشودتنا جنونًا. يزعم العالم أنه ما من رجل عاقل أو امرأة سيختاران مثل هذه الطريقة في الحياة-لذلك هي جنون. وحيدًا أواجهه وأقول إنه لا شيء قد يكون أكثر عقلانية أو أكثر صدقًا! ما الذي يعرفه الناس عن الحياة؟ نصطف في طابور، ونسير على خطى أسلافنا. كل شيء مؤسس على فرضيات، حتى الوقت، المكان، الحركة، لا شيء سوى فرضيات. ليس

لدى العالم معرفة جديدة يكشف عنها، هو يقبل وحسب بما هو قائم.

متوقفًا في وسط الغرفة، وضع نيجل يديه على عينيه وحرك رأسه من جانب إلى آخر كما لو أنه يشعر بالدوار. ما الذي كنت أفكر فيه؟ أوه نعم، إنها خائفة مني، لكن هناك تفاهم بيننا، وأعرف من أعماقي بأني سأكون طيبًا معها. أود أن أهرب من العالم، أعيد الخاتم. لقد تعثرت هنا وهناك كالأحمق بين الحمقى، لقد ارتكبت أفعالًا بلهاء. وعزفت على الكمان وتلقيت تصفيقًا صاخبًا أيضًا. مهللًا لي من قبل آكلي اللحوم-يا له من انتصار رخيص، وكم يثير قرفي! أنا لم أعد أنافس عامل برقيات من كابيلفاج. أنا أقفز إلى وادي السلام، وسأصبح المخلوق الأكثر سلمًا في الغابة. سأعبد إلهي وأدندن بألحان فرحة، سأصبح خرافيًا، أحلّق فقط عندما يعلو المد، وأصغي لأصوات الطيور قبل أن أبذر بذاري. وعندما أضجر من العمل، ستقف زوجتي في العتبة ملوحة لي وسأباركها، ممتنًا جدًا لابتسامتها الجميلة. مارتا، كنا قريبين جدًا، ألم نكن؟ وكان وعدك باتًا جدًا! لقد وافقتني تمامًا عندما شرحت كل شيء. ثم استحال كل شيء إلى غبار. اختطفت على حين غرة ونقلت بعيدًا، وهذا ليس دمارًا لك بل لي أنا... داجني، أنا لا أحبك. لقد أعقت كل حركة من تحركاتي. لا أحب اسمك، إنه يثير اضطرابي. لقد حرَّفته، أناديك دانجني، وأمد لك لساني. اسمعيني، بحق المسيح! سآتي إليك ميتًا عندما تدقّ الساعة. سأظهر أمامك على الجدار مثل الشاب في ورق اللعب، أطاردك كهيكل عظمي، أرقص حولك بساق واحدة، وأشل ذراعيك بقبضتي. سأفعل ذلك-سترين! ليحمني الله منك الآن وإلى الأبد! أصلي بلهفة ليأخذك الشيطان... لكني أسأل نفسي للمرة الأخيرة: ما الفائدة من ذلك؟ سأظل أحبك، سأحبك دومًا، داجني-أنت تعرفين ذلك، وتعرفين أني نادم على كل

كلمة مريرة. ما الفائدة من كل شيء؟ وعلاوة على ذلك فلا أحد يعلم، وربما يكون هذا أفضل؟ لو قلت ذلك، فسيكون. تجوالي في نهايته. لكن لنفترض أنك أردتني-وأنك تخليت عن الآخرين وربطت نفسك بي-شيء لا أستحقه، لكن لنفترض للحظة-ما الذي سيفضي إليه؟ ربما سيكون هدفك مساعدتي على فعل أشياء عظيمة، وإنجاز شيء في العالم. أشعر بالعار عندما أفكر في ذلك، أنا مهان تمامًا. قد أفعل ما تتمنين لأنني أحبك، لكنّ هذا الحبّ قد يدمّر روحي... ما الفائدة من كل هذه التخمينات، ومن وضع فرضيات تخيلية؟ لن تنفصلي يومًا عن العالم، ولن تقبلي بي أبدًا. قولي لا، شكرًا لك، ازدريني، واسخري مني-لمَ عليَّ حينها أن أهتم لأمرك؟

توقف قصير.

بعد وقفة قصيرة، واصل بحماس: الآن سأشرب هذا الماء ويمكنك أن تذهبي من فورك إلى الجحيم! ستكونين حمقاء ومغرورة لو خيل إليك بأني أحبك، وبأن فكرة حبك قد تخامرني، الآن مع دنو النهاية، أعاف حياتك البرجوازية-الزائفة، المرتبة، الفارغة. أعافها بشدة وأشعر عندما أفكر فيك بالغضب ينمو بداخلي مثل غضب الروح القدس. ما كنت لتفعلي معي؟ سأراهن بأي شيء على أنك كنت ستجعلين مني رجلًا عظيمًا لأطوف متفاخرًا على الواعظين. قلبي ينزف بالعار على رجالك العظماء.. رجل عظيم بحق! كم عددهم في العالم؟ أولًا، هناك رجال النرويج العظماء-الأكثر عظمة. ثم هناك الأضواء الموجهة إلى فرنسا، بلاد هيجو والشعراء. وشخص ينبثق بين الحين والآخر في عالم بارنوم[1]. حاول جميع هؤلاء العباقرة أن

(1) فينيس تايلور بارنوم (1810-1891) استعراضي ورجل أعمال أميركي يذكر عنه ترويجه للخدع الشهيرة وتأسيسه لسيرك بارنوم وبيلي.

يحافظوا على توازنهم في الأرض التي إذا ما قورنت بالشعرى اليمانية[1] لن تكون أكبر من مؤخرة قملة. لكن الرجل العظيم يفعل أشياء على نطاق واسع! لا يعيش في باريس وحسب، بل يحتل باريس. يظهر الرجل العظيم كبيرًا جدًا بحيث يمكنه النظر إلى قمة رأسه. طلب لافوازييه[2] تأجيل تنفيذ إعدامه حتى يكمل تجربته الكيميائية. «لا تدوسوا على أوانيَّ،» قال. يا للمهزلة! حتى إقليدس ببديهياته لم يسهم بأكثر من قصاصة في مفهوم العلم الأساسي! يا لضآلة ما حققناه، وكيف جعلنا من أرض الله قالبًا بائسًا، قالبًا بائسًا ومحدودًا! وها نحن نمضي في خلق رجال عظماء من الحرفيين الذي حدث أنهم طوروا مصادفة أدوات كهربائية أو كانت عضلاتهم قوية ليلفوا السويد على دراجة هوائية! ونحث رجالًا عظماء على تأليف كتب تبعث على تقديس رجال عظماء آخرين! إنه فعلًا أمر مسل للغاية، ويستحق تقبله! سينتهي الأمر بأن يكون لكل قرية رجلها العظيم-محام، روائي، ومستكشف للقطب-رفيع المنزلة! وسيصبح العالم سطحًا رائعًا وبسيطًا من السهل تَسيُّده... داجني، الآن دوري في أن أقول لك لا، أنا أضحك عليك، أهزأ بك، إذن لمَ لا تتركيني؟ لن أنضم أبدًا إلى رتبة العظماء... لكن إذا كان من حولنا فائض في عدد العباقرة ممن هم على درجات متباينة من العظمة، ماذا في ذلك؟ هل من المفترض أن أتأثر؟ كلما كان هناك المزيد منهم زاد الأمر سوءًا. هل عليَّ أن أتبع وصايا عالم لا يتغير أبدًا، عالم ينحني أمام الماضي ويقبله قبولًا أعمى، عالم هلع مما خلقه ويمشي على أعقاب رجاله العظماء هاتفًا هتاف الاستحسان؟ وتودين مني الانضمام إلى الحزمة. يا للمهزلة! يمشي عبقري مزعوم

---

(1) أسطع النجوم في السماء ليلًا ورابع ألمع جرم في السماء بعد الشمس والقمر وكوكب الزهرة.

(2) أنطوان لافوازييه: عالم فرنسي.

في الشارع ومواطن يدفع الآخر بمرفقه في أضلاعه ويقول: هناك كذا وكذا رجل عظيم! يذهب إلى المسرح وتقرص معلمة فخذ الآخر الذي يفتقر إلى الإثارة وتهمس: ها هو في تلك الحجرة! والرجل العظيم بنفسه؟ عجبًا، بالتأكيد، يستمتع بكل لحظة. هؤلاء الناس على حق في النهاية، ويقبل عناقاتهم باعتباره واجبًا. لا يتجاهل تملقهم، ولا يتورد. لمَ عليه أن يفعل ذلك؟ إنه رجل عظيم في نهاية الأمر! لكن الشاب أوين قد يعترض. هو سيصبح رجلًا عظيمًا. إنه يعمل على رواية خلال عطلة هذا الصيف. سيتحداني: أنا متناقض، هلا شرحت من فضلك؟ وسأعمد إلى الشرح. لكن شرحي لن يرضيه وسيستمر في طرح الأسئلة عليَّ: «إذن، في رأيك، ليس هناك رجال عظماء؟» سيواصل استجوابي غير قادر على استيعاب ما أقوله. وثانية سأحاول أن أشرح. لقد وصلت إلى فحوى الأمور فأجيبه: «على العكس، هناك حشد من العظماء، هل تسمع؟ حشد من العظماء! لكن ليس هناك كثر من الأكثر عظمة. هذه هي الفكرة. سيأتي يوم تنتج فيه كل قرية عظيمها، لكن الأكثر عظمة هو من قد نراه مرة واحدة كل ألف عام. إن مفهوم العالم عن العظيم هو ببساطة أنه شخص موهوب، يتفوق في شيء ما، يا إلهي، العبقرية مفهوم ديمقراطي! سينتج عدد من أرطال لحم البقر يومًا عبقريًا في الجيل الثالث، الرابع، الخامس، العاشر. العبقري بالمعنى الشعبي أصبح شائعًا. تخيل أنك في مرصد ذات ليلة صافية تنظر من خلال التلسكوب إلى الجوزاء. ثم يقول فيرنلي[1] الفلكي ليلة سعيدة. تلتفت، فينحني فيرنلي انحناءة كبيرة. دخل رجل عظيم للتو، العبقري، السيد من حجرة المسرح. ألا تبتسم حينها لنفسك وتعود لتركز انتباهك على الجوزاء؟ عشت هذه التجربة

---

(1) كارل فريدريك فرنلي: فلكي نرويجي.

مرة. هل تفهم ما أحاول قوله؟ عدا عن الإعجاب برجال عظماء من أنصاف المواهب، يدفع السابلة بمرافقهم رعبًا، أنا أعظّم العباقرة الشبان المجهولين، من يموتون في ريعان شبابهم، أرواحهم كسيرة وضعيفة، سُرج الليل الفوسفورية، التي على المرء أن يبصرها ليعرف بحقيقة وجودها. هذا ما أشعر به. ما أحاول قوله هو: إن علينا أن نميز الأعظم من العظيم فحسب، لذا نميّزهم فلا يغرقون في بروليتاريا من العباقرة. أريد أن أرى ذا العقل المتفوق في مكانه المناسب، أتخلص منه بحذر، بحق الله، لنتخلص من عباقرة القرية! علينا أن نعثر على ما سمّوه مثال الكمال».

وسيجيب أوين على ذلك: «أوه! نعم، أعرفه. لكن هذه مجرد نظرية، حدس».

لا يمكنني قبول أنها مجرد نظرية. ليساعدني الله، لكن طريقتي في النظر إلى الأشياء مختلفة جذريًا عن طريقة أي شخص آخر. هل هذا خطئي؟ هل أنا الملام شخصيًا؟ أنا غريب، دخيل على هذا العالم، تجلٍّ عنيد لله، سمني ما شئت... تابع بعنف متصاعد: أنا أخبركم جميعًا، لا أهتم للاسم الذي تطلقونه عليَّ، أنا لن أستسلم أبدًا، أبدًا! أصر على أسناني وأقسّي قلبي لأني محق. سأقف وحيدًا ضد العالم ولن ألين! طالما أني أعرف بأني محق، فهذه هي الطريق الوحيدة التي بوسعي أن أسلكها. يمكنني في لحظات معينة أن أحس بالعلاقة التي تربط جميع ما في الكون. نسيت أن أقول إنني أرفض رفضًا تامًا الاستسلام، وإنني سأستخف بقبولكم الأعمى للعظيم. يدَّعي أوين بأن رأيي مجرد رأي نظري. ممتاز، إذا كان كذلك، سأرميه وآتي بآخر أفضل منه. لا شيء يمكنه أن يوقفني. أنا مقتنع بأني أستطيع قول شيء أكثر أهمية لأنه لا يوجد في قلبي سوى الطهر.

أحتقر العظيم في حجرة المسرح وأستخف به. إنه مهرج وأحمق وليس عندي سوى الاحتقار لصدره المنتفخ وأذنيه المتشامختين. هل عمل الرجل العظيم للحصول على عبقريته؟ ألم تولد معه؟ لمَ نغدق عليه الثناء إذن؟ يعلق الشاب أوين: «لكنك بنفسك تتمنى أن ترى مثالًا عند أعلى القمم، أنت تعترف بأن ذا العقل المتفوّق لم ينجز عبقريته من خلال الكفاح». إذن أوين يظن بأنه وجد مأخذًا على حجتي! حسنًا، هذا ما يراه. لكن سأعود إليه، لأن حس العدالة المقدسة يملؤني. لا أعترف بالتفوق. بل قد أدهك مثاله النبيل وأمحوه عن وجه الأرض. يعجب المرء بالعقل المتفوق لإنجازه، لكشفه عن العبقرية، كما لو أن هذه العبقرية منتج المتفوق-كما لو أنها لا تنتمي إلى الإنسانية جمعاء ولم تكن حرفيًا جزءًا من مادة! الحقيقة هي أن المتفوّق تشرّب مصادفة حصّة جد أبيه، جده، أبيه، وحتى أبنائه، وأحفاده، وأحفاد أبنائه في العبقرية-وهكذا يستنزفون شجرة العائلة على مدى قرون-لا يمكن أن يلام المتفوق على هذا. اكتشف العبقرية في نفسه، وأدرك غرضها، ووضعها موضع التنفيذ. نظرية؟ بالتأكيد لا. تذكر أنها تصدر مباشرة عن قلبي. لكن إذا كان هذا أيضًا نظرية، سأجهد دماغي للتوصل إلى جواب آخر وإلى معارضة ثالثة، رابعة، خامسة، أفضل ما في وسعي من استحضار لكني لن أستسلم! لن يسمح أوين بأن يهزم أيضًا. يضع العالم برمته خلفه ويقول: «إذن هذا لا يدع لك شيئًا تتطلع إليه، ما من عظيم ولا عبقري!». زاد جوابي من انزعاجه لأن في نيته أن يصبح عظيمًا. حجمتُه ثانية بقولي: «لا، أنا لا أعترف بالعبقري. لكني أعترف بقيمة إنجازاته في العالم، والمتفوق هو فقط الآلة التي تمر من خلالها. العظيم، هو فقط المخرز البائس الذي تثقب به الثقوب، إذا جاز القول. هل تقبل بذلك؟ هل تفهم ما أعنيه؟». هتف فجأة، بيدين

مبسوطتين: «الآن فقط أملك رؤية للخلود، الطريقة التي ترتبط بها الأشياء جميعها! يا له من كشف رائع! كل شيء في مكانه هذه اللحظة، تمامًا في مكانه! تم تفسير كل شيء، ورأيت ومضة المعرفة الخالدة. لقد كانت مشعة، ومجيدة!».

توقف قصير.

«حسنًا، أنا هنا غريب بين رفاقي، وقريبًا ستدق الساعة! لكن ما الذي يربطني بالعظيم بأية حال؟ لا شيء البتة، سوى أني أجد في العظمة مهزلة-كلها زيف وخداع. لكن من ناحية ثانية أليس هذا كل شيء؟ كامًّا والقزم، الناس عمومًا، الحب، الحياة، -كل شيء خديعة. كل ما أراه وأسمعه وأحسه وهم، حتى زرقة السماء هي غاز الأوزون، سمّ يرشح علينا... وعندما تكون السماء صافية وزرقاء حقيقة، أبحر بروية هناك، جاعلًا مركبي ينزلق عبر الأوزون الأزرق الخادع. المركب مصنوع من خشب له رائحة رائعة، والشراع... حتى داجني قالت إنها صورة جميلة. داجني لقد قلت ذلك، وأنا أشكرك. لقد جعلتني سعيدًا هائمًا. أتذكر كل كلمة. أفكر فيها وأنا سائر في الطريق. لن أنساها أبدًا. وعندما تدق الساعة، ستحرزين نصرك! لن أطاردك بعدها. لن أتعقبك متجسدًا على الجدار أيضًا. سامحيني، قلت ذلك لأني رغبت في الانتقام. لا، سألوح لك بأجنحة بيضاء وأنت نائمة، وعندما تستيقظين، أتبعك وأهمس بكلمات جميلة في أذنك. ربما تبتسمين لي. وإذا لم أمنح أجنحة بيضاء-إذا لم يصدف أن كانا ناصعي البياض-سأطلب من ملاك من ملائكة الله أن يفعل هذا من أجلي. لن أقترب منك، سأختفي في زاوية لأرى إذا ما كنت تبتسمين له. أرغب في أن أفعل هذا لأكفّر-إذا كان ممكنًا-عن بعض الأشياء السيئة التي ارتكبتها بحقك. حسبُ الفكرة أن تجعلني سعيدًا،

ولا يمكنني الانتظار. ربما يمكنني أن أمنحك السعادة بسبل أخرى تفوق الوصف. سأود أن أغنّي فوق رأسك صباح الأحد وأنت ذاهبة إلى الكنيسة، وسأطلب من الملاك أن يفعل هذا من أجلي أيضًا. وإذا لم أستطع إقناعه، سأجثو بنفسي أمامه وأتضرع إليه بتذلل فلا يمكنه رفض استعطافي. سأقدم له أي شيء بالمقابل. سأفعل كل ما يمكن فعله من أجله إذا ما أسدى لي هذا الصنيع. أنا واثق من أني أستطيع ترتيب الأمر بسرعة، لا يمكنني الانتظار! أنا متحمس للفكرة. «فكر فقط في اليوم الذي يتلاشى فيه الضباب كله، ...».[1]

في حالة مجيدة، هرع إلى الأسفل ودخل غرفة الطعام مواصلًا الغناء. لكن حادثة صغيرة أخمدت روحه ورمته في مزاج سوداوي استمر عدة ساعات. على الرغم من أنه لم يكن وحيدًا واصل الغناء وهو يقف إلى الطاولة يزدرد فطوره بسرعة. عندما رأى أن نزيلين آخرين أبديا انزعاجًا، اعتذر سريعًا: لو انتبه إليهما من قبل لكان أكثر هدوءًا. هو هذه الأيام في غفلة عن كل شيء! ألم يكن صباحًا مجيدًا؟ كان الذباب يئز.

لكن لم يحظ بإجابة على ملاحظاته. بدا الغريبان متمنعين كالسابق وواصلا حديثهما السياسي. هبطت معنويات نيجل. لم يقل المزيد وغادر بهدوء غرفة الطعام. نزل الشارع للحصول على السيجار ثم توجه كالعادة إلى الغابة. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف.

الناس جميعًا متشابهون، أليسوا كذلك! هناك جلسوا، هؤلاء المحامون، البائعون، المالكون، أو كائنًا من كانوا، يتحدثون بالسياسة، مبدين حنقهم وتجهمهم فقط لأنه كان يدندن بمرح. مضغوا فطورهم بمهابة، رافضين أن يتم إبعادهم عن الموضوع. لكل منهما كرش

(1) ترنيمة من تأليف فيلهيلم أندرياس ويكسلز وهو مؤلف ترانيم نرويجي.

وأصابع سمينة، كان منديلاهما مثنيين تحت ذقنيهما. ينبغي عليه أن يعود إلى الفندق ويستهزئ بهما قليلًا. من يظنان نفسيهما بأية حال؟ ربما تجار حبوب، تجار جلود أميركية، أو ربما الخزف العادي. هل كانا مهمين؟ ومع ذلك، بنظرة واحدة استطاعا أن يخفضا معنوياته العالية! لم يكن أيٌّ منهما على شيء من الروعة. أحدهما لم يكن بالغ السوء، لكن الآخر-تاجر الجلود-كان فمه ملويًا مفتوحًا إلى جانب واحدٍ من وجهه، فبدا مثل عروة. وكان شعر رمادي كثيف ينمو في أذنيه. يا إلهي، كان منظرًا قبيحًا! لكن لا يبدو أن المرح مسموح عندما يضع هذان الرجلان أنفيهما في المزود. نعم، كانوا جميعًا متشابهين. السادة يتحدثون بالسياسة، يعلقون على آخر المواعيد الرسمية. شكرًا لله، نجا بوسكيرود من قبضات المحافظين! أوه، يا لها من نظرة على وجوه هؤلاء المالكين وهم يتحدثون! كما لو أن السياسة النرويجية كانت شيئًا سوى ثرثرة ولغو قروي! أنا، أولا أولسن[1]، أقيم في ليستا؟ سأصوت مقابل مكافأة لا تتعدى 175 كرونًا، لأرملة في نوردلاند، بشرط أن أحصل على مبلغ 300 كرون لشق طريق في منطقة فيير، إقليم ريفيلكه. هذا ما تسميه مساومة صعبة! لكن بحق السماء لا تصدر أصواتًا مرحة فقد ينزعج أولا وهو يؤدي واجباته البرلمانية! قد تعيش لتندم على ذلك! صمت! أولا يفكر، أولا يزن المسائل. ما الذي يدور في رأسه؟ أي خطوة سياسية سيقترحها غدًا؟ إنه رجل ذو امتياز في عالم النرويج البالغ الصغر، اختير من قبل الشعب ليتحدث عن سياسته في المهزلة الوطنية، يضع وسامًا وطنيًا مقدسًا، ينفث غليونه ذا الساق القصيرة، ياقته المغبرة مبللة بعرق المسعى

---

(1) أولا هو لقب لأي شخص نرويجي. ليستا هي بلدة ساحلية نرويجية تقع غرب إقليم Agder وليس في ريفيلكه.

الصادق. ابتعد عن الطريق، عليك اللعنة، تنحَّ جانبًا لممثل الشعب- امنحه متسعًا! عندما يتعلق الأمر بهذا، أليست دومًا الأصفار السمينة الضخمة هي التي تحدث فرقًا في المجموع؟ إلى الجحيم بأصفاركم. توقف قصير. لقد اشمأززت للغاية من زيف كل شيء، ولا يمكنك أن تحتمله بعد الآن. اذهب إلى الغابة واستلق تحت سماء مكشوفة، حيث يوجد مكان فسيح لأجل هؤلاء الغرباء بين البشر وللطيور في تحليقها. وتجد سريرًا في بقعة رطبة، تستلقي على بطنك فوق أرض مستنقعية وتستمع بتبللك. وادفن رأسك في القصب والأوراق المبتلة والأشياء التي تدب وسحلية صغيرة ناعمة تزحف على ثيابك ووجهك وتنظر إليك بعينيها الخضراوين المخمليتين، أنت محاط بالحفيف اللطيف للريح والأشجار، في حين يجلس الله في عليائه وينظر إليك-أنت، الأكثر تركيزًا من بين جميع أفكاره الثابتة! تبدأ معنوياتك بالتحليق وتشعر بفرح غريب وحشي لم يسبق أن شعرت به من قبل. ابلغ أقصى حدود الجنون-تسلق صوابًا وخطأ، اقلب العالم رأسًا على عقب، أنت مبتهج كما لو كنت قد فعلت المكرمة النبيلة. ولمَ لا؟ لقد انصعت لقدرات تفوقك، انصعت لها واستسلمت للنزوة، بانغماس وحشي في اللذة. كل ما شتمته سابقًا، أنت الآن في توق لا يقاوم إلى تمجيده. أنت تبتهج لفكرة فرض سلام كوني، قد تود أن تشكل لجنة لتطوير حذاء سعاة البريد، ستكتب ذلك باختصار لبونتوس ويكنر[1] وتلقي على عاتقك أمر الدفاع عن الله والكون. إلى الجحيم بفكرة ترابط كل شيء، هذا لم يعد يهمك. أنت تطلق صيحات الازدراء والسخرية وهذا منتهاه. مرحبا، مرحبا يا عزيزتي، الشمس تسطع هنا! أطلق نفسك، دوزن قيثارك وغنِّ المزامير كما لم تغنَّ من قبل! بعد ذلك دع نفسك تعوم

(1) كارل بونتوس ويكنر (1837-1888): محاضر سويدي شهير في الفلسفة.

ببطء على الرياح والأمواج، لتصير فريسة لتيارات بلهاء من الأفكار. دع العقل ينساق، يبدو جيدًا جدًا أن تستسلم، أن تكف عن الكفاح. وفيم الكفاح؟ أليس واجبًا السماح للجوال الذي توقف عن التجوال أن ينفق لحظاته الأخيرة كما يشاء؟ نعم أم لا؟

توقف قصير.

وافعل ما تقوله لك روحك.

هناك شيء يمكنك فعله مع ذلك، يمكنك أن تدعم الإرساليات الإنجيلية، الفن الياباني، وسكك هالينجدال الحديدية[1] -أي شيء، طالما أنك تساعد مشروعًا ليبدأ. تفكر بحزن في ج. هانسن، الخياط ذي السمعة الطيبة في البلدة الذي طلبت منه مرة معطفًا للقزم، إنه مواطن جيد وإنسان ممتاز، بدأت تحترمه وانتهيت إلى محبته. لماذا؟ إنه تهور، هل هو جموح أو ربما تنصاع لعاطفة متحفظة نابعة من تأثيرات غريبة؟ تهمس بعبارات الإطراء في أذنه، تتمنى له الثروة والنجاح في كلّ كبيرة وصغيرة، وعندما تغادره تدس وسام منقذ الغرقى في يده. لمَ لا طالما أنك انصعت إلى هذه القوى الغامضة؟ لكنك لم تصل إلى حد يجعلك تندم على قولك ما يفتقر إلى الاحترام ذات مرة عن البرلمان-أولا. الآن أنت حقيقة تستسلم إلى جنون لذيذ- كل الحواجز تتهاوى!

ألم يهب البرلمان-أولا كل ما لديه لريفيلكه ولبلاده؟ تبدأ تدريجيًا بتقدير جهوده الصادقة والمخلصة، وتلين. لرحمتك اليد الطولى، تبكي عليه وتقسم بكل شيء بأنك ستدفع تعويضًا مضاعفًا مرتين أو ثلاث مرات. مجرد التفكير في هذا الرجل المسن، ثمرة النضال، البروليتاريا المعذبة، هذا الرجل بالمعطف الشعبي، يملؤكَ برغبة

(1) تم افتتاح السكة الحديدية عام 1909.

متوحشة طربة لأن تضع الأمور في نصابها. في حماستك لإعلاء أولا، تحط من قدر العالم برمته، وكل من فيه، تطيل التفكير في تدمير كل شيء وكل شخص من أجله. أنت تبحث عن الكلمات المناسبة للثناء عليه وتمجيده. أنت في الواقع تصر على أنّ أولا قد أنجز أكثر الأمور قيمة في العالم، وأنه كتب بحثًا حاسمًا عن تحليلات طيفية، وأنه في العام 1719 كان من حرث براري أمريكا، واخترع البرقيات، وزار زحل، وتحدث إلى الله خمس مرات.

أنت تعرف تمام المعرفة أن أولا لم ينجز شيئًا من هذا، لكن في رغبتك المستميتة في أن تكون نبيلًا تدَّعي أنه فعل، وتبكي، وتلعن وتقسم بالشيطان أنه أولا وأولا وحده من فعل كل هذا. لماذا؟ مروءة، للتعويض على أولا. وتبدأ بالغناء في مديحه بغزارة، تغني أغنية داعرة وكافرة في مديح أولا، الذي خلق العالم ووضع الشمس والنجوم في قبة السماء، وتدبر أمر حفظ كل شيء في مكانه منذ ذلك الحين. ولهذا تضيف سلسلة طويلة من اللعنات كدليل على حقيقة ما تقوله. أنت تسلم نفسك إلى تحري الروح الأكثر اهتياجًا، فقط لتنقلب إلى رغبة فاسقة، مستفزة بالتجديف والتدنيس. وفي كل مرة تصيب شيئًا فريدًا من نوعه حقًا، تسحب ركبتيك وتضحك في خفوت على التعويضات التي ستكون مناسبة لأولا. نعم، جنى أولا على نفسه، أولا يستحق ذلك لأنك مرة تحدثت عنه بغير احترام، والآن ضميرك يعذبك.

توقف قصير.

أبديت مرة ملاحظة حمقاء عن جسد-انتظر دقيقة-كان جسد فتاة شابة تحتضر شكرت الله على تسخير جسدها الذي لم يمس أبدًا. الآن أتذكر! كانت مينا ميك وهذا جعلني أحترق خجلًا. نحن نرمي دون تفكير في كثير من التعليقات التي تجعلنا فيما بعد نتأوه

بلوعة الندم! لم يسمع أحد بذلك سوى القزم، لكني أشعر بالعار من صميم قلبي. ارتكبت مرة أيضًا غلطة فظيعة لا تزال تطاردني. عن إسكيمو وورقة نشاف. يا إلهي، إنها تجعلني ذليلًا خجلًا! هيا الآن، لملم شتات نفسك-فلتذهب الوساوس إلى الجحيم! فكّر في اليوم الذي ستكون فيه في حضرة الله، فكّر في المجد، هل أنت واثق من أنك ستكون من بين المختارين؟ يا إلهي كم موحش هذا كله! كم هو فارغ، وموحش، وبائس!

عندما قطع نيجل مسافة لا بأس بها في الغابة، رمى نفسه عند أول بقعة خلنج رآها وغطى وجهه بيديه. كان عقله هائجًا، وهاجمته أكثر الأفكار وحشية. بعد حين غط في النوم. لم تمر سوى أربع ساعات على نهوضه من النوم، ومع ذلك غط منهكًا في نوم عميق.

عندما استيقظ كان قد حل المساء. والشمس تغرق خلف الطاحونة في الزقاق البحري، ومن الأشجار صدحت زقزقة طيور. كان رأسه صافيًا، روحه ساكنة. تلاشت مراراته وتشوشه، كان في سلام.

اتكأ على شجرة، وماجت فيه الأفكار. هل يكون هذا هو الوقت؟ قد لا يختلف عن غيره. لا، أولًا عليه أن يضع عدة أمور في نصابها. عليه أن يكتب رسالة إلى أخته، ومكتوبًا إلى مارتا مع تذكار صغير على حبه. لا يمكن أن يموت الليلة. إلى جانب أنه لم يدفع فاتورة الفندق ويود أن يفعل شيئًا للقزم أيضًا...

سار ببطء عائدًا إلى الفندق. لكن كل شيء سيكون منتهيًا ليلة الغد-منتصف الليل، دون جلبة، نظيفًا ومتقنًا! عند الساعة الثالثة صباحًا كان لا يزال واقفًا إلى نافذة غرفته يتطلع إلى الساحة.

الفصل التاسع عشر

منتصف الليلة التالية تقريبًا، غادر نيجل الفندق. لم يُجرِ أي استعدادات فيما عدا أنه كتب إلى أخته ووضع بعض المال في مغلف لمارتا. لكن أمتعته، وحقيبة كمانه، والكرسي الذي جلبه كانت في أمكنتها المعتادة، وكانت هناك عدة كتب ملقاة على الطاولة. لم يدفع فاتورته بعد، يبدو أنّه نسي أمرها تمامًا. وفيما هو خارج طلب من سارة تنظيف النوافذ قبل عودته، فوافقت على الرغم من تأخر الوقت. ثم غسل يديه ووجهه بعناية وغادر الغرفة.

كان هادئًا وذا اهلًا إلى حد بعيد. كان يناجي ربّه، لَماذا يُثير الضجّة حوله؟ سواء بكّر أو تأخّر سنة فلن يتغيّر في الأمر شيئًا، عدا أنه كان غافلًا عنه لوقت طويل. والآن لديه من الخيبات، والآمال المبددة، والرياء، والخداع ما يكفي.

فكر ثانية في القزم، الذي ذكره أيضًا بمظروف ومحتوياته، ولو أن ريبته بالقزم الأعرج البائس كانت شديدة على الدوام. فكر في السيدة ستينرسن التي خدعت زوجها على الرغم من مرضها وإصابتها بالربو، أمام عينيه تمامًا دون أن يرفَّ لها جفن، وبكامًّا، المرأة الجشعة الاستغلالية، التي تبعته باسطة ذراعيها المخادعتين أينما ولى وجهه وكانت دومًا تقلب جيوبه باحثة عن المزيد غير مكتفية. لطالما وجد الناس متشابهين، شرقًا وغربًا، في الوطن وخارجه، نفس

الفظاظة، والنفاق-من الشحاذ الذي يضمد يدًا سليمة تمامًا، إلى السماء الزرقاء المليئة بغاز الأوزون. وهو نيجل، هل كان خيرًا من البقية؟ لا، لكن هذه كانت النهاية.

نزل إلى أرصفة الميناء ليلقي بالنظرة الأخيرة على السفن، وعندما وصل إلى أكثر الأرصفة بعدًا، نزع الخاتم الحديدي من إصبعه فجأة ورماه في البحر، وراقبه يغرق، وهو يبتعد عن الرصيف. حسنًا، على الأقل في اللحظات الأخيرة من حياته كان يفعل أفضل ما بوسعه ليخلص نفسه من الرياء.

توقف عند منزل مارتا واسترق النظر للمرة الأخيرة من خلال نوافذها. كان كل شيء على حاله: هادئًا وآمنًا وفارغًا.

قال: «وداعًا،» وتابع السير.

بينما هو سائر بغير هدى، وجد نفسه على الطريق المؤدية إلى بيت الكاهن. لم يدرك مدى اقترابه حتّى رأى الحديقة من خلال الأرض الجرداء في الغابة. توقف. إلى أين كان يمضي؟ ما الذي كان يفعله على هذه الطريق؟ رمق للمرة الأخيرة نوافذ الطابق العلوي واهمًا أنه رأى وجهًا لم يظهر أبدًا! لا، لا يتم الأمر على هذا النحو!

لقد نوى أن يفعل ذلك منذ فترة طويلة، لكن هذا ما حصل. وقف إلى حين ينظر إلى بيت الكاهن بعينين تملؤهما اللهفة، تمايل قليلًا وتلا صلاة صامتة.

«وداعًا،» قال مرة أخرى.

ثم التفت فجأة وسلك دربًا يفضي إلى عمق الغابة.

سار إلى الأمام، يبحث عن مكان يتوقف عنده.

كان الأمر على وشك أن يتم دون روية ودون انسياق مع العاطفة. أي أضحوكة جعل كارلسن من نفسه في يأسه! كما لو أن علاقة حب

تافهة بررت مثل هذه المشجاة! لحظ أن أحدَ أربطة حذائه مفكوك فتوقف، وضع قدمه على أجمة صغيرة وربطه. وجلس سريعًا بعدئذ. نظر من حوله ذاهلًا. كان محاطًا بأشجار تنوب سامقة. تناثرت بعض أجمات العرعر هنا وهناك والأرض غطاها الخلنج. كانت بقعة مثالية!

ثم أخرج محفظته التي تحتوي على رسالتي مارتا والقزم. جمل في جيب منفصل منديل داجني ملفوفًا بورقة. أخرجه، قبله مرارًا وتكرارًا، انحنى وقبله مجددًا، بعد ذلك مزقه إلى مزق صغيرة. لقد شغله هذا لوقت طويل. الساعة الواحدة، الواحدة والنصف، واستمر في تمزيقه حتى لم يبق منه سوى خيط. نهض ووضعه تحت حجر مخفيًا إياه جيدًا فلا يجده أحد، ثم جلس مجددًا. هذا كان كل شيء، أليس كذلك؟

استعرض كل شيء واقتنع بأنه لم يغفل شيئًا، عبأ ساعته كما يفعل عادة قبل الذهاب إلى النوم.

نظر من حوله ثانية. كانت الغابة الآن مظلمة تمامًا، لم يكن هناك أحد في الأرجاء. أصغى وحبس أنفاسه، وأصغى مجددًا. حتى الطيور كانت صامتة، والليل كان دافئًا وساكنًا. بدا كما لو أن الحياة توقفت. مد يده إلى جيب صداره وأخرج القارورة. كانت لها سدادة زجاجية مغطاة بغطاء ورقي مختوم بخيط الصيدلي الأزرق.

أزال الخيط وسحب السدادة. كان السائل صافيًا كالماء، تفوح منه رائحة لوز خفيفة. رفع الزجاجة إلى الأعلى وعاينها، كانت ممتلئة حتى منتصفها فقط. سمع صوت ساعة الكنيسة تدق الثانية من البعيد، همس لنفسه: دقت الساعة! وضع الزجاجة سريعًا إلى فمه وأفرغها.

جلس منتصبًا بضع لحظات ساكنًا وعيناه مغمضتان ممسكًا

بالقارورة بيد والسدادة بالأخرى. كان الأمر هينًا للغاية حتى أنه لم يدرك ما حدث تمامًا. في هذا الوقت غمرت الأفكار عقله اليقظ تدريجيًا. فتح عينيه ونظر من حوله في ذهول. هذه أشجار؟ هذه سماء، هذه أرض، كان يرى كل هذا للمرة الأخيرة. كم بدا هذا غريبًا! كان السم قد بدأ ينتشر في جسده، يخترق الأنسجة، يشق ممرًا أزرق اللون عبر أوردته. خلال فترة ستبدأ الاختلاجات وحينها سيستلقي هناك متصلبًا وساكنًا.

شعر بطعم لاذع في فمه وكان لديه إحساس بأن لسانه ينكمش. حرك ذراعيه ليرى مدى اقتراب أجله. بدأ يعد الأشجار من حوله، ووصل إلى الرقم عشرة، وتوقف. هل حقًا سيموت الليلة؟ لا، بالتأكيد ليس الليلة! يا له من إحساس غريب!

نعم، حانت الساعة. شعر بالحمض يحرق أحشاءه بوضوح. لكن لمَ الآن، لمَ في هذه الدقيقة؟ باسم الله، لا يمكنه أن يموت! كم كانت الظلمة تزداد حلكة وكان يسمع صوت حفيف الريح بالأشجار، مع أنه لم يكن هناك ريح. ولماذا كانت الغيوم الحمراء تتشكل فوق الأشجار؟ لا، ليس الآن، ليس الآن تمامًا! ماذا عليَّ أن أفعل؟ يا إلهي، لا أريد أن أموت، ماذا عليَّ أن أفعل؟

وفجأة أغار وابل من الأفكار عليه بوطأة ساحقة. لم يكن مستعدًا بعد، عليه أن ينجز آلاف الأشياء، كان عقله ملتهبًا بكل ما لم يتم إنجازه. لم يدفع فاتورة الفندق، لقد نسي أمرها تمامًا، وعليه أن يسوي الأمر. كان عليه أن يحيا الليلة! فليمنحه الله ساعة أو أكثر قليلًا! هناك رسالة أخرى نسي أن يكتبها، بضعة أسطر لرجل في فنلندة عن أخته وممتلكاتها، كان شيئًا يجب إنجازه ببساطة، كان عقله شديد الصفاء ويعمل بمثل هذه السرعة المحمومة لدرجة أنه فكر في اشتراكاته في عدة صحف. لا، هو لم يلغ اشتراكاته أيضًا،

والصحف ستستمر بالقدوم، لتتكوم من الأرض إلى السقف. ماذا يمكنه أن يفعل؟ والآن حلت النهاية عمليًا!

شق خصلًا من الخلنج بيديه ورمى نفسه على بطنه محاولًا أن يخرج السم بوضع أصابعه في حلقه لكن سدى. لا، لن يموت، ليس اليوم، ليس غدًا، لن يموت أبدًا أراد أن يعيش، ليرى الشمس إلى الأبد.

كان عليه أن يطرد السم منه، اللعنة! عليه أن يخرجه! زحف هائجًا من شدة الرعب على قدميه وترنح في الغابة باحثًا عن الماء. صرخ: «ماء! ماء!» ولم يجبه سوى الصدى من بعيد. في هذيانه صرخ مترنحًا في كل اتجاه، هرع إلى جذع شجرة، قفز فوق أجمات العرعر يتأوه ملتاعًا. لكنه لم يجد ماءً. أخيرًا تعثر وسقط. حفرت يداه الأرض وشعر بنوبة ألم في جانب من وجهه. دائخًا حاول أن ينهض على قدميه لكنه وقع ثانية يزداد ضعفًا إلى أن لم يعد في وسعه أن يتحرك.

حسنًا، هذا هو! يا عزيزي الله، كان سيموت في آخر الأمر! ربما ينجو لو يملك القوة للذهاب والبحث عن الماء! لكن يا لها من نهاية رهيبة، تخيل شيئًا مختلفًا تمامًا. والآن سيموت مسمومًا تحت السماء المكشوفة! لكن لماذا لم يبدأ الشلل؟ لا يزال في وسعه تحريك أصابعه وفتح عينيه. يا الله يا له من وقت طويل جدًا يستغرقه الأمر!

وضع يده على وجهه، كان باردًا ومبللًا بالعرق. كان مستلقيًا على بطنه قبالة أسفل المنحدر ولم يبذل جهدًا لينهض. أطرافه ترتجف والجرح في خده ينزف. كم من الوقت كان ليستغرق! لقد كان بغير نهاية! واستلقى هناك ينتظر بصبر. سمع ثانية ساعة الكنيسة-تدق الثالثة هذه المرة. فجأة شد من أزره: هل يمكن أن يسري السم فيه لساعة كاملة ويبقى على قيد الحياة؟ رفع نفسه على مرفقه ونظر إلى ساعته. نعم كانت الساعة الثالثة! يا إلهي يا له من وقت طويل يستغرقه!

حسنًا، ربما من الأفضل لو يموت الآن.

فجأة فكر في داجني، من أجلها كان سيغني صباحات الأحد، من أجلها أراد أن يفعل الكثير، واستسلم لقدره. ترقرقت الدموع من عينيه، بدأ يفكر في كل ما سيفعله من أجل داجني في حمأة المشاعر المتعاظمة التي غمرته، بين دموعه وصلواته. سوف يحميها من كل ضر لعله يطير إليها في الغد ويكون قربها! عزيزي الله، لو في مقدوره أن يكون إلى جانبها غدًا ويجعلها تستيقظ سعيدة مشعة! لقد ندم على مقارعة الموت منذ برهة، لقد كان وضيعًا وأنانيًا في حين أن في وسعه أن يضمن سعادتها. تأسف وتضرع لمغفرتها، ما الذي جعله يفعل ذلك؟ لكن الآن يمكنها أن تعتمد عليه.

لم يكن لديه ما يكفي من الصبر للانتظار حتى يمكنه الدخول إلى غرفة نومها محلقًا ليقف عند قدم سريرها. سيكون هناك خلال ساعات قليلة، ربما ساعة. وكان واثقًا من أنه سيجد ملاكًا من ملائكة الله ليفعل هذا من أجله، لو لم يتمكنْ من الذهاب بنفسه. سيعد الملاك بأي شيء بالمقابل وقد يقول: «أنا لست أبيض، لكنك كذلك، يمكنك أن تسدي لي صنيعًا وسأكون في خدمتك. يفاجئك سواد لوني؟ بالتأكيد أنا أسود، ما الغريب في ذلك؟ لكن أعدك بكلّ سرور أن أبقى أسود لوقت طويل جدًا، إذا ما فعلت ما أطلبه يمكنني البقاء أسود لمليون سنة وأكثر سوادًا مما أنا عليه إذا طلبت. وإذا أحببت يمكننا أن نضيف مليون سنة لكل يوم أحد تغني فيه لها. صدقني أنا أعني ما أقول. سأفكر في شتى الأشياء لأعبّر لك عن امتناني، لن تكون هناك حدود لما قد أفعله! ولن تحلّق وحيدًا، سأكون إلى جانبك. سأدعم بسرور جناحيك وسأطير بكلينا، ولن ألوثك حتى لو كنت أسود. سأحملنا وكل ما عليك فعله هو أن ترتاح. ربما سأعطيك شيئًا

ترغب فيه، شيئا تحتاج إليه. لن أنسى، ربما يعطيني أي شخص شيئًا. ربما قد أكون محظوظا وأكسب الكثير من الأشياء التي قد تمنحك المتعة.... لا أحد يعلم...».

نعم، كان واثقًا من قدرته على إقناع ملاك بفعل ذلك من أجله. دقت ساعة الكنيسة ثانية. بذهن شارد سجل الدقة الرابعة، لكنّه توقف عن التفكير في الأمر. فرد يديه وصلى لله أن يميته سريعًا، خلال الدقائق القليلة التالية، ثم ربما سيكون بوسعه أن يرى داجني قبل أن تستيقظ. سيمنح الشكر والثناء لكل شيء ولكل شخص إذا منح هذه الرحمة العظيمة -تلك كانت رغبته المتقدة الوحيدة.

أغلق عينيه وغط في النوم.

نام مدة ثلاث ساعات. عندما استيقظ كانت الشمس تسطع عليه والغابة تزخر بأصوات الطيور. نهض ونظر من حوله. عاده في ومضة كل ما حصل أثناء الليل.

كانت القارورة ملقاة إلى جانبه وتذكر كم ترجّى الله بلهفة أن يجيز موته سريعًا.

وها هو، لا يزال حيًا!

مرة أخرى عبرت قوة شريرة طريقه! لم يستطع أن يقبض عليها. وجدَّ في تذكر كل تفصيل.

الأمر الوحيد الذي كان واثقًا منه كان أنه لم يمت.

تناول القارورة، نهض على قدميه، ومشى بضع خطوات. لماذا دومًا تقف في طريقه العقبات كلّما حاول أن يفعل شيئًا؟ ما الخطب في السم؟ لقد كان حمض البروسيك، أكد الطبيب له أن الكمية أكثر من كافية، وفي الواقع قتل كلب الكاهن بنقطة واحدة منه. وكان على يقين من أنها نفس القارورة، كانت ممتلئة إلى منتصفها. تذكر أنه لحظ

ذلك قبل ابتلاعه للمحتويات. القارورة لم تتداولها الأيدي، أيضًا، لطالما حملها في جيب صداره. ما هي هذه القوى الشريرة التي تتعقب كل خطوة من خطواته؟

ثم تذكر كالصاعقة أن القارورة كانت في أيد أخرى في آخر الأمر! مكرهًا تقريبًا، توقف وفرقع أصابعه. لم يكن هناك شك: كانت القارورة بحوزة القزم بما فيها من سم طوال ليلة كاملة. أعطى للقزم سترته في أمسية حفلة السمر في الفندق وكانت جيوبها تحتوي على القارورة ، ساعته، وبعض الأوراق. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي أعاد القزم الأشياء. ذلك الأعرج العجوز المعتوه كان له يد بالأمر مرة ثانية بأفعاله الخيرة الشيطانية!

يا له من خداع قذر متعمد ماكر!

صر نيجل على أسنانه بغضب وخيبة. ما الذي قاله في غرفته تلك الليلة؟ ألم يشر إلى أنه لا يملك الشجاعة لشرب السم؟ وكان ذلك المخلوق المرائي الفاسد المشوه جالسًا بقربه يشكك في كلامه طوال الوقت! ذلك الكلب القذر المراوغ! لقد ذهب مباشرة إلى البيت وأفرغ القارورة، ربما غسلها عدة مرات ثم ملأها حتى منتصفها بالماء. وبعد هذا العمل النبيل ذهب إلى السرير ونام بسلام!

بدأ نيجل يسير باتجاه البلدة. كان مرتاحًا إلى حد ما وبدأ ذهنه يصفو لكن أفكاره كانت عصيّةً على الكلمات تمامًا. جعلته التجربة التي عاشها للتو يشعر بالمهانة وبالحماقة كليًا، لقد ظن بأنه شم رائحة اللوز فعلًا من هذا الماء، شعر بلسانه ينكمش بسببه، وأحس باقتراب الموت بعد شربه له، ولأنه ابتلع بعض قطرات من ماء نبع غير مؤذٍ خاص بالمعمودية، اندفع مسرعًا فوق الأرومات والحجارة!

غاضبًا ومتوردًا خجلًا، توقف وصرخ ملء رئتيه. تماسك ونظر

حوله سريعًا، وخوفًا من أن يكون قد سمعه أحد بدأ يغني ليغطي على الصيحة العالية.

هدأ أثناء سيره. رد الصباح اللطيف وتغريد الطيور له روحه. اقتربت عربة منه يجرها حصان، حيّاه السائق وردّ نيجل السلام. نظر إليه كلب مرافق وهز ذيله. لكن لمَ لم يسمح له أن يموت خلال الليل، بصدق ودون تعقيد؟ كان لا يزال مغتاظًا ومشوشًا على نحو رهيب. لقد تمدد وهو يشعر بارتياح مطلق من أن النهاية كانت وشيكة.

غمره شعور بالسلام فأغلق عينيه وغط في النوم. في هذا الوقت ربما تكون داجني قد رحلت ولم يعد في وسعه أن يفعل شيئًا ليجعلها سعيدة! شعر بالفراغ وبالخيانة، كل شيء أخذ منه! لقد فعل القزم عملًا صالحًا آخر، هو وقلبه يفيضان باللطف! أنقذ القزم حياته-نفس الخدمة التي قدمها مرة لغريب لم يرغب لسبب ما في أن يصل إلى هامبورغ! هذا ما حدث عندما حصل على الوسام ولم يكن يستحقه حقًا-لقد كسبه-بالفعل! أنت تنقذ الناس بالغريزة، وليس لأنك تفعل فعلًا نبيلًا، إنه مجرد تصرف انعكاسي!

تمكن من الوصول إلى غرفته دون أن يشاهده أحد محطمًا تمامًا. كانت الغرفة نظيفة ومبهجة، غُسلت النوافذ وعُلّقت ستائر نظيفة. على الطاولة كانت هناك مزهرية فيها زهور برية. كان مسرورًا ومتفاجئًا-هذا لم يحدث من قبل، واليوم من بين كل الأيام! يا لها من لفتة ساحرة من خادمة مسكينة! كانت سارة إنسانة لطيفة. كان صباحًا جليلًا حتى أن الناس في السوق بدوا سعداء. الرجل صاحب تماثيل الجص يجلس إلى طاولته بنفس راضية وهو يدخن غليونًا على الرغم من أنه لم يبع أي شيء كما يظهر. وفي النهاية، قد يكون إخفاق خطط ليلته السابقة ضربة حظ جيدًا! اقشعر للرعب الذي عاشه وهو

يتعثّر في الغابة بحثًا عن الماء. لا يزال يرتجف كلما فكر فيه، وهو جالسٌ هنا مرتاحٌ في كرسيه في هذه الغرفة اللطيفة المتألقة، منقوعٌ في ضوء الشمس يجتاحه شعور رائع بأنه انتُزع من فكّي الموت في اللحظة الأخيرة.

كان لا يزال هناك مخرج مع ذلك لم يكن قد خبره. ربما واجهت المحاولة الأولى الفشل، لن تموت، نهضت مجددًا. لكن ما سيكون الحال مع مسدس متوفر في أقرب متجر أسلحة متى أردت؟ كان أمرًا يمكن التفكير فيه.

قرعت سارة الباب. لقد سمعته يدخل وأرادت أن تخبره أن الفطور جاهز. وهي على وشك المغادرة، ناداها وسألها فيما إذا كانت هي من جلبت الزهور.

نعم، لقد وضعتها هناك، لكنها ليس على قدر من الأهمية.

لكنه أمسك بيدها وشكرها.

«أين كنت طوال الليل؟ لقد وصلت لتوك،» قالت وابتسمت.

«أنا أثمّن كثيرًا الزهور التي وضعتها في غرفتي. وكذلك البارحة غسلت النوافذ أيضًا وبدلت الستائر. لقد سرني هذا كثيرًا وأنا ممتن لك».

فجأة استبدت به واحدة من تلك اللحظات المجنونة عندما يضل عقله على نحو غير متوقع في كل اتجاه ويتعذر ضبطه تمامًا. «كان بحوزتي معطف من الفراء عندما قدمت إلى هنا،» قال. «الله يعلم ما الذي حصل له، لكنه كان معي، وأنا أود أن أمنحك إياه أود أن أبدي امتناني لك. نعم، هو لك».

لكن سارة انفجرت ضاحكة. ماذا بحق الأرض في وسعها أن تفعل

بمعطف من الفراء؟

هذا عائد لها، بالتأكيد، إذا ما أرادت فقط أن تسدي له معروفًا بقبولها له-هذا سيبعث فيه سرورًا كبيرًا. كانت ضحكتها المرحة مُعدية، فوجد نفسه يشاركها الضحك. هو أيضًا بدأ بمضايقتها. يا لها من أكتاف جميلة أكتافها! لكنه قد رأى منها أكثر مما تدرك! حدث ذلك في غرفة الطعام: كانت واقفة على طاولة تنظف السقف عندما وقع بصره عليها من الباب. كانت تنورتها مثنية للأعلى وقد رأى قدمًا وجزءًا من الساق، في واقع الأمر، لقد رأى جزءًا من ساق جميلة! ذلك المساء، بعد ساعة تقريبًا، سيود أن يقدم لها سوارًا. هذا وعد، لكن ليس عليها أن تنسى أن معطف الفراء ملك لها أيضًا.

هذا المجنون-هل فقد عقله تمامًا؟ ضحكت سارة، لكن بدأ يساورها شعور ببعض الترقب من كل هذه المجريات الغريبة. قبل أمس أعطى الغسالة مالًا أكثر مما يدين لها، واليوم يصر على منحها معطفه! لقد كانت كل أنواع القصص تدور حوله في البلدة.

الفصل العشرون

نعم لقد كان مجنونًا هاذيًا بكل ما في الكلمة من معنى. ليس من تفسير آخر، اقترحت عليه شرب القهوة، الشاي، الحليب، البيرة، كل شيء يمكن أن يخطر في البال، لكنه مع ذلك نهض من طاولة الفطور في اللحظة التي تلت جلوسه، تاركًا طعامه بغير مساس.

فجأة تذكر أن مارتا كانت عادة تجلب البيض إلى السوق في مثل هذا الوقت. ربما عادت، يا لها من ضربة حظ لو تمكن من رؤيتها اليوم، من بين كل الأيام!

ذهب إلى غرفته واستقر بجانب النافذة. يرى من مجلسه كامل الساحة، لكن مارتا لم تكن هناك. انتظر نصف ساعة، مركزًا عينيه على المكان، لكن مارتا لم تأت.

ثم لفت انتباهه مشهد على بعد خطوات من مكتب البريد، حيث يتجمهر جمع من الناس. كان القزم هناك، يقفز صعودًا ونزولًا فيما يشبه رقصة. كان قد خلع معطفه وحذاءه أيضًا. مواصلًا الرقص باهتياج، يمسح وجهه طوال الوقت، وعندما انتهى، جمع النقود من المتفرجين.

إذن عاد القزم إلى مهنته، وبدأ يرقص من جديد. انتظر نيجل حتى انتهى وتفرق الحشد. ثم أرسل في طلبه.

جاء القزم، باحترام كالعادة، قبعته في يده وعيناه مسدلتان.

«لدي رسالة لك،» قال نيجل، مبرزًا الرسالة ووضعها في جيب القزم. ثم قال: «لقد وضعتني في موقف محرج للغاية يا صديقي. لقد جعلت مني أضحوكة، خدعتني بمكر لا يمكنني إلاّ أن أبدي إعجابي به ولو أنه تسبب بدماري. هل لديك متسع قليل من الوقت؟ ألا تتذكر أني قلت مرة إنني سأشرح لك شيئًا؟ لقد حان الوقت. على فكرة، هل سمعت أية شائعة في البلدة تفيد بأنني مجنون؟ كما يمكنك أن ترى بنفسك، فأنا لست كذلك. أعترف بأني كنت مجهدًا في الأيام القليلة السابقة. جرت أمور كثيرة لا تبعث مُطلقًا على السرور. أظن أنه القدر! لكن الآن كل شيء حسن، أنا بخير حال وواثق من أن في وسعك أن ترى ذلك بنفسك. أتصور أن لا فائدة من تقديم مشروب لك؟»

رفض القزم.

«حسنًا، توقعت ذلك. لكن لندخل في صلب موضوعنا: أنا لا أثق فيك يا جروجارد. أنا متأكد من أنك تعرف تمام المعرفة ما أعنيه. لقد خدعتني تمامًا فلا يمكنني بعد الآن التظاهر بأني لست على علم بالأمر. حاولت أن تحتال عليَّ في مسألة على غاية الأهمية بالنسبة إليَّ-لأسباب إنسانية، بالتأكيد، عن نية طيبة، إذا أردت، لكن مع ذلك فعلتها. كانت هذه القارورة في حوزتك؟»

نظر القزم خلسة إلى القارورة لكنه لم يجب.

«كانت تحتوي على السم، لكنه استبدل بالماء. الليلة الماضية لم يكن فيها شيء سوى الماء».

ولم ينبس القزم بكلمة.

«ليست جريمة. ربما نفذت ذلك عن نية حسنة، رغبة في منع الأذى. لكنك أنت الفاعل!».

توقف قصير.

«حسنًا، ألم تفعل؟».

«نعم،» قال القزم أخيرًا.

«من وجهة نظرك، كان صوابًا، لكن من وجهة نظري كان خطأ تامًا. لمَ فعلت ذلك؟».

«كنت أخشى من أنك قد...».

توقف قصير.

«لكنك ترى كم كنت مخطئًا، جروجارد. لطفك ضلّلك. ألم يكن قولي لك ليلة أخذت القارورة إنني لا أملك الشجاعة على شرب السم مقنعًا؟».

«لكني كنت لا أزال خائفًا من أنك قد تفعل، وها قد فعلت».

«ماذا تعني؟ أخشى أنك على خطأ، يا رجلي الطيب. لقد أفرغت القارورة الليلة الماضية لكني بالتأكيد لم أشرب محتوياتها».

نظر القزم إليه بدهشة.

«الآن ترى، أنت من كان مخدوعًا بشكل كامل. لقد حدث أني خرجت للتنزه ليلًا على طول رصيف الميناء وصادفت قطة تتلوى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بفظاعة شديدة، توقفت ونظرت إليها، كان هناك شيء عالق في حلقها. لقد ابتلعت صنارة سمك سدته، على الرغم من اختلاجاتها الشديدة، لم تستطع أن تخرجها أو تبلعها وكان الدم يسيل من فمها. أمسكت بها لأحاول إخراج الصنارة. لكن القطة، وهي تتلوى من شدة الألم، تدحرجت على ظهرها وخمشت الهواء بوحشية وخمشت خدي، يمكنك أن ترى الجرح البليغ. حينها كانت القطة توشك على الاختناق، والدم ينفر من حلقها. ماذا يمكنني

أن أفعل؟ دقت ساعة الكنيسة الثانية. فيما أنت جالس هناك تحاول أن تتخذ قرارك. الوقت متأخر جدًا فليس في وسعك الحصول على مساعدة، إنها الساعة الثانية صباحًا. عندها تتذكر فجأة القارورة السحرية في جيبك. تريد أن تضع حدًا لبؤس الحيوان المسكين، وتفرغ القارورة في حلقها. مع ابتلاعها للسائل الرهيب، تجثم وتنظر ببؤس من حولها. عيناها مفعمتان بالرعب، الحيوان يفر، يقفز، يتلوى متخبطًا، تقفز عدة قفزات عاليًا، وتبدأ ثانية اختلاجاتها العنيفة على طول الرصيف. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ عجبًا، لم يكن هناك شيء سوى الماء في القارورة! لا يمكن أن تخلّص المخلوق المسكين من بؤسه بل تطيل أمد احتضاره فقط، ما زالت الصنارة في حلقها وكانت تنزف وتلهث. عاجلًا أم آجلًا ستنزف حتى الموت، أو تتلوى في زاوية وتموت في رعب صامت».

«لم أكن أفكر سوى في مصلحتك مبدئيًا،» قال القزم.

«بالتأكيد لقد فعلت! كل ما تفعله مبطّن بنوايا طيبة. لن تضبط متلبسًا وأنت ترتكب أمرًا شائنًا وغشك النبيل والشريف لسُمّي ليس بجديد. الآن فقط، على سبيل المثال، عندما كنت ترقص في الساحة، كنت أراقبك واقفًا هنا أمام النافذة. أنا لا أوبخك-فقط أتحدث إليك-لمَ خلعت حذاءك؟ أنت تنتعله الآن، لمَ خلعته لترقص؟».

«حتى لا يبلى».

«عرفت أن هذا سيكون جوابك ولهذا سألتك. أنت نقاء مجسد والشخص الأكثر طهرًا في البلدة. كل شيء فيك نبيل وإيثاري، أنت غير مدنس أو ملام. عندما رغبت في اختبارك عرضت أن أدفع لك مقابل أن تتبنّى طفلت سواك. رفضت العرض على الرغم من أنك فقير وقد يلزمك المال دون لحظة تردد. اشمأزت روحك من فكرة رذيلة من هذا

القبيل، ولم أستطع إقناعك مع أني عرضت عليك ما يزيد على مئتي كرون. لو كنت أعرفك بشكل أفضل، لما كنت أهنتك بهذه القسوة. الآن أعرف أن على المرء إذ يتعامل معك أن يهمز حصانه ويحكم الإمساك باللجام في نفس الوقت. حسنًا، لنعد إلى موضوعنا. إنه يشبه تمامًا أن تخلع حذاءك وترقص حافيًا، متجاهلًا الألم. أنت لا تشتكي، لا تقول: «أنا أخلع حذائي فلا أبليه. ينبغي عليَّ ذلك، لأني في فقر مدقع!» لا، أنت تسعى لأن تحدث أثرًا بصمتك، إذا ما سمحت لي بقول ذلك. أن تطلب معروفًا من أي شخص فذلك أمرٌ ينافي مبادئك. لكنك تتدبر أمرك وتحصل على ما تريد دون أن تنبس بكلمة. أنت فوق الشبهات في تعاملاتك من الآخرين وكذلك في أخلاقك الشخصية. أنا أهتم اهتمامًا خاصًا بهذه السمة من سماتك، لكن لنستمر-لا تكن نافد الصبر-أنا على وشك أن أشرح. قلت مرة شيئًا عن الآنسة جودي علق في ذهني. قلت إذا ما تبع المرء الطريق الصحيح فالوصول إليها غير متعذّر في النهاية، مهما يكن من أمر، لقد توصلت إلى شيء ما معها».

«لا، لكن...».

«أتذكر ذلك جيدًا. كنا أنت وأنا جالسين مساء هنا نشرب معًا، أقصد كنت أشرب، وأنت تراقب. قلت إن مارتا-نعم، سميتها مارتا-تدعوك يوهانس. أليس كذلك؟ هي تدعوك يوهانس، ألا تفعل؟ أتذكر تمامًا أنك أخبرتني بذلك. قلت إن مارتا صرحت لك بكل شيء، وفيما كنت تقول ذلك، أومأت بسبابتك على نحو غامض...».

وثب القزم على قدميه، تورد وجهه واحتج بشدة: «أنا لم أقل يومًا مثل هذا الأمر! لم أقل ذلك أبدًا!».

«لم تقل أبدًا؟ ماذا تعني؟ هل كان عليَّ أن أرسل في طلب سارة لتقسم أنها أثناء المحادثة كانت في الغرفة المجاورة وسمعت كل كلمة

من خلال هذه الجدران الرقيقة؟ أنا ذاهل من نكرانك، لكن إذا كنت تقول ذلك فهذه نهاية الحديث. مع أني حقيقة أريد الخوض في هذا الأمر معك أكثر قليلًا، إنه يأسرني، وفكرت فيه كثيرًا، لكن إذا كنت تنكر قولك لذلك فما من جدوى من متابعة الموضوع. رجاء اجلس، ولا ترتج كما فعلت المرة السابقة. بالمناسبة، الباب مقفل لقد أقفلته!».

أشعل نيجل سيجارًا وفجأة غير نبرته.

«يا إلهي! ما الذي قلته؟ يا سيد جروجارد لقد أخطأت خطأ رهيبًا-رجاء سامحني! بالتأكيد لم تقل ذلك! انس الأمر يا صديقي. لقد قاله شخص آخر، ليس أنت! الآن تذكرت-سمعته منذ أسبوعين. كيف أمكنني أن أفكر بأنك قد تفضح سيدة، وأكثر من ذلك تنشر شرّك على نحو صارخ جدًا! لا يمكنني أن أفهم كيف تتاهت تلك الفكرة إلى رأسي. لا بد من أني مجنون في النهاية! لكني عندما أرتكب خطأ أعترف به وأعتذر في الحال، لذا لا يمكن أن أكون مجنونًا، هل يمكن ذلك؟ إذا كانت أفكاري مربكة قليلًا وهائمة ليس عليك أن تفكر في أنها مفتعلة، أنا لا أحاول أن أبلبلك، ليس عليك أن تفكر في ذلك. عدا عن أنه قد يكون مستحيلًا، فأنت بالكاد تفتح فمك وما من طريقة لمعرفة ما يجول في خاطرك. أنا أتحدث بهذه السرعة ربما لأني في مزاج للثرثرة في هذه اللحظة-هذا هو السبب الوحيد. اعذر هذا الاستطراد، لا بد من أن سماعك شرحي يقلقك؟».

لم يجب القزم. نهض نيجل وبدأ يذرع المسافة بين الباب والنافذة متوترًا. توقف فجأة وهتف باستكانة تامة: «لا يمكنني الاستمرار بمراوغتك، أريد أن أعترف بشرف. ربما كنت أشوشك بحديثي الشارد وحتى اللحظة كنت أفعل هذا عمدًا. رغبت في الحصول على شيء منك. حاولت بشتى الطرق ولم أتوصل إلى شيء، والآن أنا

مشمئز من ذلك ومُتعب جدًّا. إذن هاك، يا جروجارد، الشرح الذي رغبت فيه. توصلت إلى استنتاج أنك سافل-وأنّ لديك نقيصة سرية».

عندها بدأ القزم يرتجف، وعيناه هلعتان تندفعان بوحشية في كل اتجاه، ولكن نيجل واصل قائلا:

«أنت لا تفتح فمك، ولا تزال تلعب الدور. لا شيء يجعلك تتزحزح، صمتك سلاح فعّال. أنا معجب بك، أنت تأسرني. هل تتذكر عندما تحدثت معك المساء بطوله محدّقًا إليك بيقظة عدة مرات ثم لمّحتُ إلى أنك انفعلت فزعًا؟ فعلت ذلك لأحاول أن أحصل على شيء منك. أبقيت عيني عليك وحاولت النيل منك بشتى الطرق، لكني فشلت، لأنك مبهم. لم أشك للحظة في أنّك تحمل نقيصةً رغم ورعك الظاهري، نقيصةً سريّة من نوع ما لا يمكنني إثباتها، للأسف ليس لدي دليل ضدك لذا ليس عليك أن تقلق. سيبقى هذا بيننا. أتصور أنك لا تستطيع أن تفهم كيف يمكنني أن أكون واثقًا في حين لا أملك دليلًا. لا، لا يمكنك. ومع ذلك تخفض بصرك بطريقة معيّنة عندما نتحدث عن أشياء محددة، عيناك يتملّكهما تعبير غريب. تجفلان إزاء كلمات محدّدة وبعض المواضيع دون سواها. تستولي نبرة غريبة على صوتك-لا يزال في وسعي سماعها. لكن لندخل في صلب الموضوع: أنت توقظ بي شعورًا غريبًا من الجفاء، أشعر به لحظة اقترابك مني، ترتد روحي في حضورك. هل تفهم ذلك؟ ولا أنا أيضًا، لكن هذا هو الحال. أنا مقتنع بأني على حق، لكن لا يمكنني فعل أي شيء بشأنه لأني لا أملك الدليل. آخر مرة كنت فيها هنا، سألتك عن مكان وجودك في السادس من حزيران. هل تحب أن تعرف سبب سؤالي؟ هذا كان تاريخ وفاة كارلسن، وحتى ذلك الوقت كنت أعتقد بأنك من قتله».

«أنا قتلت كارلسن؟» كرّر القزم وهو يهمس كالمصعوق ثم لاذ

بالصّمت.

«نعم كنت مقتنعًا حتى تلك اللحظة. اقتناعي بسفالتك أوصلني إلى هذ الحد. أنا لم أعد أؤمن بذلك، أعترف بأني كنت مخطئًا. لقد بالغتُ كثيرًا وأستميحك عذرًا. سواء كنت تصدقني أو لا، أنا مغتم للغاية لأني ظلمتك وفي كثير من الأحيان عندما أكون وحيدًا في اللّيل أطلب مغفرتك. لكن، وعلى الرغم من أنّي كنت مخطئًا في هذه الحالة، أنا مقتنع بأنك شخص فاسد ومكّار، وحق الله أعرف أن هذا صحيح! أشعر به في أعماق نفسي صحيحا تماما مثلما أجلس هنا الآن أنظر إليك، والله على ما أقول شهيد! ولمَ أنا شديد الثقة؟ بداية لم يكن لديّ مبرر لأسيء الظنّ بك، وكل ما قلته وفعلته كان صحيحًا ومناسبًا، بل نبيلًا أيضًا. كذلك حلمت حلمًا جميلًا وغريبًا بك. لقد حلمت بأنك كنت وسط مستنقع، وبأني كنت أعذبك وأتنمر عليك، وبأنك كنت تشكرني. لقد رميتَ نفسك وشكرتني لأني لم أعذبك وأتنمر عليك أكثر من ذلك. كان حلمًا جميلًا. لا يخطر في بال أحد في البلدة بأنك قادر على ارتكاب الآثام. هم يحترمونك جميعًا ويظنّون بك الخير —هذا لأنك أخفيت جيّدًا حقيقة نفسك. ومع ذلك غريزتي تقول لي إنّك ملاك الله الرعديد المتذلّل بكلمة لطيفة للجميع وعمل صالح كل يوم. الآن، ألم تغتبني متسببًا لي في مشكلة، ونشرت أسراري؟ لا، لم تفعل-وهذه طريقتك في التصرف، أنت لا تتجادل أبدًا مع أحد، لم تتجاوز الحدود أبدًا، أنت مُتّقٍ، عصيّ على اللوم، غير قادر على أذيّة أحد. يقبل العالم بصورتك تلك، لكني لا أفعل. أرتاب بك ريبة عميقة. منذ أن وقعت عيني عليك لأول مرّة، ساورني إحساس غريب. ذات صباح منذ عدة أيام بعد أن أتيت إلى هنا، رأيتك خارج منزل مارتا هناك عند رصيف الميناء-كانت

الساعة حوالي الثانية صباحًا. فجأة ظهرت وسط الشارع ولم أكن أعرف من أين أتيت. وقفت ساكنًا وأنا أعبر، وشعرت بأنّك تنظر إليّ شزرًا. هذا ما حدث قبل أن أتحدث معك، لكنّ جرس إنذار قرع في داخلي، وأخبرني بأنّ اسمك يوهانس. ولو كانت هذه آخر كلمة أتفوّه بها، فسأقسم بأنّ صوتًا داخليًا قال لي إنّ اسمك يوهانس وكنت حذرًا منك. ولم يمض وقت طويل حتّى علمت بأنّ يوهانس كان اسمك حقًا. لكن منذ ذلك اليوم أبقيتك تحت أنظاري، وكنت دومًا تتجنبني. لم أكن قادرًا يومًا على إحراجك. وأخيرًا تستبدل بالماء بضع قطرات من السمّ، بنيّة حسنة، ولأنك تخشى في روحك-باستقامة شديدة-بأنّي قد أقدم على شربه. كيف يمكنني أن أشرح ردّ فعلي على كل هذا؟ فضيلتك تستحضر الوحش فيّ. ولا شيء سيُلهيني عن هدفي المتمثّل في تدميرك لا كلماتك الظاهرية ولا أفعالك الخيّرة. أريد أن أهتك قناعك لتظهر نفسك على حقيقتها. دمي يبرد مشمئزًا في كل مرة أرى فيها عينيك الزرقاوين المرائيتين، أنا أنفر من مرآك. أنت كاذب في قرارة نفسك! وعلى الرغم من عذابك ورعبك في هذه اللحظة، لديّ شعور بأنك تجلس هناك تضحك ببهجة بينك وبين نفسك لأنك تعرف جيدًا بأني لا أستطيع النيل منك لافتقاري إلى الدليل».

لم ينبس القزم بكلمة. فتابع نيجل: «بطبيعة الحال، أنت تظنّني قاسيًا ودنيئًا لأنّي أقذفك بهذه الاتهامات. لكن هذا لا يؤثّر فيَّ، قد تظنّ ما يحلو لك. لكنّك تعرف ضمنيًا بأني على حق، وبأني فضحت حقيقتك، وهذا كاف بالنسبة إليَّ. كيف يمكنك أن تحتمل معاملتي لك بهذه الطريقة؟ لمَ لا تنهض، وتبصق في وجهي وتخرج؟».

بدا أن القزم ثاب إلى رشده. «لكنك أغلقت الباب،» قال.

«إذن أنت متيقّظ!» قال نيجل. «هل تقول إنك تصدّق حقًا أنّ

الباب مقفل؟ الباب ليس مقفلًا، وانظر، إنه الآن مفتوح. قلت لك إنه مقفل لأختبرك، لأوقعك في فخّ. كنت تعرف طوال الوقت بأنّ الباب ليس مقفلًا، لكنّك تظاهرت بعدم المعرفة كي تستطيع الجلوس هنا وتبدو بريئًا ومتعففًا كالعادة وتسمح لي بأن أفضحك. حتى أنك لم تهم بمغادرة الغرفة. تأهبت حالما كشفت بأن لدي شكوكًا حولك، أردت أن تطلّع على ما أعرفه، وأيّ نوع من التهديد قد أمثّل بالنسبة إليك. ساعدني يا الله، هذا هو الحال، يمكنك أن تنكر كل ما تريد-لا يهمني. ولمَ هذه المكاشفة الآن؟ ربما تسأل-قد تقول إن هذا ليس من شأني. لكن يا صديقي، هو يعنيني. في المقام الأول، أود أن أحذّرك. الآن أنا صادق تمامًا. أنت تعيش حياة سرية وضيعة، وعاجلًا أم آجلًا سيتمّ القبض عليك. ذات يوم ستنكشف للجميع وتُداس. في المقام الثاني، أنا مقتنع بأنّ الآنسة جودي، على الرغم من إنكارك لذلك، تعني لك أكثر مما تُفصح عنه. ولمَ عليَّ أن أهتم للآنسة جودي؟ أنت محق ثانية. لا يمكنني الإجابة عن السؤال، لأن الآنسة جودي لا تعنيني ولو قليلًا. لكن على أسس إنسانية بحتة سيضايقني إذا ما تآلفت معها وأفسدتها بفسادك المنافق. لهذا أنا أواجهك بهذا الأمر».

أعاد نيجل إشعال سيجاره وتابع: «الآن لقد انتهيت والباب ليس مقفلًا. هل يمكنك أن تدّعي بأنّي أسأتُ معاملتك؟ لك حرية الإجابة من عدمها، لكن إذا ما كنت ستفعل دع ضميرك يتحدث. يا صديقي، قبل أن تغادر دعني أؤكد لك بأني لا أتمنى لك أي أذى».

توقف قصير.

نهض القزم، أخرج رسالة نيجل من جيب معطفه وقال: «بعد هذا، يستحيل عليّ قبولها».

لم يكن نيجل يتوقع هذا فقد نسي أمر الرسالة بالكامل. «لا يمكنك

قبولها-ولمَ لا؟».

«لا يمكنني».

وضع القزم الرسالة على الطاولة ومشى نحو الباب. لحق به نيجل والرسالة في يده، وعيناه مغرورقتان بالدموع. وقال له بصوت متهدّج:

«خذها مع ذلك، يا جروجارد».

«لا،» أجاب القزم، وهو يفتح الباب.

أغلق نيجل الباب وكرّر: «خذها، خذها! أفضّل أن تظنّ بأني مجنون على أن تتذكّر أيّ شيء ممّا قلته اليوم. في واقع الأمر، أنا مجنون تمامًا، لا بد من أن تتجاهل ثرثرتي في الساعة الأخيرة. أنت تدرك بأني إذا لم أكن بكامل قواي العقلية؛ لا يمكن أن أُلام على ما أقوله. لكن خذ الرسالة! لا أريد أن أتسبّب لك بأيّ أذى، مع أني لست نفسي. بحق الله، اقبلها، هي ليست بالكثير صدقني هي مجرد تذكار، وأردت أن أكتب لك رسالة، كانت دومًا في بالي أردت أن أعطيك رسالة حتى لو لم يكن فيها أيّ شيء لنعتبرها رسالة. هي مجرد تحيّة للتعبير عن امتناني الكبير لك».

دس الرسالة في يد القزم وهرع إلى النافذة ليتفادى أن تعاد إليه. لكن القزم لم يستسلم. هز رأسه ووضع الرسالة على الطاولة وغادر.

الفصل الواحد والعشرون

كان كل شيء يتجه من سيّئ إلى أسوأ. لم يحظ بلحظة سلام واحدة، سواء بقي في غرفته أو طاف في الشوارع. اندفعت ألف فكرة في عقله، وكل واحدة مصحوبة بألمها الخارق. لماذا انقلب كل شيء ضده؟ لم تكن له طاقة على ذلك، كان كل شيء يطبق عليه. بلغت الأمور إلى حد أنه لم يستطع إقناع القزم بقبول رسالته!

كان يائسًا من كلّ شيء ومغتمًا بما لا يقاس. إضافةً إلى تفجّعه، شعر بتهديد مستبد رهيب يتوعّده. قد يرتدّ مرتعبًا لمرأى ستارة تحركها النسمات. أي عذابات جديدة تنتظره؟ ساءت حال قسماته الصارمة إلى حد ما – قسماته التي لم تكن على شيء من الوسامة–مع نمو الأشعار الداكنة في وجهه. ولحظ أن شعر صدغيه يزداد مشيبًا.

حسنًا، ماذا في ذلك؟ كانت الشمس ساطعة، وكان سعيدًا لأنه حي وحر في الذهاب إلى أي مكان يريده. بدا العالم برمته عند قدميه. أشعّت الشمس على الساحة وعلى المياه، وكانت الطيور تزقزق في حدائق المنازل الصغيرة الساحرة. الشمس الذهبية تغمر كل شيء، الحصى يتألّق على الطرقات، والقبة الفضية تلمع على قمة برج الكنيسة في السماء مثل ماسة هائلة.

شعر فجأة بسعادة بهيجة وبنشوة غامرة، حتى أنه انحنى بتهوّر على النافذة ورمى قبضة من نقود فضيّة إلى بعض الأطفال الذين

كانوا يلعبون عند درج الفندق.

«الآن كونوا طيبين،» دفع الكلمات بصعوبة جرّاء العاطفة التي استحوذت عليه.

ممَّ سيخاف؟ لم تبدُ سحنته أسوأ من المعتاد، وفي وسعه دومًا أن يحلق شعره وينظّف نفسه قليلًا. هذه لم تكن مشكلة. وتوجه إلى صالون الحلاقة.

تذكر فجأة أن عليه شراء بعض الأشياء، منها السوار الذي وعد سارة به. ذهب إلى التبضع وهو يُغنّي بينه وبين نفسه، خالي البال مثل طفل وراضيًا بالعالم. لم يكن هناك ما يخشاه، لم يكن الخوف إلا وهمًا.

لم يغادره مزاجه الجذل، وماج عقله بأفكار سعيدة لا تعدّ ولا تحصى. لم يعد ما جرى بينه وبين القزم واضحًا وكاد يصبح ممحوًا من ذاكرته. رفض القزم قبول رسالته لكن كانت لديه رسالة مارتا أيضًا. بحث عن شخص يوصلها إليها لكي تكتمل نشوته. لكن كيف؟ فتح محفظته ووجد الرسالة. هل يمكنه أن يرسلها إلى داجني موسومة بأنها رسالة شخصية؟

لا، هذا ما لن يفعله. ظل يقلّب الفكرة في عقله.

قرر أن يبعث الرسالة في الحال.

في الواقع، هي لم تكن رسالة حقًا، بل مجرد مظروف يحتوي على بعض المال-ما من كلمة واحدة مكتوبة. ربما يمكنه أن يطلب من الطبيب ستينرسن أن يهتم بأمرها؟ واقتنع بأن هذا كان أفضل سبيل، ذهب ليرى الطبيب ستينرسن.

كانت الساعة السادسة.

قرع على باب مكتبه، لكن لم يفتح أحد.

ثم ذهب إلى باب المطبخ الخلفي، وفي تلك اللحظة نادته السيدة ستينرسن من الحديقة.

وجد جمعًا من الناس جالسين إلى طاولة حجرية كبيرة يحتسون القهوة. كانت حفلة كبيرة وهادئة، وداجني كيلاند معهم. ترتدي قبعة بيضاء مزينة بزهور ملونة بألوان زاهية صغيرة.

حاول نيجل أن يتراجع متلعثمًا: «الطبيب، كان الطبيب...».

يا إلهي، هل ثمة خطب؟

لا، لا شيء.

حسنًا إذن، كان عليه الانضمام إليهم.

أمسكته السيدة ستينرسن من ذراعه. نهضت داجني وقدمت له مقعدًا. نظر إليها-وتلاقت عيناهما.

نهضت وقالت بصوت خافت: «رجاء، هلا جلست هنا؟» لكنه وجد مكانًا قرب الطبيب ستينرسن وجلس.

جعله الاجتماع يشعر بالحرج -لكن داجني، في الواقع، نظرت إليه بلطف وقدمت له مقعدها. كان قلبه يخفق بعنف-ربما، في النهاية يمكنه أن يعهد إليها برسالة مارتا؟

استعاد هدوءه بعد بضع لحظات. كانت المحادثة مفعمة بالحيوية. عاد من جديد إلى حالته العقلية السعيدة التي جعلت صوته متهدجًا. كان حيًا، وليس ميتًا، وليس موشكًا على الموت! كان جمع بهيج ومرح من الناس جالسين حول هذه الطاولة بمفرشها الثلجي، ضاحكين بعيون صافية. كيف يمكن له أن يكون مغتمًا؟

«إذا كنت ترغب حقًا في أن تسرّنا قد تجلب كمانك وتعزف لنا،» قالت زوجة الطبيب.

كيف خطرت لها مثل هذه الفكرة السخيفة! ولماذا وافقها الآخرون مبتهلين إليه؟ ضحك بصوت مرتفع وهتف: «لكن لا أملك كمانًا!».

سيرسلون في طلب كمان عازف الأرغن. لن يستغرق الأمر دقيقة!

لا، لا يستطيع. عدا عن أن كمان عازف الأرغن لم يكن مجديًا بأحجار الياقوت الصغيرة المرصّعة على لوحة الأصابع. إنها تجعل صوت الآلة خفيضًا. لم يكن من الواجب وضعها هناك، فهي تفسد اللحن تمامًا. إضافةً إلى أنه لم يكن متمرنًا ولهذا السبب هو لم يعزف يومًا بشكل جيد، في النهاية كان هو أفضل من يحكم على ذلك، أليس صحيحًا؟

ثم حدّثهم بالمرّة الأولى والأخيرة التي لاقى فيها عزفه استحسانًا رسميًا، بوسع المرء أن يقول إنّ التجربة كانت رمزية. اشترى الصحيفة ذلك المساء وبدأ قراءتها على السرير، كان في مقتبل العمر يعيش آنئذٍ في الوطن. كتبت الصحيفة المحلية مراجعة عن عزفه، المراجعة منحته شعورًا سعيدًا جدًا! قرأها مرارًا وتكرارًا إلى أن غط في النوم أخيرًا ولا تزال الشموع مشتعلة. استيقظ منهكًا منتصف الليل. كانت الشموع قد انطفأت، والغرفة في ظلمة حالكة، لكنه استطاع أن يميز شيئًا أبيض على الأرض، وكان يعلم بوجود مبصقة بيضاء في الغرفة، فكر في أنها لا بد أن تكون هي. كان محرجًا من قول ذلك، لكنه بصق، وأصاب هدفه. حاول مجددًا بسرور أن يصيب هدفه ثم غط في النوم. في الصباح اكتشف أنه بصق على المراجعة العزيزة. لقد أزعجه ذلك غاية الإزعاج!

ضحكوا جميعًا، أضحت المحادثة أكثر حيوية ثم علّقت السيدة ستينرسن: «لكن يبدو لي أنك أكثر شحوبًا من المعتاد؟».

«أوه، ليس ثمة خطب،» أجاب نيجل ضاحكًا بصوت عال من فكرة

أن يكون ثمة خطب فيه.

وفجأة تورد وجهه، فنهض من كرسيه وقال إن ثمّة خطبًا في النهاية. لديه شعور غريب بأنّ مكروهًا سيصيبه ويشعر بالوجل. ألم يكن هذا سخيفًا؟

بالتأكيد هو مجرد خيال، أليس كذلك؟ ومع ذلك، حدث له أمر ما.

أصروا على أن يخبرهم بما جرى.

لا، ما الفائدة؟ ليس على قدر من الأهمية، كان سخيفًا، لماذا يضيع وقت الجميع بمثل هذا الهراء؟ كان مملًا وليس على شيء من الأهمية بالتأكيد.

على العكس.

لكنها قصة طويلة. بدأت في سان فرنسيسكو عندما كان يدخن الأفيون...

«أفيون؟ يا لها من تسلية!».

«لا، سيدة ستينرسن، هي بالكاد مسلية، وإلى الآن ما أزال مسكونًا بمخاوف غريبة في ضوء النهار الرحيب. لا تظنّي بأني مُدمن، دخّنتُ مرة أو مرتين فقط، في المرة الثانية لم يؤثّر فيّ إلاّ لمامًا، لكن في المرة الأولى عشت تجربة غريبة. فجأة وجدت نفسي في وكر للأفيون. كيف وصلت إلى هناك؟ مجرد صدفة. عادة ما أطوف الشوارع، أنظر إلى الناس، أختار أحيانًا فردًا أتبعه من بعيد لأرى إلى أين ينتهي، في مدينة كبيرة يمكنني في اللّيل أن أُسحر وأساق إلى مصادفات عجيبة. حسنًا، هذا يبتعد عن صلب الموضوع. لكن كنت هناك، أذرع شوارع سان فرنسيسكو. في وقت متأخر، تسير أمامي امرأة نحيلة طويلة القامة. لم أدعها تغيب عن ناظري. رأيت في نور مصباح الغاز أنها كانت ترتدي ثيابًا خفيفة جدًا، وقد أحاطت عنقها

بصليب من حجارة خضراء. إلى أين كانت متوجهة؟ واصلت السير، وانعطفت عدة انعطافات -وأنا في إثرها مباشرة. أخيرًا وجدنا أنفسنا في الحي الصيني. اختفت المرأة في ممر تحت الأرض وتبعتها. مشت في ممر طويل، وأنا خلفها تمامًا. كان هناك جدار على اليمين وعلى اليسار مقاه، صالونات حلاقة، وحجرات لغسل الملابس. توقفت عند باب وقرعته، نظرت عينان مائلتان من ثقب الباب، ثمّ أدخلت المرأة. انتظرت بضع لحظات هادئًا تمامًا ثم قرعت، أيضًا فتح الباب مجددًا وسُمح لي بالدخول. كانت الغرفة ملأى بالدخان وبالمحادثات الصاخبة. والمرأة واقفة إلى نضد تتحدث إلى رجل صيني قميصه الأزرق موضوع فوق بنطاله. حين اقتربتُ منهما استنتجت أنها كانت تحاول أن ترهن صليبها لكنها لم تكن راغبة في التخلي عنه، أرادت أن تحتفظ به. كانت مسألة بضعة دولارات، وبدا أنها تدين له بشيء سلفًا ووصل المبلغ حتى ثلاثة دولارات، قلبت كفيها، ساومت وبكت قليلًا، وأسرتني. كان الصيني في القميص الأزرق أيضًا ملفتًا للنظر. لن يعقد الصفقة إلا إذا كان الصليب بحوزته. لا صليب، لا نقود! «سأجلس هنا وأفكر في الأمر،» قالت المرأة، «ولو أني في النهاية قد أستسلم. لكن ليس عليَّ أن أفعل ذلك! ثم بدأت تنتحب وتنظر مباشرة إلى الصيني مقلّبة كفيها مرارًا وتكرارًا. «لماذا ليس عليك أن تفعلي؟» سألتها. أحسّت بأني غريب فلم تجب. كان فيها ما يخلب الألباب، وقررت أن أعطيها المال وأرى ما يجري. دسست دولارًا إضافيًا في يدها إذ ظننت أن ذلك قد يحدث انطباعًا ظريفًا، فقط لأعرف رد فعلها. شكرتني ورمقتني بنظرة ثاقبة لكنها لم تضف شيئًا، أومأت ونظرت إليّ بعينين مفعمتين بالدموع وفعلت هذا بسبب الفضول! دفعت جميع النقود عند البار طالبة غرفة. وعندئذٍ غادرت، وتبعتها. سرنا في ممر طويل

آخر، على جانبيه غرف عديدة، تسللت المرأة في واحدة منها وأغلقت الباب. انتظرت حينًا لكنها لم تظهر حاولت أن أفتح الباب لكنه كان مقفلًا. ثم ذهبت إلى غرفة جلوس مجاورة وبقيتُ أنتظر. كانت هناك أريكة حمراء وجرس خدمة. وكانت الغرفة مضاءة بتركيب مثبت إلى الجدار، استلقيت على الأريكة وبعد فترة بدأت أشعر بالملل، لذا قرعت الجرس لأفعل شيئًا. لم أرغب في شيء، لكني قرعت الجرس مع ذلك. ظهر فتى صيني، نظر إليّ، واختفى. بعد عدة لحظات. قلت لأصرف الوقت: «عد، دعني ألقِ عليك نظرة أخرى، لمَ لا تعود؟» وقرعت الجرس مجددًا. عاد الفتى، ينتعل خفًا من اللباد ويتحرك دون أن يصدر صوتًا. لم يقل أحدنا شيئًا، لكنه ناولني غليونًا صغيرًا من الخزف طويل الساق، فأخذته. ثم وضع ما يشبه فحمًا نباتيًا متوهجًا فيه وبدأت التدخين. لم أكن قد طلبته، لكني دخنت بكل الأحوال. بعد ذلك بقليل شعرت بطنين في أذني.. بعد ذلك لم أعد أتذكر شيئًا سوى شعوري بأني أعوم في الهواء. كنت أحلق في الفضاء. كل شيء من حولي كان يسبح في الضوء، والسحب بيضاء صافية. من كنت، وإلى أين كنت ذاهبًا؟ حاولت التفكير، لكن عقلي كان فارغًا، وكنت أحلّق. رأيت حقولًا خضراء بعيدة، بحيرات زرقاء، جبالًا ووديانًا تنعم في ضوء ذهبي. سمعت موسيقى تصدح من النجوم، وتمايلت الغرفة مع اللحن. كان للسحب البيضاء أثر متعذر على الوصف: عامت من خلالي بالضبط وفكرت في أني قد أموت من شدة الفرح. استمر هذا قدمًا، لم يكن لدي مفهوم للزمن ولا فكرة عمن أكون. ثم ومض شعور بالواقع فيّ وبدأت أغرق وأسقط عبر الفراغ. تلاشى الضوء، ازداد كل شيء من حولي قتامةً، رأيت الأرض من تحتي وعرفت مكاني، رأيت بلدات، وكان هناك ريح ودخان. ثم توقفت. نظرت من حولي ووجدت

نفسي محاطًا بالبحر. تبدد شعوري بالنشوة. اصطدمت بالصخور، وشعرت بالبرد. كان هناك قعر رملي أبيض عند قدمي، وفوقي ماء وحسب. سبحت قليلًا ، كانت تحيط بي نباتات غريبة، مورقة خضراء حلوة المذاق، وزهور البحر تتمايل-عالم من الصمت التام، لكنّ كل شيء حيّ ومتحرك. سبحت ووصلت إلى حيِّد مرجاني. كان منهوبًا، جميع المرجان قد رحل. قلت لنفسي: «كان هنا شخص ما قبلي،» ولم أعد أشعر بوحشة شديدة. بدأت أسبح نحو الشاطئ لكنّي سرعان ما توقّفت. كان هناك جسد ممدّد على القاع تمامًا أمامي. امرأة طويلة نحيلة. تستلقي على صخرة، جسدها مشوّه على نحو سيّئ. قلّبتها وأدركت أني رأيتها من قبل. لم أفهم كيف ماتت، عرفتها من الصليب ذي الحجارة الخضراء. كانت نفس المرأة التي تبعتها عبر الممر الطويل المتعدد الغرف. أردت أن أواصل السباحة لكني شعرت بأن عليَّ أن أتوقف لأسوّي جسدها، كانت ممددة على ذلك الحجر على نحو ترك انطباعًا فظيعًا فيّ. كانت عيناها مفتوحتين. سحبتها إلى بقعة رملية، رفعت الصليب إلى حنجرتها في فستانها بحيث لا تستطيع الأسماك الوصول إليه. ثم سبحت مبتعدًا.. قيل لي في صباح اليوم التالي إنّ المرأة ماتت أثناء الليل. لقد قفزت في البحر الذي يشرف عليه الحي الصيني، وجدوها في الصباح. لم أستطع أن أصدّق ذلك، ربما يمكنني رؤيتها مرة ثانية لو حاولت. وهكذا دخّنتُ الأفيون ثانية لكنه لم ينفع. ألم يكن ذلك غريبًا؟ وبعد ذلك عشت مغامرة أخرى في وقت من الأوقات. عدت إلى وطني في أوروبا. كنت أسير ذات ليلة لطيفة ووصلت إلى مرفأ وتوقفت لفترة عند المضخّات المائيّة أصغي إلى حديث على متن السفن. لم تكن المضخّات تعمل وكان كل شيء ساكنًا. شعرت بالتعب لكني لم أرغب في العودة إلى البيت لأني كنت

أشعر بحَرّ شديد، لذا تسلّقتُ هيكل إحدى المضخّات وجلست. لكن الليل كان حارًا للغاية وساكنًا فلم أستطع البقاء مستيقظًا. غططت في النوم. استيقظت لدى سماعي صوتًا يناديني. نظرت إلى الأسفل ورأيت امرأة تقف على الحصى في الأسفل. كانت نحيلة وطويلة القامة وفي وميض ضوء الغاز رأيت أنها كانت ترتدي ثيابًا خفيفة جدًا. حيّيتها «إنها تمطر،» قالت. لم أكن واعيًا لكني فكرت في أنه من الأفضل أن أنشد ملجأ. نزلت من على الهيكل. وفي تلك اللحظة بدأت المضخات الجارفة تعمل، بدأت مجرفة تنوس في الهواء واختفت وتبعتها أخرى، أدركت أنه إن لم ابتعد في الحال سأتمزق أشلاء. نظرت من حولي ورأيت أنها تمطر قليلًا. كانت المرأة تسير أمامي ولم أكن أشك في هويتها، كانت لا تزال ترتدي الصليب، تعرفت إليها منذ البداية ولو أني تظاهرت بغير ذلك. الآن أردت أن أتخطاها ومشيت بأسرع ما يمكنني لكني لم أتمكن من اللحاق بها. هي لم تمس الأرض لكن بدت كأنها تتزحلق دون أن تحرك قدميها. انعطفت عند ناصية واختفت. حدث هذا منذ أربع سنوات».

توقف نيجل عن الكلام. بدا الطبيب على وشك أن ينفجر ضاحكًا لكنه اصطنع الجدية وقال: «ولم ترها منذ ذلك الحين؟».

«نعم رأيتها ثانية اليوم. لهذا السبب لا يمكنني أن أزعزع هذا الارتباك. كنت واقفًا أمام نافذة غرفتي أنظر وكانت هناك تتوجه نحوي مباشرة عبر الساحة كما لو أنها قادمة من المرفأ والبحر. توقفت تحت نافذتي ورفعت بصرها، لم أكن واثقًا من أنها كانت تنظر إليَّ، لذا انتقلت إلى النافذة الأخرى، لكن عينيها لحقتا بي. ثم انحنيت لها وعندئذ التفتت سريعًا وعادت عبر الساحة باتجاه رصيف الميناء. انتفش الجرو جاكوبسن وانطلق خارج الفندق ينبح باهتياج.

هذا لفتني بغرابة إلى حد ما. كدت أنساها بعد كل هذا الوقت، لكن ها هي هنا ثانية. ربما أرادت أن تحذّرني من شيء ما».

انفجر الطبيب ضاحكًا. «هي فقط أرادت أن تحذرك لتأتي وترانا،» قال.

«حسنًا، هذه المرة ارتكبت خطأً. لم يكن هناك ما يخشى منه، أعرف ذلك، لكن في المرة الأخيرة كانت هناك تلك المجارف التي قد تمزقني إلى أشلاء لهذا لم أكن شديد الارتياح. إذن أنت لا تظن بأنه يعني شيئًا؟ كم سخيف أن يجد المرء نفسه متورطًا في أمر كهذا. إنه حقًا يثير الضحك».

«مجرد خرافة وعصبية،» قال الطبيب على نحو لاذع.

بدأ الآخرون يروون القصص، ودقّت الساعة مرارًا وتكرارًا. شارف المساء على الحلول، فيما ظلّ نيجل صامتًا أثناء المحادثة. وبدأ يشعر بالبرد. وأخيرًا نهض ليودّعهم. لم يستطع أن يعطي الرسالة لداجني، عليها أن تنتظر. ربما قد يزور الطبيب غدًا ليعطيه إياها. تلاشى مزاجه السعيد كليًا.

ذهل لرؤية داجني تنهض أيضًا وهو على وشك المغادرة.

«كنت تروي هذه القصص الرهيبة حتى أني شعرت بالاهتزاز كليًا. لا بد من أن أذهب إلى البيت قبل أن يشتد الظلام».

وغادرا الحديقة معًا. كان نيجل مغتبطًا، تورد خداه بلون زهري. الآن سيكون في وسعه أن يعطيها الرسالة. ولن يحظى بفرصة أفضل.

«هل تريد أن تراني لأمر ما؟» صرخ الطبيب خلفه.

«ليس حقيقة،» أجاب مشوّشًا بطريقة ما.. «لقد فكّرت في المرور بك؛ لقد مر وقت طويل منذ أن رأيتك آخر مرة. ليلة سعيدة».

وهما يسيران في الشارع انتابهما الشعور بالحرج. كان من الواضح أن داجني محرجة وكل ما استطاعت قوله هو حديث عن الطقس، يا له من مساء جميل دافئ!

نعم، أليس كذلك؟

لم يستطع أن يجد ما يقوله ولكنّه ظلّ يمشي وهو ينظر إليها، لم تتغيّر عيناها المخمليتان وضفيرتها الطويلة الشقراء معلقة على ظهرها. كل حنوه عليها انبعث حيًا، قربها دوّخه وللحظة غطّى عينيه بيديه. كانت تزداد جمالًا في كلّ مرة يراها! نسي كل شيء-ازدراءها، إبعادها مارتا عنه، استهزاءها القاسي بالمنديل، ابتعد كي لا يدلي باعتراف انفعالي آخر. لا، عليه ببساطة أن يضبط نفسه. ساقته مرتين بوحشية من قبل -كان رجلًا، في النهاية! حبس نفسَه وجمّع كلّ شجاعته.

وصلا إلى الشارع الرئيس، كان الفندق إلى اليمين، نظرت كما لو أنها توشك على قول شيء.

مشى إلى جانبها صامتًا. ربما قد تسمح له بالسير معها في الغابة؟

فجأة نظرت إليه وقالت: «أحببت سماع قصتك. ألا تزال تشعر بالقلق؟ لا شيء تقلق بشأنه!».

كانت لطيفة ودمثة هذا المساء، سيطرح موضوع الرسالة.

«أود أن أطلب منك صنيعًا،» قال. «لكني لا أجرؤ، لا أتصور أنك قد تقومين به من أجلي».

«سيسرني ذلك،» أجابت.

سيسرها أن تفعل. أخرج الرسالة من جيبه.

«أود أن أرسل هذه الرسالة، هي بضعة أسطر لا غير، لا شيء على

قدر من الأهمية، لكنها للآنسة جودي، لقد رحلت، ربما تعرفين إلى أين؟».

توقفت داجني. فجأة ظهر تعبير غريب لا يُفسّر في عينيها الزرقاوين، وللحظة وقفت كأنما أصابها الشلل. «للآنسة جودي؟» قالت.

«نعم، سأقدر لطفك كثيرًا، لكن يمكنها أن تنتظر، إنها غير مستعجلة».

«نعم بالتأكيد» قالت سريعًا. «أعطني إياها وسأعمل على إيصالها إليها.» عندما وضعت الرسالة في جيبها أومأت وقالت: «حسنًا، شكرًا لرفقتك. الآن عليَّ الذهاب.» نظرت إليه ثانية وابتعدت. بقي ماثلًا هناك.

لمَ ذهبت فجأة؟ مع أنها لم تكن غاضبة، بل على العكس.

لكنها غادرته على نحو مفاجئ! استدارت نحو طريق بيت الكاهن ورحلت. عندما غابت عن مرمى بصره التفت وعاد إلى الفندق. كانت ترتدي قبعة ناصعة البياض، ولقد رمقته بنظرة غريبة..

الفصل الثاني والعشرون

لم يتمكن من فهم النظرة التي رمقته بها. إذا كان قد أساء إليها ثانية سيسوي الأمر معها عندما يراها مجددًا. بدا رأسه غريبًا جدًا، لكن لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق فاستعاد طمأنينته. شكرًا لله!

جلس على الأريكة وبدأ يتصفّح كتابًا لكنّه لم يتمكّن من القراءة. فنهض منزعجًا ومشى إلى النافذة. لم يجرؤ على الاعتراف بذلك لنفسه، لكنه في واقع الأمر كان يخاف أن ينظر من خلال النافذة لأنه يخشى أن يرى مشهدًا غريبًا آخر. بدأت ركبتاه ترتجفان، ما خطبه؟ عاد إلى الأريكة وترك الكتاب يسقط على الأرض. رأسه ينبض ويشعر بالسُقم. لا شك في أنه كان محمومًا.

أثّر فيه قضاء ليلتين في الغابة مكشوفًا. شعر ببوادر القشعريرة في حديقة الطبيب.

حسنًا، سيتعافى. فليس من عادته أن يسمح لبرد عادي بالنَّيل منه. غدًا سيكون على ما يرام. طلب بعض البراندي، لكنه لم يؤثّر فيه ولم يشعر بالنشوة، مع أنه شرب عدة كؤوس. ما روّعه حقًا هو أنّه أحس بخطب في رأسه، ولم يتمكن من استجماع أفكاره.

حدث هذا بشكل مباغت جدًا خلال الساعة الأخيرة! لكن لمَ كانت الستائر ترفرف بهذه الطريقة؟ لم تكن هناك رياح. ما معنى هذا؟ نهض ونظر إلى نفسه في المرآة. بدا مريضًا وذاهلًا، أصبح شعره

رماديًا وتحيط بعينيه هالات حمر. «أما زلت تشعر بالقلق؟ ليس عليك أن تكون خائفًا!» داجني الجميلة في قبّعتها الناصعة البياض!

قرع الباب ودخل صاحب الفندق. جاء أخيرًا ليقدّم لنيجل الفاتورة التي كانت مُفصّلة ومؤلّفة من صفحتين. لكن المالك كان يبتسم وفي غاية التهذيب.

سحب نيجل محفظته وبدأ يفتشها، مرتجفًا من شدة القلق، سأل عن المبلغ الذي يدين به. وأخبره صاحب الفندق. لكنه يمكن أن ينتظر حتى الغد أو بعد الغد، ما من عجلة.

حسنًا، الله يعلم إذا ما كان في وسعه أن يدفع، لم يكن متأكدًا من أنه يملك مبلغًا كافيًا من المال. كانت محفظته فارغة! رماها على الطاولة وبدأ يفتش في جيوب معطفه. كان يائسًا وبحث في كل مكان. أخيرًا بحث في جيوب بنطاله، أخرج بعض الفكة وقال: «هاك بعض النقود، لكني لا أتصور أنه يكفي، عدّها بنفسك».

«لا، لا يكفي،» قال صاحب الفندق.

رشح العرق من جبهة نيجل، كان قلقًا من إعطاء صاحب الفندق هذه الكرونات القليلة، وواصل البحث في جيوب صداره على أمل أن تحتوي على بعض الفكة، كانت هي أيضًا فارغة. لكن بالتأكيد يمكنه دومًا أن يقترض القليل!

بالتأكيد شخص ما سيسدي له معروفًا! كان واثقًا من أن شخصًا ما سيأتي لإنقاذه!

توارت الابتسامة من على وجه صاحب الفندق، حتى أن سلوكه المهذّب قد ولّى، والتقط محفظة نيجل التي لا تزال ملقاة على الطاولة وبدأ يفتشها.

«امض قدمًا!» قال نيجل. «يمكنك أن ترى بنفسك أنها لا تحتوي

سوى على الوثائق الشخصية، لا يمكنني أن أفهم!».

حينها فتح صاحب الفندق الجزء الأوسط ورمى المحفظة على الطاولة. افتر ثغره عن ابتسامة عريضة من هول المفاجأة.

«حسنًا، ها هي! لا بد من أنها بالآلاف! كنت تمزح! أردت أن تعرف إذا ما كنت أحتمل المزحة».

سايره نيجل سعيدًا كطفل متنفسًا الصعداء وقال: «نعم، كنت أمزح. فقط فكرت أني قد أمرح معك قليلًا، شكرًا لله لا أزال أملك الكثير من النقود. انظر هنا!».

كان هناك عدد كبير من الأوراق النقدية الكبيرة القيمة، الكثير من آلاف الكرونات، كان على صاحب الفندق أن يخرج ليأتي بالباقي ليستطيع أن يأخذ ما يستحقه، لكن بعد وقت طويل من مغادرته كانت جبهة نيجل لا تزال ترشح عرقًا وكان يرتجف من شدة التأثر. فما حدث هزّه بحق ويا لها من جلبة غريبة في رأسه!

بعد فترة من الزمن، نام نومًا متقطّعًا على الأريكة، يتلوّى في كابوس، ويتحدّث بصوت مرتفع، يغنّي، يطلب البراندي الذي شربه محمومًا ونصف متيقظ.

دخلت سارة مرات عديدة، وعلى الرغم من أنه واصل التحدث بغير انقطاع، إلا أنّها لم تفهم سوى القليل ممّا كان يقوله. استلقى هناك، وعيناه مغلقتان.

لا، هو لا يرغب في خلع ملابسه. ما مشكلتها-نحن في منتصف النهار، أليس صحيحًا؟ سمع بوضوح تغريد الطيور. ليس عليها طلب الطبيب أيضًا. قد يصف له الطبيب مرهمًا أبيض ومرهمًا أصفر فقط وحينها قد يتسبب خلطهما معًا بخطأ قاتل وسرعان ما سيموت. هذا ما تسبب بموت كارلسن، ألا تذكر كارلسن؟ نعم هذا ما أودى بحياته.

حسنًا، بأية حال، قد وضع كارلسن صنارة الصيد في حلقه، وعندما وصل الطبيب مع أدويته، تبيّن أنها كأس ماء من نبع صاف مقدّس وذلك ما صدمه. لكن هذا لم يكن شيئًا يثير الضحك. «سارة ليس عليك أن تظنّي بأنّي ثمل. أنا فقط أربط الأفكار-تعلمين ما أعنيه. الموسوعيون وهلم جرًا. عدي الأزرار، سارة، وانظري إذا ما كنت ثملًا! اسمعي! طواحين البلدة تدور! يا لها من حفرة مهجورة تعيشين فيها سارة! أود أن أحررك من أيدي أعدائك، كما يقول الإنجيل. أو اذهبي إلى الجحيم! من أنت بأية حال؟ أنت منافقة، جميعكم كذلك، وأنا سأزوركم لأوبخكم على ذلك، جميعكم! ألا تصدقيني؟ كنت أراقبك! أعرف أن الملازم هانسن وعد القزم بقميصين من الصوف لكن هل تظنين أنه أرسلهما؟ وهل تظنين أن القزم سوف يجرؤ على الاعتراف بأنه لم يفعل؟ دعيني أؤكد لك بأنه لن يجرؤ أبدًا! هو يرتبك ويتفادى الموضوع، أليس كذلك؟ لو لم أكن مخطئًا، جروجارد، أنت تجلس هناك تكشّر تكشيرتك البهيمية خلف تلك الصحيفة. ألا تفعل؟ حسنًا، لا يهمني. سارة هل أنت هنا؟ حسنًا، لو تجلسين هنا خمس دقائق سأحكي لك حكاية. لا بأس؟ لكن أوّلًا جرّبي أن تتخيّلي رجلًا يتساقط حاجباه تدريجيًا.

هل تخيلت؟ الرجل يفقد حاجبيه. ثم هل لي أن أسألك إذا ما نمت يومًا في سرير يُصدر صريرًا؟

عدّي أزرارك وانظري إذا ما حدث ذلك معك. لقد كنت مرتابًا منك. كنت أراقب جميع من في البلدة، علاوة على ذلك. وأنا أظن بأني أنجزت عملًا. لقد وفرت لكم جميعًا دستة من موضوعات ممتعة كثيرة للمحادثة، ولا جدوى من التلهية في حيواتكم الرتيبة! لقد اختلقت الفضيحة تلو الأخرى في حيواتكم المتشابهة الموحشة!

يا لها من ضجة فظيعة تصدر عن تلك الطواحين -يا له من هدير مُصمّ! علاوة على ذلك أنصحك، أيتها العانس المحترمة، سارة بارميد، ابنة جوزيف، أن تشربي مرق اللحم الصافي حارًا، لأنك إذا ما تركته يبرد لن تحصلي على شيء سوى الماء. المزيد من الكونياك سارة، رأسي تؤلمني من كلا الجانبين وحتى في المنتصف. إنه نوع غريب من الألم...».

«هل يمكنني أن أجلب لك شيئًا ساخنًا؟».

«شيء ساخن؟ أية فكرة مجنونة كانت تلك؟».

سرعان ما سينتشر في جميع أنحاء البلدة أنه كان يشرب شيئًا حارًا. لا بد من أن تفهم بأنه لا يريد أن يختلق فضيحة. أراد أن يتصرف مثل دافع ضرائب في وضع جيد، يتنزه بانتظام على طريق بيت الكاهن، ولن تكون لديه الجرأة أبدًا ليعترف بآراء مختلفة عن آراء الناس. وبأنه قد يقسم رافعًا ثلاث أصابع (بتحية الكشافة). ليس عليها أن تقلق. لكنه كان حقًا يشعر بألم رهيب، لهذا لم يرغب في خلع ملابسه. ربما يرحل سريعًا بتلك الطريقة.

على المرء أن يقاتل أمرًا من هذا النوع...

كان حاله يسوء، وهو ما أصاب سارة بالذعر. لم ترغب في شيء سوى الابتعاد، لكن في الدقيقة التي حاولت فيها النهوض سأل عما إذا كانت تغادره. كانت تنتظر منه أن يتحدث حتى يدركه الإنهاك ويغط في النوم. لكنه ظل يرتجف، عيناه مغلقتان ووجهه متورد من السخونة. فكر في طريقة جديدة لتخليص أجمات الكشمش عند السيدة ستينرسن من القمل. هذه كانت الفكرة: ذات يوم سيذهب إلى متجر في الساحة ويشتري علبة كيروسين، وحينها سيخرج إلى الساحة، يملأ حذاءه به، ويشعل النار في فردتيه، الواحدة بعد الأخرى. ثم قد

يغني ويرقص حولهما في جوربيه. كان يخطّط لفعل هذا ذات صباح عندما يتعافى من جديد. قد يصنع سيركًا حقيقيًا من ذلك، أوبرا خيل حقيقية، وقد يمشي هنا وهناك يستحث الهمم.

فكّر أيضًا في أسماء غريبة وألقاب لمعارفه. على سبيل المثال، سمى النائب رينيرت «بيلج[1]،» ادعى أنه كان لقبًا. «السيد رينيرت حثالة البلدة المحترم،» تفكر. أخيرًا بدأ يتشدق حول علو السقف في منزل القنصل أندرسن. «سبع أقدام! سبع أقدام!» صرخ مرارًا وتكرارًا. «هذا ظني. ألست على حق؟» لكن جديًا كان يستلقي حقيقة هناك وصنارة صيد في حلقه-لم يكن يتصنع، وكان ينزف على نحو مريع، ويتألم بشكل فظيع...

أخيرا غط في نوم عميق.

استيقظ حوالي الساعة العاشرة. كان لا يزال مستلقيًا على الأريكة. انزلق الغطاء الذي غطته سارة به على الأرض، لكنه لم يكن يشعر بالبرد. أغلقت سارة أيضًا النوافذ، ففتحها. بدا أن رأسه قد صفا، لكنه شعر بأن قواه خائرة وكان يرتجف. مرة أخرى كان الرعب والخشية يتملكانه لدى إصدار الجدران صريرًا أو عندما كان يسمع صراخًا من الشارع، شعر بأن الضجة تعبر أضيق عظامه. ربما إذا ما ذهب إلى السرير ونام حتى الصباح قد يتحسن. خلع ملابسه.

لكنه لم يكن قادرًا على النوم. استلقى هناك يفكّر في كلّ ما حدث له في آخر أربع وعشرين ساعة، من لحظة ذهابه إلى الغابة وإفراغ قارورة الماء حتى اللحظة، وهو يستلقي هنا متألمًا معذبًا محمومًا. كم بدا له اليوم طويلًا! إنّه ما يزال ممسوسًا بذلك الخوف الغامض المبهم الذي كان يوشك أن يكون كارثة. ما الذي فعله؟ لمَ كان هناك

---

(1) حثالة.

الكثير من الهمس حول سريره؟ كانت الغرفة ممتلئة بالتمتمات. فرد يديه وأحس بأنه يسقط في النوم.

فجأة نظر إلى يديه ولم يجد خاتمه. تسارع نبض قلبه ونظر مجددًا.

كانت هناك دكنة باهتة حول إصبعه لكن ما من خاتم! يا إلهي، ضاع الخاتم! نعم، تذكّر أنه رماه في البحر، لم يظن بأنه سيحتاج إليه بعد الآن، طالما أنه على وشك الموت. لكنّه ضاع الآن-خاتمه ضاع.

قفز من السرير بسرعة، ارتدى ملابسه، واندفع حول الغرفة كالمجنون. كانت الساعة العاشرة-بحلول منتصف الليل عليه أن يجد الخاتم، تلك قد تكون الفرصة الأخيرة المتاحة-الخاتم، الخاتم!

هرع إلى الطابق السفلي، وخرج إلى الشارع وتوجّه إلى أرصفة الميناء. حدّق نزلاء الفندق إليه لكنه لم يهتم. شعر بالدوار ثانية، كانت ركبتاه خائرتين تحته لكنه لم يكن يعي ذلك. الآن عرف لمَ ظلّ متضايقًا طوال اليوم-كان خاتمه الحديدي مفقودًا! والمرأة ذات الصليب ظهرت له!

قفز مذعورًا إلى أول مركب صادفه.

كان موثقًا إلى رصيف الميناء ولم يستطع أن يفك الحبل. نادى رجلًا وطلب منه أن يساعده في فكه. لكن الرجل قال إنه لا يجرؤ لأن المركب ليس مركبه. سيتحمّل نيجل كامل المسؤولية، عليه أن يجد الخاتم-سيشتري المركب. لكنّ المركب مقفلٌ.

ألم ير السلسلة؟ حسنًا إذن، سيأخذ مركبًا آخر. وقفز نيجل إلى مركب آخر.

«إلى أين أنت ذاهب؟» سأل الرجل.

«أبحث عن خاتم. قد تعرفني. كنت أضع خاتمًا في هذه الإصبع. يمكنك أن ترى العلامة بنفسك-أقول لك الحقيقة. والآن رميته بعيدًا، إنه ممدد هنا في مكان ما».

لم يبد على الرجل أنه قد فهم.

«أنت ذاهب للبحث عن خاتم في قعر البحر؟» سأل.

«تمامًا،» قال نيجل. «هل تفهم؟ عليَّ أن أجد خاتمي، أنت تدرك ذلك. والآن تعال وجذّف بي».

ثانية سأل الرجل: «أنت ذاهب للبحث عن خاتم رميته في البحر؟».

«نعم تعال، سأدفع لك مبلغًا جيدًا».

«يا إلهي دعك من ذلك، هل تخطط لتفتش عنه بأصابعك؟».

«نعم، لا يهم كيف-يمكنني أن أسبح مثل سمكة».

ربما يمكنك أن تفكر في طريقة أخرى للحصول عليه».

صعد الغريب إلى المركب بالفعل، وبدأ يضع خططًا للبحث عنه مشيحًا بوجهه طوال الوقت. كانت المحاولة جنونًا! لو كان مرساة أو حبلًا، ربما يكون ممكنًا-لكنّه خاتم! ولم يعرف حتى البقعة على وجه التحديد!

نيجل نفسه بدأ يدرك عبثية المحاولة. لكنه رفض الاعتراف، لأنه يعني ضياع كل شيء! حدقت عيناه بنظرة خاوية في الفراغ وكان يرتجف من الحرارة والرعب. تحرك كما لو أنه ينوي القفز من على متن المركب لكن الرجل أمسك به. انهار نيجل. كان دائخًا منهكًا وضعيفًا جدًا لا يقوى على الكفاح. يا إلهي، مستحيل! ضاع الخاتم، سيحل منتصف الليل قريبًا وسوف يكون الخاتم قد ضاع منه إلى الأبد! وقد أعذر من أنذر!

صفا عقله فجأة، جرت أفكار لا تُعدّ ولا تحصى فيه خلال هاتين الدقيقتين أو الثلاث. تذكر أمرًا غاب عن باله: مساء أمس كتب مكتوب وداع لأخته وأرسله. لم يمت بعد، لكن الرسالة أرسلت، لا يمكن إيقافها. يجب عليها أن تتبع مجراها، وهي أيضًا في طريقها الآن. عندما تتلقى أخته الرسالة، لا بد من أن يكون ميتًا! عدا عن أن الخاتم ضاع، لم تعد الحياة ممكنة.

كانت أسنانه تصطك. نظر من حوله يائسًا. لم يكن البحر أبعد من قفزة قصيرة. استرق النظر إلى الرجل على مقعد المجذّف أمامه، كان مشيحًا بوجهه لكنه يراقبه، وهو على أهبة الاستعداد للإمساك به إذا لزم الأمر. لكن لماذا يشيح الرجل بوجهه بهذا الشكل؟

«دعني أساعدك على النزول،» قال الرجل، رافعًا إياه من تحت إبطيه.

«ليلة سعيدة،» قال نيجل، وهو يسير مبتعدًا.

لكن الرجل تبعه باحتراس، مراقبًا حركاته بتحفظ من بعيد. غاضبًا، التفت نيجل وقال ليلة سعيدة مرة ثانية، وحاول أن يقفز من على الرصيف. لكن الرجل أمسك به ثانية.

«لا يمكنك أن تنجح في هذه المهمة العسيرة،» همس في أذن نيجل. «أنت سباح ماهر جدًا. ستعود ثانية».

كان نيجل مجفلًا واستجمع أفكاره. نعم، كان سباحًا ماهرًا، سيطفو مجددًا وسينجو. نظر إلى الرجل، ثمّ حدّق فيه، وجه شنيع شزر نحوه–كان القزم! ثانية القزم، دومًا القزم.

«ليأخذك الشيطان، أيها الأفعى القذرة الزاحفة!».

صرخ نيجل، وبدأ يركض. ترنح على طول الطريق مثل ثمل، تعثر

وسقط، نهض مجددًا.

كان كل شيء ضبابيًا، وراح يركض ويتعثّر باتجاه البلدة. للمرة الثانية أفشل القزم خططه. باسم الله، ما الذي يفكر فيه بعد ذلك؟ كل شيء تأرجح، وتناهى إليه من البلدة صوت زمجرة غريب-ما هذا؟ سقط ثانية.

نهض على ركبتيه وبدا يؤرجح رأسه من جانب إلى آخر. اسمع! صدحت صرخة من البحر! كان منتصف الليل تقريبًا والخاتم لا يزال مفقودًا. شيء ما كان يلحق به، سمع صوت بهيمة كثيرة الحراشف ببطن مهول تجر نفسها على الأرض، مخلفة ممرًا رطبًا خلفها، وحش مخيف بأذرع تنمو من رأسه وفك أصفر يبرز من خطمه. ابتعد! ابتعد! ثانية صدحت صرخة من البحر، ووضع يديه على أذنيه كي لا يسمع الصوت.

قفز. كانت لا تزال هناك بارقة أمل، المسدس، إنّه السبيل الأخير، المخرج الأكيد! بكى، استحوذ عليه الامتنان، ركض بأسرع ما استطاع، انسكبت دموع الفرح والارتياح لإيجاده هذا الحل. فجأة أدرك أن الوقت متأخر، لم يكن هناك من سبيل للحصول على مسدس، فكل المتاجر مغلقة. عند ذلك استسلم وسقط دون صوت، جبهته غارقة في الأرض. خرج صاحب الفندق وعدة نزلاء ليروا ما الذي حل به.

استعاد وعيه ونظر من حوله. كان كل شيء مجرد كابوس-وكان نائمًا. شكرًا لله أن كل ذلك كان حلمًا، هو لم يغادر سريره حتى.

استلقى هناك للحظة يفكّر. نظر إلى يده ولم يكن الخاتم موجودًا. نظر إلى ساعته كان الوقت منتصف الليل تقريبًا-فقط بضع دقائق. ربما انتهى-ربما ينجو في النهاية! لكن قلبه كان يخفق بعنف وكان يرتعش من رأسه حتى أخمص قدميه.

ربما سيحلّ منتصف الليل ولن يحدث شيء؟

أخرج الساعة بيده المرتجفة، وعد الدقائق، الثواني...

وقعت الساعة على الأرض وقفز من السرير.

«شخص ينادي،» همس، ونظر من النافذة بعينين جاحظتين. ارتدى ثيابه سريعًا، فتح الباب بعنف، وهرع إلى الشارع. نظر من حوله، لكن لم يكن أحد يبصره. بدأ يركض نحو أرصفة الميناء، صداره الأبيض يجذب الضوء.

وصل الميناء وهرع إلى أكثر الأرصفة بعدًا، قفز في البحر. صعدت بعض فقاعات على السطح.

الفصل الثالث والعشرون

في وقت متأخر من ليلة من ليالي شهر نيسان التالي، كانت داجني ومارتا تسيران في البلدة في طريقهما إلى البيت قادمتين من حفلة. كانتا تسيران ببطء بسبب الظلمة وبعض البقع الجليدية المنتشرة على الطريق.

«كنت أفكر في كل ما قيل عن نيجل هذا المساء،» قالت داجني. «أغلب الحكايات كانت جديدة عليَّ».

«لم أسمع بأي منها،» قالت مارتا. «غادرتُ الغرفة».

«لكن كان هناك أمر واحد لا يعرفونه،» تأملت داجني. «قال لي نيجل الصيف الماضي إن نهاية القزم ستكون سيئة. لا أفهم كيف أمكنه أن يعرف. قال ذلك قبل وقت طويل من إخبارك لي بما فعله القزم معك».

«حقًا؟»

«نعم».

انعطفتا على طريق بيت الكاهن. كانت الغابة من حولهما مظلمة وصامتة. لم يكن هناك صوت فيما عدا وقع خطواتهما على الأرض المتجمدة...

بعد صمت طويل قالت داجني متأملة: «هذا كان الطريق الذي يسلكه دومًا».

«من؟» قالت مارتا. «إنها زلقة. ألا تودين أن تمسكي بذراعي؟».

«نعم، لكن من الأفضل أن تتمسكي بذراعي».

وسارتا في صمت، مترابطتي الأذرع، تمسك الواحدة بالأخرى بإحكام.

ألف راء

| علامات في الرواية العالمية |

| سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي |

الساعة الخامسة والعشرون

المؤلِّف: قُسطنطين جيورجيو

البلد: رومانيا

ترجمة: فائز كم نقش

إنّ رواية «الساعة الخامسة والعشرون» أحد أكثر الأعمال السردية الباعثة على أسئلة جذرية حول مصير الإنسان المأسَوِيّ، رواية تتجلّى فيها أصداء الملاحم الكبرى، والتراجيديات الإغريقيّة والمآسي الشكسبيريّة، ومجمل الأعمال التي انصبّ اهتمامها على مصير الإنسان، لذلك فهي تنتسب إلى سلالة الآداب السرديّة الرفيعة الخالدة.

ولعلّ القرّاء يشاطرونني الرأي القائل إنّ كثيرا من الروايات يتلاشى حضوره من الذاكرة بمرور الأيام، وتصبح استعادة أجوائه صعبة، وربما شبه مستحيلة، وقليلا منها يدمغ الذاكرة بختمه الأبدي، ومن ذلك القليل النادر، في ما أحسب، رواية «الساعة الخامسة والعشرون»

د. عبد الله إبراهيم

أحدثت هذه الرواية ضجّة في أوروبا كلّها لم يحدثها كتاب مماثل من قبل، فترجمت إلى أكثر من 40 لغة وأُعيد طبعها في فرنسا وحدها 78 طبعة، أمّا في شرقنا العربيّ فقد حظيت بتقريظ واف، فقال بعضهم فيها: «إنّها أفضل كتاب صدر بعد جمهوريّة أفلاطون» وقال آخرون: «لم يسبق لكاتب أن نجح في هزّ مشاعر جماهير العالم كلّه نجاح مؤلّف هذا الكتاب»

فائز كم نقش

ظلّ الريح
(مقبرة الكتب المنسيّة)
المؤلف: كارلوس زافون
البلد: إسبانيا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

أيّ قدرة لهذا الروائي الماكر على التلاعب بهذا الحشد الغفير من الشخصيّات؟ أيّ براعة تجعله يحوّل كلّ عنصر مَهما كان بسيطا إلى متعة خالصة؟ لأوّل مرّة يعبث بي عمل روائيّ بمثل هذا الشكل، وكلّما توقّعت النصّ سائرا في طريق وجدتني على الضفّة الأخرى، فيما الكاتب يرسل إليّ تحيّاته من بعيد وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة. لكأنّنا إزاء علبة باندورا، كلّ علبة تخفي علبة أخرى، ومع كلّ علبة تزداد شرور الكاتب وهو يتلاعب بقارئه دون رحمة، مُقدّما لكلّ صنف من القرّاء ما يحتاج إليه: حبكةً بوليسية للقارئ البسيط تجعله يلهث لمعرفة الأحداث، مسحةً رومانسية تجعل قارئا آخر متورّطا في دوّامة من قصص الحب، قطعةً من تاريخ الحرب الأهلية في إسبانيا للمؤرّخ، وحشدًا من الرموز لعلاقة الكتابة بمفاهيم اليُتم والوجود والحياة.. لن أكشف الحكاية فهي على المتعة العالية التي تمنحها للقارئ لا تشي ببراعة زافون السرديّة فحسب بل تضعنا وجها لوجه أمام حشد من الأسئلة والمفاهيم،

إنّنا قبالة عمل سرديّ عظيم، ولم يكن وزير خارجية ألمانيا الأسبق يوشكا فيشر يبالغ وهو يتحدّث عن كتاب في 521 صفحة، حين قال: «ستقرأ الرواية في جلسة واحدة، ولن تنام الليل وأنت تتعقّب ظلّ الريح. لن يسمح لك زافون بأن تترك الكتاب قبل أن تبلغ الجملة الأخيرة» ولعلّه كان يقصد: «قبل أن ترتشف الجملة الأخيرة»

شوقي العنيزي

آخذك وأحملك بعيدا

المؤلف: نيكولو أمانيتي
البلد: إيطاليا
ترجمة: معاوية عبد المجيد

«آكلو لحوم البشر» اسم جيل روائيّ جديد تزعّمه نيكولو أمانيتي، اسمٌ مُدوّ، جارح، محيّر ومربك، متوحّش وفضّاح، العالم مخز، هذه هي الحقيقة، ولحم البشر مأكول ورخيص وهو أقلّ الأشياء اعتبارا في عالم تهاوت جميع قيمه، اسم يقلق الرّاحة، يزيل القشرة ويكشف الوسخ المتلبّس باللحم والعظم، ولأنّه كذلك فإنّ أمّانيتي يستنبط أسلوبا خاصّا، لم نألفه من قبل لا في الرواية الإيطاليّة ولا الأوروبية، علامتُه الفارقة: «آخذك وأحملك بعيدا».

رواية طويلة تقرأ مرّة واحدة، لن تقدر على تركها قبل إكمالها، ستجد نفسك غارقا في التّفكير في حياتك قائلا «متى سأستفيق من هذه الخرافة؟»، حينما ستبدأ الإجابة يكون الكتاب قد تحوّل من كلام على الورق إلى طريق، ما حقيقتك؟ هل لديك القدرة على تغيير مسارات حياتك؟ هل يجب أن تكون على هامش الحياة، أم أحد أبطالها؟ أسئلة لم تطرح أبدا في أثر روائي بكلّ هذه القسوة والدويّ.

الآن أكملت القراءة، وليس أمامي إلاّ وضع قدميّ على أوّل الطّريق.

نصر سامي

قطار الليل إلى لشبونة
المؤلف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستالة

رحلة في أقاصي الليل
المؤلف: لويس فرديناند سيلين
البلد: فرنسا
ترجمة: حسن عودة

ذئب البراري
المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

انقطاعات الموت
المؤلف: خوزيه ساراماغو
البلد: البرتغال
ترجمة: صالح علماني

ساعي بريد نيرودا
المؤلف: أنطونيو سكارميتا
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

زوربا اليوناني
المؤلف: نيكوس كازنتزاكي
البلد: اليونان
ترجمة: أسامة إسبر

مِيتَتان لرجل واحد
المؤلف: جورج أمادو
البلد: البرازيل
ترجمة: عبد الجليل العربي

الحب والظلال
المؤلف: إيزابيل الليندي
البلد: الشيلي
ترجمة: صالح علماني

لاعب الشطرنج
المؤلف: ستيفان سفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

نرسيس وغودموند
المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

الحب في زمن الكوليرا
المؤلف: غابريال غارسيا ماركيز
البلد: كولمبيا
ترجمة: صالح علماني
(الترجمة العربية الكاملة 2016)

رابطة الشعراء الأموات
المؤلف: نانسي.هـ. كلينباوم
البلد: أمريكا
ترجمة: أماني لازار

ألعاب خطيرة
المؤلف: أغوز آتاي
البلد: تركيا
ترجمة: بكر صدقي

السنة المفقودة
المؤلف: بيدرو ميرال
البلد: الأرجنتين
ترجمة: أشرف القرقني

كنوت هامسُن

أسرار

هل عاد دوستويفسكي مرة أخرى إلى الحياة ليكتب نصًا أدبيًا نُشر تحت اسم كنوت هامسُن؟ أم أنّ هناك بالفعل روائيًا آخر يستطيع أن يصل إلى ذروة التحليل النفسي في شخوص أبطاله بقدر ما كان يفعل دوستويفسكي؟ لقد ذهب أحد الروائيين إلى حدود الإقرار بأن هامسُن تخطّى دوستويفسكي نفسه، قد لا أتفق معه بشكل كامل ولكن -بعد قراءة أسرار- يمكن أن أقول إنّ هامسُن وصل إلى مناطق مخيفة في النفس البشرية لم يصل إليها دوستويفسكي نفسه. لم أتخيل بأني سأقول هذا الكلام في يوم من الأيّام، ولكن هامسُن فعلها بجدارة، وكانت مفاجئة بالنسبة إليّ، مفاجأة لم أتخيّلها حقًا.

في هذه الرواية لا يسرد كنوت هامسُن بل يضرب، وكأنّ ما يكْتُب به النصَّ مطرقة وليس قلمًا. مطرقة تحطم وتبعثر. ولكنّ هذا الضرب السردي مقدود من لغة عذبة وشعرية للغاية.

يحفر هامسُن في أعماق شخصيّاته ولا يكفّ عن الحفر... من قال إنّ هناك عمقًا قد ينتهي؟ ففي النهاية لا وجود لغير هاوية سحيقة، هاوية لا قرار لها!

ممدوح عبد الله

ISBN: 978-9938-833-62-1



